نســاء الـنـخـبـة في الحياة المصـرية إبَّان عصـر الجبـرتي
(نفيـسة قادن بنت عبد الله البيضـاء) أنموذجا

د. طارق السـيد سـليم
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر (كلية الآداب ــ جامعة المنوفية)

الملـخـص

يهدف هذا البحث إلى إعادة قراءة الدور الذي لعبته نساء النخبة في مصر خلال عصر الجبرتي (النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر)، من خلال دراسة حالة "نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء" المعروفة بـــ"نفيسة البيضاء"، بوصفها نموذجًا فريدًا للمرأة التي تجاوزت الأدوار التقليدية، وأثبتت حضورًا سياسيًا واجتماعيًا فاعلًا في حقبة بالغة التعقيد من تاريخ مصر.

يناقش البحث الصورة النمطية السائدة عن تهميش المرأة في العصر العثماني، ويرصد كيف كانت نفيسة فاعلًا أساسيًا في عدد من الحقب التاريخية المتمايزة، بدءًا من علاقتها بعلي بك الكبير، مرورًا بزواجها من مراد بك، وانخراطها في علاقات معقدة أثناء الحملة الفرنسية، وفترة الاضطرابات السياسية التي أعقبتها، وصولًا إلى بداية عصر محمد علي باشا. كما يتناول البحث أدوات القوة الناعمة التي استخدمتها، مثل إنشاء المؤسسات الخيرية، والوساطة الدبلوماسية، وبناء شبكة نفوذ داخل دوائر الحكم المملوكي.

اعتمد الباحث على مصادر تاريخية أصيلة، من كتابات معاصرة لنفيسة ووثائق ومذكرات رحالة الأوروبيين، فضلا عن الكتابات التاريخية الحديثة؛ مقدمًا قراءة نقدية للمغالطات التي شابت بعض الروايات الاستشراقية. ويوضح كيف أن شخصية نفيسة تعكس نموذجًا للمرأة التي لم تكن فقط حاضرة في صناعة القرار، بل مؤثرة في صياغته، مما يستدعي إعادة النظر في الصورة النمطية لتاريخ المرأة في مصر في الحقبة التاريخية.

الكلمات المفتاحية:

نفيسة البيضاء – نساء النخبة – المماليك – الجبرتي – الحملة الفرنسية – التاريخ الاجتماعي – المرأة في العصر العثماني – الرحالة الأوربيون – نفيسة المرادية

Elite Women in Egyptian Life During the Age of Al-Jabarti: Nafisa Qadin bint Abdullah al-Bayda as a Model

Dr. Tariq El-Sayed Selim – Faculty of Arts, Menoufia University

Abstract:

This study aims to re-examine the role played by elite women in Egypt during the era of Al-Jabarti (the second half of the 18th century and the early 19th century), through a case study of *Nafisa Qadin bint Abdullah al-Bayda*, commonly known as *Nafisa al-Bayda*. She represents a unique example of a woman who transcended traditional roles and demonstrated active political and social presence during a highly complex period in Egypt's history.

The research challenges the prevailing stereotype of women's marginalization during the Ottoman era, and documents how Nafisa played a central role in several distinct historical phases—beginning with her association with Ali Bey al-Kabir, then her marriage to Murad Bey, her involvement in intricate relations during the French expedition to Egypt, the subsequent political turmoil, and finally the early years of Muhammad Ali Pasha's rule. The study further explores the tools of soft power that Nafisa utilized, such as founding charitable institutions, diplomatic mediation, and building a network of influence within the Mamluk ruling elite.

The researcher relied on authentic historical sources, including contemporary writings from Nafisa's time, documents, and memoirs of European travelers, as well as modern historical literature. A critical reading is offered to correct distortions present in some Orientalist narratives. The study demonstrates how Nafisa represents a model of a woman who was not merely present at the decision-making table, but also influential in shaping those decisions—prompting a reconsideration of dominant narratives about women's history in Egypt during that era.

Keywords:
Nafisa al-Bayda – elite women – Mamluks – Al-Jabarti – French expedition – social history – Ottoman-era women – European travelers – Nafisa al-Muradiyya

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ثمة صورة نمطية تنضح بها كثير من الكتابات العربية عامة[1]، والأجنبية خاصة عن المرأة في مصر إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؛ مفادها أنها كانت مهمشة بل ومضطهدة، وثمة باحثون غربيون أقروا بأن هناك "تاريخا طويلا في الغرب يصور نساء الشرق على أنهن مضطهدات من قبل الإسلام وشريعته، ومن قبل ممارسات الذكور من أهلهن"[2]! فما مدى صحة ذلك؟ وحين كنت أعد بحثا حول المرأة المصرية في فترة الاضطرابات السياسية1801–1805م، عالجت فيه دور المرأة المصرية بصفة عامة؛ وجدت أن نفيسة البيضاء تتبوأ الموقع الأبرز بين نساء عصرها؛ بيد أنني وجدت أن دورها أكبر وأعمق أثرا من فترة البحث الوجيزة، ووجدته جديرا بأن يفرد له بحث خاص، يعالج دور نساء النخبة في مصر في النصف الثاني من القرن 18م وأوائل القرن 19م، من خلال تسليط الضوء على أنموذج لهن وهو نفيسة البيضاء؛ التي لم تعرف مصر في تلك الحقبة امرأة تمتعت بقدر كبير من الحضور والتأثير مثلما عرفتها!

[1]- أشار الباحث إلى عدد من هذه الدراسات في بحثه (المرأة المصرية في فترة الاضطرابات السياسية 1801-1805م)، وخلاصة ما جاء فيها أن المرأة كانت تعيش في عزلة وليس لها خروج من منزلها إلا مرتين: الأولى حين تتزوج والأخرى حين تموت". وأنها كانت تعيش في تخلف؛ لظهور آراء تنادي بتحريم خروج المرأة ومشاركتها الجدية في أمور الحياة العامة! للمزيد انظر طارق السيد سليم: المرأة المصرية في فترة الاضطرابات السياسية 1801-1805م، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، أبريل 2022م.

[2]- Fay, M. A.:Unveiling the Harem Elite Women and the Paradox of Seclusion in Eighteenth-Century Cairo, Middle East Studies, Syracuse University, 2012, p. 2.

إن عصر نفيسة هو نفسه عصر الجبرتي؛ حيث إنهما كانا متعاصرين؛ فلقد ولدا في تاريخ متقارب، ثم ماتا في توقيت متقارب أيضا[3]؛ حيث ولدا في منتصف القرن الثامن عشر تقريبا، وماتا في الربع الأول من القرن التاسع عشر.

ومما يزيد من أهمية معالجة دور نفيسة في الحياة المصرية أنها عاشت في مصر حوالي نصف قرن (منذ ستينات القرن 18م حتى منتصف العقد الثاني من القرن 19م) كان شديد الإثارة والثراء بأحداث جسام وتقلبات عظام؛ فلقد عايشت أربع حقب متباينة متمايزة في تاريخ مصر أثرت في تكوينها وأسهمت في بلورة شخصيتها القيادية. ولم تكن نفيسة شاهد عيان فقط عليها؛ بل كانت مشاركا فاعلا في صنعها؛ حيث شهدت بلوغ المماليك ذروة نفوذهم وسلطانهم في عهد زوجها (علي بك الكبير) الذي انفصل بمصر عن الدولة العثمانية، كما شهدت تربعهم على قمة السلطة في مصر حينًا من الدهر حين كانت زوجة لمراد بك، ثم شهدت بداية ضعفهم بسبب هبوط الحملة الفرنسية على مصر، وما تلاها من أحداث زادتهم وهنا على وهن، ثم شهدت أفول نجمهم في عصر (محمد علي باشا) الذي وجه لهم الضربة النهائية والقاضية بمذبحة القلعة وما تلاها من تعقب لفلولهم، حتى استأصل شأفتهم.

وقد سبقت معالجة زوايا من سيرة نفيسة من قبل بعض الباحثين– مثل ناصر سليمان، ودعاء قنديل– بيد أنها لم تكن محيطة بكثير من جوانبها، فضلا عن أن بعضها حوى ما يجب إعادة النظر فيه. وكما ذهب المؤرخ الأمريكي (كينيث كونو) **Kenneth M. Cuno** بأنه لا ينبغي النفور من معالجة موضوع سبقت معالجة زوايا منه، فلا يصح التسليم بأنه ليس هناك مزيد أو جديد يُقَدَّم حول كثير من الموضوعات. وأشار إلى أنه قد تكون الرغبة في تجنب التخاصم سببًا، ولكن هذا يؤدي إلى عرقلة البحث العلمي

3- ولد عبد الرحمن الجبرتي في خريف عام 1167هـ (1754م)، وتوفي في عام 1249هـ (1825م)، محمد أنيس: حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية، المجلة التاريخية المصرية، ج9، 10، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1962م، ص ص 72-78. أما نفيسة فقد ولدت حوالي منتصف القرن 18م وتوفيت عام 1816م. على نحو ما سيرد ذكره.

بدلا من تنميته[4]؛ وقد أصاب؛ فالأمر كما يقول جوستاف لوبون Gustave Le Bon: "لا يستطيع أحد أن يقول إنه يعرف صفحة من التاريخ معرفة تامة، وما كان يلوح أنه عُلم يقينا من الوقائع أُعيد البحث فيه مرة ثانية"[5]. فالبحث لا يكرر ما سبق، وسيقدم المزيد والجديد والمفيد، فضلا عن تقديمه استدراكات مهمة على بعض المعالجات التي تناولت سيرة نفيسة، سواء كانت أوربية أو عربية مثل براون Browne ولوزينيان Lusignan، وغيرهما.

لقد كانت نفيسة ظاهرة تستحق الدراسة؛ فكيف لامرأة من نسوة النخبة المملوكية تبرز على هذا النحو اللافت؟ والسؤال الأهم كيف لامرأة في هذا العصر –الذي زعم كثيرون أن المرأة كانت تعاني فيه من قيود شتى فُرضت عليها – يُسمح لها أن تقوم بأدوار بالغة الأهمية؛ كوسيط فاعل في عقد المعاهدات بين الدول الأجنبية وحكومة بلدها قبل هبوط الحملة؟ ثم تكون في بؤرة الأحداث بعد هبوطها؛ فتلعب دور الوسيط في عقد المعاهدة الأهم بين حكومة الاحتلال الفرنسي وحكومة مصر السابقة؟ أو بتعبير آخر بين قيادة الاحتلال (كليبر) وقيادة المقاومة (مراد بك)؟ وبعد جلاء الحملة الفرنسية تقوم بدور وكيل المماليك وتراسل نابليون فيُعنى بالرد عليها وتكون حاضرة في مراسلته إلى وزير خارجيته وقناصله في مصر! ويكون بيتها قِبلة يؤمها الساسة والدبلوماسيون الأجانب يخطبون ودها ويطلبون وساطتها. ثم تظهر في صورة المرأة الصلبة قوية الشكيمة حين تواجه السلطة العثمانية الغاشمة (خورشيد باشا) بثبات ورباطة جأش يعجز عنها كثير من الرجال؟

إن دراسة نفيسة كأنموذج يقدم مفاتيح فهم كثير من المسائل المتعلقة بأوضاع المرأة وأدورها في الحياة المصرية آنذاك، وتسهم في كشف النقاب عن كثير من خفايا وخلفيات حوادث مهمة جرت خلال نصف قرن من الزمان، ولكن لا يعرف الكثير أن نفيسة كانت خلف الكواليس عنصرا فاعلا ومؤثرا في صناعة هذه الأحداث. كما ستعيد

---

[4]- كينيث كونو: فلاحو الباشا، ترجمة سحر توفيق، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى لثقافة، 2000م، ص11.

[5]- جوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، تعريب: عادل زعيتر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011م، ص12.

النظر في عدد من المسائل التاريخية في تلك الحقبة؛ فتستدرك بعض النقص فيها وتكمله أو تصوب عددا من الأخطاء الشائعة أو تقديم تفسيرا مختلفا لبعضها الآخر.

ومن الأهمية بمكان بحث الظروف السياسية والاجتماعية التي ظهرت فيها نفيسة لمعرفة كيف تفاعلت مع قدرات نفيسة الفطرية؛ فصنعت منها شخصية متميزة بارزة تركت في التاريخ أثرا وفي حياة الناس بصمات؟ وهل كانت نفيسة إفرازا طبيعيا لعصرها؟ أم أنها كانت شخصية استثنائية في عصر يُوصف بأنه عصر تراجع وتأخر؟

هذا، وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي في تتبّع ورصد سيرة نفيسة ومسيرتها، وتحليل الأحداث المفصلية التي شاركت فيها، والوقوف على أدوارها السياسية والاجتماعية. مع قراءة نقدية للكتابات التاريخية، التي تحدثت عن نفيسة، مع تقديم رؤية تفسيرية تتجاوز الوصف السردي، إلى تفكيك العلاقات بين المرأة والنظام السياسي والاجتماعي في المجتمع المملوكي. وقد استعانت الدراسة بمصادر أولية عربية، وكتابات الرحّالة والباحثين الأوروبيين، وقامت بالموازنة بين المصادر العربية والأوروبية، مع إخضاعها للنقد والمقارنة، للكشف عن أوجه التحيّز الاستشراقي أو التشويش، خاصة ما يتعلق بـــدور المرأة.

هذا؛ وستتم معالجة سيرتها ومسيرتها من خلال العناصر التالية:

1 –نفيسة في قصر الحكم المملوكي.

2– نفيسة والحملة الفرنسية على مصر.

3–نفيسة في فترة الاضطرابات السياسية.

4– نفيسة في عصر محمد علي باشا.

وجدير بالذكر أن الباحث زار سبيل وكتاب ووكالة نفيسة في حي الغورية بجـــوار بـــاب زويلة أمام مسجد المؤيد شيخ بالقاهرة. ودخل السبيل وصعد فوقه؛ حيث يوجد الكُتَّـــاب. وثمة بعض صور ذلك في ثنايا البحث.

(1)
نفيسة في قصر الحكم المملوكي

النخبة: في اللغة من الانتخاب أي الاصطفاء والانتقاء، وتدل على الندرة والقلة مع التميز. وهي في المصطلحات السياسية (Elite) وتعني الصفوة، أي: علية القوم الذين يمثلون أقلية ذات نفوذ تحكم الأغلبية، وتلعب هذه الصفوة دورا قياديا وسياسيا. وفي علم الاجتماع تعرف "النخبة" بأنها أقلية حاكمة يمكن تمييزها عن الطبقة المحكومة، وفقاً لمعيار القوة والسلطة، تمتع بالنفوذ والتأثير في المجتمع"[6]. وهذا ينطبق تماما على المماليك الذي مثلوا أقلية تمتعت بنفوذ وتأثير في المجتمع ولعبت دورا قياديا وسياسيا وحكمت الأغلبية.

ولا ريب أن لنشأة الإنسان أثر كبير في مصيره؛ فالوراثة والبيئة، والتربية الأولى، والعصر السياسي، والاجتماعي، كلها عوامل تؤثر في بناء شخصية الإنسان وتوجهه الوجهة الأولى في الحياة، ولها الأثر الأهم في تكوين شخصيته؛ فتطبعه بطابع يبقى في الغالب على مر السنين ويرتسم أثرها في أخلاقه وميوله واستعداداته وعقائده وآرائه، وأعماله وأطواره في الحياة"[7]. فلا غرو إذن أن يكون للبيئة التي احتضنت نفيسة في مصر في بيت علي بك الكبير أثر بالغ في تكوين ملامح شخصيتها ودورها في المراحل التالية؛ لذا من الأهمية بمكان تناول تلك الحقبة من حياتها- التي سبقت بروزها على مسرح الأحداث؛ إذ لا يخفى أن تسليط الضوء على هذه الحقبة يقدم كثيرا من مفاتيح فهم هذه الشخصية في مراحل حياتها التالية، كما يتيح فهم وتفسير اتجاهاتها وأعمالها وتحليل دوافعها.

ولعله غني عن البيان أن نظام الحكم الذي وضعه العثمانيون عقب استيلائهم على مصر في عام 1517م لم يستمر طويلا؛ بل تطور مع الزمن، وانتهى التنافس بين

6- علي أسعد وطفة: في مفهوم النخبة: مقاربة بنائية، نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، الإصدار الأول، الكويت، مايو 2015م، ص ص 6، 7، 19.

7- عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ج2، الهيئة المصرية للكتاب، 2001، ص 225.

السلطات الثلاث (الوالي والديوان والمماليك) إلى تغلب سلطة أمراء المماليك في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ فاستأثروا بالنفوذ والسلطة، وساعدهم على ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر، وساعد كثرة تغيير الولاة العثمانيين في زيادة نفوذ المماليك؛ وضعف شأن الولاة وتراجع نفوذهم، في الوقت الذي احتفظ فيه المماليك بعصبيتهم بما استكثروا من الجند والأتباع، فطمحت نفوسهم إلى الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية. وبدا هذا الطموح سافرا على يد شيخ البلد[8] على بك الكبير[9].

وفي تلك الأثناء، ولدت نفيسة، وشأنها شأن أكثر المماليك يصعب تحديد تاريخ ميلادهم بدقة، وبعد أن يسطع نجم أحدهم وينال مكانة رفيعة وشهرة واسعة يجتهد الباحثون في تحديد تاريخ ميلاده، وقلما يفلحون.

ويقال إن نفيسة ولدت في عام 1743م[10]، وقد ذكر الرحالة لوزينيان[11] Lusignan أن كثيرا من مماليك مصر في ذلك العصر قد سرقهم قطاع

8- شيخ البلد: كبير الأمراء المماليك وهو منصب استحدث في القرن الثامن عشر وكان أرفع المناصب المملوكية، ولذلك كان موضع تنافس شديد بين المماليك بعضهم بعضا. وكان شيخ البلد يعد أهم شخصية في مصر بعد الباشا. أحمد السيد دراج والسيد رجب حراز: دراسات في التاريخ المصري، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976، ص 143.

9- علي بك الكبير: اختطفه تجار الرقيق من بلاد اليونان صبيا من أحضان أبيه القسيس الأرثوذكسى وباعوه في مصر بثمن بخس، ولكنه غدا مملوكا وصل بقوة أشياعه وأتباعه إلى مشيخة البلد سنة 1763م، وطمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر، فلما نشبت الحرب العثمانية الروسية سنة 1768م جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر، وامتنع عن دفع الخراج سنة 1769م، وعزل الوالى ومنع ورود غيره من الولاة العثمانيين، وضرب النقود باسمه ودانت له مصر، وكان من مماليكه وأتباعه أحمد باشا الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم. محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير، دار الفكر العربي، القاهرة، 1950، ص3، وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م، ص ص 25، 26.

10- طارق بدراوي: أم المماليك عاشت في الظل وماتت في الذل، جريدة أبو الهول، عدد يناير2019م.

11- سوفور لوزينيان: رحالة وتاجر يونانى، جاء مصر صبيا سنة 1746م وعمره عشر سنوات، وتعرف على "علي بك الكبير"، ثم غادر مصر مع خاله عام 1749م، ثم حضر إلى مصر للتجارة في عام 1753م، ثم غادرها مرة أخرى إلى أوربا، ثم حضر إلى مصر في عام 1771م بناء على دعوة من على بك مصر؛ ليعهد إليه ببعض الأعمال. ومنذ وصوله دخل في خدمة علي بك حتى هزيمته سنة 1773م؛ فتوجه إلى فلسطين وأبحر منها إلى لندن، وهناك بدأ يكتب مؤلفه عن تاريخ

الطرق الذين كانوا يقومون برحلات إلى جورجيا وغيرها بهدف خطف الأطفال، وبيعهم إلى تجار العبيد الذين حملوا كثيرا من هؤلاء إلى مصر[12]. وهو حال نفيسة التي قيل إن اللصوص قد خطفوها وهي تناهز سن المراهقة، من إحدى قرى جورجيا الجبلية، وبيعت في سوق العبيد –الذي كان يعرف بسوق الجلاّبة– في القاهرة إلى أحد بيوت كبار أمراء المماليك، إبان ستينيات القرن الثامن عشر، ثم انتقلت إلى بيت علي بك الكبير[13]، وعمرها حوالي عشرين عاما أو يزيد. وغدت سُرِّيَّة عنده ومحظيته[14]. وكان نجمه بدأ في الصعود قبل أن تلتحق به نفيسة؛ إذ كان قد بدأ في تولي المناصب والترقي في درجاتها؛ فأصبح كاشفا[15] في عام 1749م[16]. ثم تقلد السنجقية على

على بك وحركته ونشره في لندن سنة1783م، وقد اعتذر عن ذكر حوادث لا يثق بصحتها، ونصح بعدم الاعتماد على التواريخ التي أوردها؛ لأنه فقد مسوداته في أثناء الفرار بعد هزيمة على بك. وقد انتقد الرحالة الفرنسي فولنى هذا الكتاب بأنه تضمن معلومات جمعت من مصادر خاطئة، ولكن قد نجد له العذر لأنه كتبه بعد مرور عشر سنوات ومن ذاكرته. قادر إسحق ناتخو: التاريخ الشركسي، ترجمة: محمد أزوقه، مؤسسة الدراسات الشركسية، نيوجرسي، 2005، ص275. وسيد أحمد على الناصري: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس(1770-1782م)، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، القاهرة، 1997م، ص15. ومحمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص ص 270-273.

12 -Lusignan, S. : A history of the Revolution of Ali Bey against the Ottoman Porte, Phillips, London, 1783, p. 2.

13- ناصر سليمان: التاريخ الاجتماعي للجواري في مصر قبيل عصر التحديث، عدد 1، مجلة أسطور، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، يناير 2015، ص ص 92، 94، 95. ومحمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 204.

14- السُّرِّيَّة: الجارية المملوكة. والمحظية: المرأة التي تفضل على غيرها في المحبة، مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج1، ط3، القاهرة، 1985، ص ص 443،190.

15- الكاشف: هو الذي كان يتولي إدارة الكاشفية وهي عبارة وحدة إدارية ومالية على رأسها أحد البكوات المماليك برتبة كاشف، والكاشف في النظام المملوكي: رتبة عسكرية أقل من رتبة صنجق، وهي مرادفة للمركز، والكاشف يكون تابعاً لصنجق من الصناجق حكام الولايات الخمس الكبيرة في مصر، وهي ولاية الغربية، والبحيرة، والمنوفية، والشرقية، وجرجا، والولاية مرادفة للمحافظة في زماننا، والكشاف يختارون من أواسط الرتب المملوكية. وكانت مهمة الكشاف الإشراف على المرافق العامة كالترع والجسور وحفظ الأمن وضمان وصول الخراج والأموال إلي الخزانة الأميرية. محمد نور فرحات: التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012م، ص 314. عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولي، ط 2، القاهرة، 1986، ص31.

16- جلال يحيى: مصر الحديثة 1517- 1805م، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص ص 234، 235.

نحو ما ذكر الجبرتي[17] في سنة 1168هـ[18]، (تقابل 1755/1754م)[19]، وقيل إنه تزوجها؛ فصارت بمثابة ملكة مصر[20]، وبني لها دار عظيمة (قصرا) على بركة الأزبكية[21] بدرب عبد الحق[22]، والساقية والطاحون بجانبها[23]. وكانت تعيش بمفردها هناك دون سائر حريمه وزودها بالكثير من الخدم والجواري لخدمتها[24].

وتجدر الإشارة إلى أن قصرها الذي كانت تعيش فيه يقع في حي الأزبكية، وكان مسكن الأمراء والأعيان؛ حيث القصور الشاهقة، تحفها البساتين الباسقة، على نحو ما روى الجبرتي عن الشيخ حسن العطار[25](1766-1835م) وصفه ميدان

17- الصنجق أو السنجق: كلمة تركية معناها اللغوي: العَلم أو الراية أو اللواء، أما الاصطلاحي فتعني: المقاطعة الصغيرة، وكان يطلق على من يتولى إدراتها سنجق لأنه عند رفعه إلى هذه المرتبة كان يتسلم بيرقا أو سنجقا شارة البكوية. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، 1990، ص 93. وهيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2016م. ص430.

18- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ج7، ط2، القاهرة، 2012م، ص 461. والمصدر نفسه،ج 2، ص 741.

19- فإن صح أن ميلادها كان في منتصف القرن الثامن عشر وأن خطفها ثم بيعها قد تما وقد ناهزت سن المراهقة؛ فليس دقيقا ما ذكره ناصر سليمان من "تزامن التحاق نفيسة ببيت علي بك الكبير مع اتساع حظوظه في الكشوفية والإمارة. ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 97.

20) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص269، ومحمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص171.

21- الأزبكية: كانت عبارة عن أرض زراعية تقع إلى الجنوب من خط المقس، وكانت مياه الفيضان تغمر تلك الأراضي سنويًا، فتتكون بركة، وفي عهد السلطان قايتباي (1468- 1496م) قام قائده أزبك بتعمير المنطقة، ومن ثم أخذت البركة والمنطقة اسم معمرها، وفي 1867م ردمت البركة بارتفاع مترين، وأنشئت فيها حديقة الأزبكية.عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 2000م، ص61.

22- تقع قريبا من ميدان الأوبرا الحالي. أحمد حافظ عوض: فتح مصر الحديث أو نابليون في مصر، مطبعة مصر، 1925م، ص391.

23- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 7، ص 461.

24- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص ص 97، 98.

25- الشيخ حسن العطار: ولد تقريبا عام 1180هـ (1766م)، بالقاهرة، وألف أول كتبه في النحو عام 1786م. في أعقاب الحملة الفرنسية هرب إلى أسيوط، ثم عاد إلى القاهرة بعد أن أخذ الأمان سنة 1799م، وكتب المقامة الشعرية متأثراً بالأدب الأندلسي. وفي عام 1802م غادر مصر إلى تركيا وزار الإسكندرونة ودمشق؛ حيث قام بدراسته للصوفية، ثم رحل إلى فلسطين عام 1811م. واهتم بدراسة الطب وكتب ملخصات في علم الكلام ووضع عدة حواشى، ثم عاد إلى مصر عام 1815م؛ حيث اشتغل بالتدريس والكتابة. وفي عام 1820م ألف كتاباً في المنطق، ثم عمل محررا في الوقائع المصرية في عهد محمد على سنة 1828م، وألف كتابه الرئيس في أصول الدين. وفي سنة 1831م عين شيخاً للأزهر، وفى هذه الفترة اهتم برفاعة الطهطاوى وكان له تأثير قوي على

الأزبكية نثرا بقوله: "وأما بركة الأزبكية فهي مسكن الأمراء ومـــوطن الرؤســـاء، قـــد أحدقت بها البساتين الوافرة الظلال، العديمة المثال، فترى الخضـــرة فـــي خـــلال تلـــك القصور المبيضة، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة، يوقد بها كثير من الســـرج والشموع، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل علـــى القلـــب الســـرور، ويذهل العقول حتى كأنه من النشوة مخمور". ثم نقل الجبرتي وصـــفها شـــعرا لحســـن العطار بأبيات منها:

بالأزبكية طابت لى مســـــرات .* .*. ولذّ لى من بديع العيـــش أوقاتُ
حيث المياه بها والفُلْكُ سابحة .*. *. كأنها الزهر تحويها الســـــماواتُ
وقد أدير بها دور مشـــــــيدة .*. *. كأنها لبدور الحســـــــــن هالات
مدت عليها الروابى خضْرَ سُندسها .*. *. وغردت في نواحيها حمامات!
والماء حين سرى رَطْبُ النسيم به.*.*.وَحلَّ فيه من الأدوح[26] زهـــرات
كســـــابغات دروع فوقها نُقط .*. *. من فضـــة، واحمرار الورد طعنات[27]

وفي هذا الأوصاف نثرا وشعرا ما يكفي لبيان ما كانت عليه الأزبكية في ذلك الزمان. ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين وهي: قراميدان، والرميلة، وبركة الفيل، وميدان الأزبكية، أو (بركة الأزبكية كما كان تسمى) والذي كان أجمل الميادين الأربعة، وفي أيام الفيضان تمتلىء بركة الميدان بمياه النيل؛ فيتنزه فيها الناس بالزوارق ليلا ونهارا؛ ولما يجن عليه الليل تضاء المصابيح من البيوت المطلة عليه؛ فيمسي منظر الميدان من أبهج ما يكون ولا سيما في الليالي المقمرة[28]. وفي الأزبكية سكن بونابرت في قصر محمد بك الألفي[29]. ولاغرو فقد اختار أرقى حي لإقامته وهو المكان الذي كانت تقيم فيه نفيسة.

اتجاهاته العملية. وتوفي 1835م. عبد العزيز جمال الدين: حاشية عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 4، ص 338.

[26]- الأدوح: جمع دوحة، والدوحة هي الشجرة الضخمة المتشعبة ذات الغصون الممتدة، مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج1، المرجع السابق، ص312.

[27]- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 4، ص ص 339،338

[28]- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج1، ص ص 61، 62.

[29]- نفسه ص 93.

وبما أن نفيسة لم تكن من المماليك فحسب؛ بل كانت تلقب بـــ"أم المماليك" على نحو ما ذكر الرحالة الإنجليزي وليام جورج براون William George Browne (1768–1813م)[30]؛ فتجدر الإشارة إلى عدة أمور تتعلق بهؤلاء المماليك كي تتضح الأطر التي نشأت فيها نفيسة وتبلورت فيها شخصيتها على النحو الذي عُرفت به.

بادئ ذي بدء؛ كان صلاح الدين الأيوبي (1138–1193م) أول من أدخل نظام المماليك إلى مصر[31]؛ ثم كان الملك الصالح نجم الدين أيوب (1240–1249م) أول من اشترى المماليك واتخذ منهم جندا كثيفا، وبنى لهم قلعة الروضة، وأسكنهم بها[32]؛ فكان المملوك هو العبد الذي يجرى شراؤه للعمل مجندا في الجيش[33]، والمملوك في الأصل هو الرقيق الأبيض الذكر من أسرى الحرب أو بالشراء من سوق الرقيق، ويُنَشَّأ في مصر وفق تقاليد خاصة. وكانت تلك التربية المملوكية هي التي أثمرت سلاطين دولتي المماليك البحريّة والبُرجيّة[34]؛ وهي ــ مع تعديل طفيف ــ هي التربية نفسها التى أنجبت أمراء المماليك في العصر العثماني: اهتمام بالروح والبدن وتدريب على الفروسية والقتال[35].

30- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص ص 208- 209.
31- جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك حتى نهاية حكم إسماعيل، تعريب:علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1996، ص22.
32- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج1، ص104.
33- دونالد كاميرون: مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، عدد 3001، القاهرة، 2019، ص33.
34- المماليك البحرية: نسبة إلى إقامتهم في بحر النيل في جزيرة الروضة وهم حراس السلطان. وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها، وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبي (1240-1249م) قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته واتخذ منهم أمراء دولته، وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بـ(البحر)، ولذلك سمى هؤلاء المماليك البحرية، وهم الذين حكموا مصر بين عامي 1250-1382م. أما المماليك البرجية: نسبة إلى إقامتهم في أبراج قلعة القاهرة، وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز وسبب تسميتهم البرجية أن السلطان المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية عهد إليهم بحماية القلاع والحصون وأسكنهم في الأبراج فسموا البرجية ويسميهم بعض المؤرخين ملوك الشراكسة نسبة إلى أصلهم، وهم الذين تولوا حكم مصر بين عامي 1382-1517م. محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص ص 32، 33، 145. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ج1، المرجع السابق، ص ص 34.20.
35- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص ص 10 و11.

ويخطئ من يظن أن الأمراء المماليك في العصر العثماني ظلوا على توالى السنين من سلالة دولتي المماليك البحرية والبرجية، فالصلة التي كانت تربطهم بهاتين الدولتين قد انقطعت مع الزمن، إضافة إلى ذلك أن المماليك كان معروفا عنهم العُقم وقلة النسل[36]، وكانوا يحرصون على التزاوج فيما بينهم، ولم يكن هذا كافيا لإنقاذ جنسهم[37]؛ إذ لم يكن لهم بنون من نسائهم. وكانت البنوة عندهم عن طريق الولاء بين المالك والمملوك[38]. ومنذ أن استقروا بمصر على مدار قرون لم يكونوا يتزايدون إلا عن طريق شراء رقيق وليس عن طريق التناسل؛ حيث كان أطفالهم كلهم تقريبا يموتون في شبابهم الغض، ومن النادر أن يستمر جنسهم إلى الجيل الثاني[39]. وكان المماليك يسدون النقص ويغذون صفوفهم بشراء أرقى عناصر الأرقاء من أجناسهم البيضاء في القوقاز، وكان معظمهم من جورجيا أو الخُزر[40]. وأُطلق على المماليك –في فترة لاحقة– اسم الغُز[41]؛ وهو تحريف للفظة الخُزر[42]؛ نظرا لأن عددا كبيرا من هؤلاء المماليك جرى جلبه من قبيلة تحمل هذا الاسم في بلاد القوقاز[43]. ومتى قيل الغُز كان المقصود جماعة المماليك[44]. وفي تراجم البكوات المماليك الذين ذكرهم الجبرتي يلاحَظ أنهم ليسوا من سلالة دولتي المماليك البحرية والبرجية؛ بل مجلوبون من أسواق الرقيق، وليس فيهم أحد إلا وأصله مملوك اشتراه أحد المماليك، فتياناً كانوا أو فتيات من الشركس الذين كانوا يباعون في الآستانة؛ فيعتنون بتربيتهم وكثيرًا ما يعتقونهم؛ فيصبحون أحراراً ولكنهم يحفظون عهد أسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيتهم، فمن هؤلاء المماليك أحراراً أو أرقاء يتكون جيش المماليك في مصر[45].

36- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص50.
37- جورج يانج: المرجع السابق، ص23.
38- حيدر الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، ج2، مطبعة السلام، بمصر، 1900م، ص 801.
39- دي بوا- إيميه جولوا: دراسات عن المدن والأقاليم المصرية: رحلة إلى أعماق الدلتا، وصف مصر، ج3، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الأسرة، 2002، ص 97.
40- جورج يانج: المرجع السابق، ص23.
41- دونالد كاميرون: المرجع السابق، ص36.
42- جورج يانج: المرجع السابق، ص23.
43- دونالد كاميرون: المرجع السابق، ص36.
44- حيدر الشهابي، المصدر السابق، ج2، ص 801.
45- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص ص50، 51.

وقد لاحظ علماء الحملة الفرنسية وسجلوا في (وصف مصر) أن العبد الأبيض كان يعد عضوا من أعضـــاء الأسرة، وعندما يرضى تاجر عن عبده؛ فقد كان يشركه في تجارته ويزوجه ابنتـــه ويهييء له حياة طيبة. أما أولئك الرقيق الذين يكونون في خدمة البكوات الكشاف. أو كبار ضباط حكومة المماليك؛ فإن حظهم أكثر بريقا، فبما أن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيدا؛ فإنهم بدورهم يُولُون عبيـــــدهم جل عنايتهم، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكري ليشكلوا فيما بعد جيش المماليك، وتتجلى قوة كل أمير في عدد رجاله وفى شجاعتهم؛ لذا فهو يُعنى بهم كما لو كانوا أبناءه. وأما الإماء البيضاوات القادمات من بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والمماليك الآخرين نفسها، يتمتعن هن أيضا باعتبار خاص، لأنهن عادة يصبحن زوجات هؤلاء أو إماءهم المفضلات[46]. وقد تحدث الرحالة كلود إيتان سافاري Claude-Étienne Savary(1750–1788)[47] عن النساء المجلوبات من جورجيا والقوقاز واصفا إياهن بالجميلات جدا وألا مثيل لهن وروائحهن عطرية نفاذة، وأنهن كن يُبَعن ويصبحن زوجات[48]. وقد ذكر بعض المؤرخين أن علي بك الكبير من أصل جورجي[49]. وقد كانت نفيسة من أولئك النسوة.

وفي الحقيقة إن مدلول كلمة (مملوك) في مثل هذه الأحوال كانت لا تعبر عن الواقع؛ بل تعبر عما كان عليه الحال في الماضي، ثم زال، وتغير إلى نقيضه؛ لأن الأمير

46- ج. دي شابرول: المصريون المحدثون، وصف مصر، ج1، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الأسرة، 2002م، ص209.

47- سافاري: مستشرق ورحالة فرنسي، قدم إلى مصر قبل الحملة الفرنسية في سنة 1776، وقضى فيها ثلاثة أعوام، درس اللغة العربية والإسلام، ونشر ترجمة للقرآن، وكتاباً لتفسير قواعد الإسلام. يرى (محمد عبد الله عنان) أن كتابات سافاري عن مصر تمتاز بطابع من الدقة لا نجده في كثير من الكتب والدراسات المماثلة، وكتب عن رحلته ودراساته في مصر ثلاثة أجزاء، تحت عنوان (رسائل عن مصر). ولكن ثمة من انتقد سافاري مثل جون أنتيس الذي شن هجوما عنيفا على سافاري، واتهمه بعدم الدقة. محمد عبد الله عنان: مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما يصفها الرحالة سافاري، مجلة الرسالة، عدد 220، 1937/9/20م. وعدد221، 1937/9/27م. وسيد أحمد على الناصري: المرجع السابق، 1997م، ص12. و Browne, W. G., Travels in Africa, Egypt, and Syria, from the year 1792 to 1798, Printed for T. Cadell and W. Davies, London, 1799, p.484.

48 -Savary C. : Lettres sur l'Égypte, 3 vol. Paris an VII (1798) p.130.

49- قادر إسحق ناتخو: المرجع السابق، ص276.

عندما كان يحوز مملوكه، عن طريق الشراء أو الأَسْر أو الهدية أو الاغتصاب؛ إنما يبقيه ملك يمينه مدة تدريبه وتعليمه فقط، حتى إذا بلغ أشده واستوى ــ وبلغ الثامنة عشرة من عمره في أغلب الأحيان ــ أعتقه وسمح له بإرخاء لحيته، وهذا أول حقوق المملوك المعتوق في عرفهم، ولا يصبح ثمة رابط بين الأمير المملوكي ومملوكه السابق سوى حق الولاء، ويبقى المملوك في خدمة أستاذه[50]، مقيما على ولائه مهما علت مرتبة هذا المملوك، ولا يأنف أن ينسب نفسه إلى سيده ويفخر بأصله المملوكي، وهذا النسب لا يأتى عن طريق صلة الدم وإنما عن طريق الحيازة السابقة، والعلاقة التي تربط بين الأمير ومماليكه أقرب ما تكون إلى رابطة الأسرة، تقوم على علاقة التبعية السابقة والولاء المقيم، فالأمير "أستاذ" مماليكه وهم أتباعه وأهل بيته[51]. ومن ثم أتى وصف نفيسة بـــ(المرادية)، نسبة إلى مراد بك[52].

والمعروف أن كبار القادة من البكوات الأمراء ظلوا يحفظون كنيتهم الانتسابية إلي مراد بك وبيته أو بالأحرى حزبه، دلالة على الولاء وإطارا للتعريف الشخصي؛ لذلك ظهر في تلك الفترة عينها من عرفوا بـــ"المماليك المحمدية" نسبة إلى محمد بك أبي الذهب، و"المماليك المرادية" نسبة إلي مراد بك. وهكذا، فإن الاسم يتحول في هذا السياق إلى كنية انتساب ذات صبغة سياسية واجتماعية؛ ومن ثم يمكن افتراض أن لقب "نفيسة المرادية" تجاوز المعنى الاجتماعي بصفتها زوجة إلى الانتساب كذلك إلي البيت السياسي الذي حاز نصيبًا واسعًا من السلطة في مصر لمدة طويلة، بلغت قرابة ربع القرن[53].

50- أستاذ: استعملت عند المماليك على من يشتري المملوك بالمال ويربيه ثم يعتقه عند الكبر، وتعتبر رابطة الأستاذية أقوى رابطة بين المملوك وأستاذه. محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص 14.

51- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 11.

52- ورد مراد إلى مصر سنة 1183 هـ (1768-1769م)؛ فاشتراه محمد بك أبو الذهب؛ فحظى عنده وقدمه على مماليكه وولاه خازنداره ثم أعتقه وولاه الصنجقية عندما أراد التوجه لمحاربة الظاهر عمر بمدينة عكا. إسماعيل بن سعد الخشاب: إسماعيل بن سعد الخشاب: خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، ودانيال كريسيليوس، القاهرة، 1992م، ص17. وسيرد في البحث الكثير من أخباره.

53- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص ص102،101.

وما كان يجري على ذكور المماليك كان يجري على الإناث؛ ولأن العبرة بالمُسَمَّيات لا بالأسماء؛ فيتفق الباحث مع الرأي الذي سبق ذكره من أن كلمة (المملوك) تغدو خالية من المعنى؛ فلا الذكر حين يكبر ويعتقه سيده يغدو (مملوكا)، ولا (الجارية) بعد أن يعتقها سيدها تغدو (جارية أو أمة) بل حرة. وإن في لقب (البك[54]) بمعنى الأمير، كعلي بك الكبير أو مراد بك- أكبر دلالة على ذلك؛ وكذلك لقب (الست) و(السيدة) الذي تحوزه التي كانت جارية مثل الست شويكار أو الست نفيسة أكبر دليل على منافاته للعبودية والاسترقاق. ومن ثم؛ فإن معالجة شخصية نفيسة من مدخل الجواري غير مناسب، لأنها حين برزت على السطح ولعبت كل تلك الأدوار الخطرة -التي سيرد ذكرها- وشاركت في جلائل الأحداث؛ لم تشارك فيها بحسبانها جارية؛ بل حرة، وليست حرة فقط ــ فليس كل الأحرار سادة_ بل سيدة؛ بكل ما تحمل كلمة سيدة من دلائل ومعان.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى رؤية المعاصرين لتلك الحقبة لأولئك المماليك ذكورا وإناثا؛ فلقد كانوا يرونهم أحرارا كاملي الحرية، وليس أدل على ذلك مما يرويه إسماعيل الخشاب[55] من أن حسن باشا قبطان حينما دخل القاهرة (1200هـ/1786م) وفر مراد بك وإبراهيم بك إلى الصعيد، ووضع يده على ممتلكاتهما وأخذ يبيع جواريهما؛ فعارضه العلماء في ذلك ومنعوه[56]. ويؤكد الجبرتي هذه الحادثة وفحواها

54- البك: تعنى الأمير. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، 19791م، 12.

55- إسماعيل بن سعد بن إسماعيل المعروف بالخشاب، حفظ القرآن ونبغ في فقه الشافعية، وكان مولعاً بمطالعة كتب الأدب والتصوف والتاريخ، كان صديقا شخصياً لكثير الأعيان والتجار والأمراء وكبار الكتاب كالشيخين حسن العطار والجبرتي الذي وصفه بالشيخ والشاعر والمؤرخ. كان الخشاب كريم النفس، عفيفاً مولعاً بمعالى الأمور. وعندما احتل الفرنسيون مصر سنة 1798م، صار صديقا لأحد علماء الحملة، وعُيّن الخشاب عضوا في الديوان، وأصبح موثقاً لديهم، وأطلق الجبرتي عليه "كاتب الديوان"؛ حيث كان أحد كتاب الفرمانات التي يصدرها الفرنسيون باللغة العربية، وفي مارس 1798 م عين الخشاب مشرفاً على كسوة الكعبة المشرفة. ألف بعض الكتب، منها: تذكرة لأهل البصائر والأبصار، وخلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد. توفى الخشاب في 1815م. حمزة عبد العزيز بدر ودانيال كريسيليوس في تحقيقهما لكتاب خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد، لإسماعيل الخشاب، المصدر السابق، ص ص 8-11.

56- إسماعيل بن سعد الخشاب:المصدر السابق، ص 17.

أن حسن باشا أسرف في القسوة واستباح أموال المماليك وألقى القبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعماً أنهم أرقاء؛ فاعترض العلماء، وخاطبه الشيخ السادات بحدة قائلا: "إن مولانا السلطان أرسلك إلى مصر لإقامة الشريعة ومنع الظلم، فهل أتيت لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول؟ أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرمات؟ فقال حسن باشا: هؤلاء أرقاء لبيت المال؛ فقال له: هذا لا يجوز ولم يقل به أحد؛ فلا يجوز ولا يحل بيع الأحرار وأمهات الأولاد"؛ فأفحمه وحمله على العدول عن قصده، وكان ذلك في 26 شوال 1200هـ[57]. (21 أغسطس 1786م). فهذا دليل قاطع على رؤية المعاصرين لهؤلاء أنهم أحرارًا وليسوا عبيدًا أو مماليك بالمعنى الحرفي للكلمة، وهي رؤية شرعية يؤكدها الواقع والممارسات على الأرض.

وقد عقدت جوديث تاكر Judith Tackre مقارنة بين نظام العبودية في أمريكا الشمالية ومصر وخلصت إلى أنه لا يمكن المقارنة بينهما؛ حيث يشوب نظام العبودية الأمريكي التحامل العنصرى والعمل الشاق المتواصل طول العمر بلا انقطاع لغالبية المستعبدين، بينما كانت أحوال العبيد في مصر أفضل كثيرا منها بالنسبة للعبيد في أمريكا؛ لما يتمتع به العبيد في مصر من أكبر قدر من الراحة وأقل تعرضا للجلد والعمل الشاق؛ حيث إن القوانين والوصايا الإسلامية تكفل ذلك على نحو يصعب مقارنته بالقوانين الأمريكية الأمر الذي جعل أوضاع العبيد أفضل كثيرا جدا في مصر من حيث المعاملة قبل التحرر وما بعده؛ حيث يتيح نظام العبودية في مصر الاندماج في المجتمع، بل والتدرج حتى قمة هرم المجتمع والوصول إلى المناصب الرسمية العليا. وفيما يخص النساء فإن وضعهن لا يختلف كثيرا عن الحرائر من الطبقات العليا[58] ولهذا واجه المسؤولون الأوربيون في النصف الأول من القرن التاسع عشر صعوبات جمة حينما حاولوا أن يحرروا كثيرا من الجواري اليونانيات في مصر بالشراء وفشلوا في ذلك؛

57- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج3، المصدر السابق، ص250. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج2، مكتبة الأسرة، 2000م، ص ص 237، 238.

58- جوديث تاكر: النساء في مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة هالة كمال، المركز القومي للترجمة، عدد 1214، القاهرة، 2008م، ص ص369، 370.

لاندماجهن في مجتمع الطبقات العيا؛ فقد تزوجن جميعهن تقريبا من مسلمين بعد تحولهن إلى الإسلام، ويكاد يستحيل تحريرهن[59].

هذا، وقد تعددت الأوصاف والألقاب التي أطلقت علي نفيسة، من أشهرها نفيسة البيضاء، ونفيسة المرادية وقد اختار الباحث هذا العنوان (نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء)؛ ولم يختر (نفيسة المرادية) كما درج كثير من الباحثين؛ لأنه ورد هكذا في وثائق عصرها: "حجة وقف الست نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء مستولدة الأمير علي بك الكبير"[60]. وهو نفسه الذي كان يطلق على مثيلاتها من نسوة الصفوة المملوكية؛ مثل: شويكار[61] التي ورد اسمها في سجلات المحكمة المتعلقة بحجة وقفها الذي أوقفته على النحو التالي: "الست المصونة شويكار قادن بنت عبد الله البيضاء معتوقة الأمير المرحوم عثمان كتخدا[62] القازدوغلي"[63].

ولا تثريب على من يصفها بـ(نفيسة المرادية) رغم أنها تزوجت علي بك الكبير قبل مراد، وهو (علي بك) أهم شأنا وأعلى قدرا من مراد؛ واستمر ارتباطها به محظية وزوجة بضع سنوات. إلا أن تاريخ نفيسة ارتبط بمراد بك أطول فترات حياتها؛

59- في أعقاب انتهاء الحرب في اليونان طبقا للشروط المفروضة بعد معركة (نوارين) في أكتوبر 1827م. واجه المسئولون الأوروبيون صعوبات في محاولتهم تحرير الجواري اليونانيات فبينما تم تحرير عدد من النساء اليونانيات، قدم القنصل الفرنسي تقريرا بأن جهوده في شراء حرية الكثيرات قد أحبطها اندماجهن في مجتمع الطبقة العليا، وقال: لم تعد هناك نساء يونانيات فى مصر. أما الموجودات فقد تزوجن جميعهن تقريبا من مسلمين بعد تحولهن إلى الإسلام، ويكاد يستحيل تحريرهن، بل وتمادى لين (Lane) مؤكدا أن الكثيرات من النساء اليونانيات رفضن التحرر، حيث يبدو أنهن فضلن الرق الأنيق على حرية الفقر في وطنهن. جوديث تاكر: نساء مصر في القرن19، جوديث تاكر: المرجع السابق، ص ص379.

60- وثائق وزارة الأوقاف العمومية بالقاهرة، رقم 67، ج1، أهلي بوزراة الأوقاف، نقلا عن محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 238.

61- شويكار: كانت محظية عثمان كتخدا القازدغلي، وبعد مقتله تزوجها تابعه الأمير سليمان جاويش، واستولى على تركته وبلاده. يقول الجبرتي عنها: "الست شويكار الشهيرة الذكر". عبد الرحمن الجبرتي: ج1، ص467، و ج6، المصدر السابق، ص ص 229- 230.

62- كتخدا: كلمة فارسية تعني السيد الموقر والملك، ولكن الأتراك استخدموها على الموظف المسؤول والوكيل المعتمد. محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص 129.

63- Fay, M. A. : Shawikar Qadin Woman of Power and Influence in Ottoman Cairo, International Journal of Middle East Studies, vol. 29, February, 1997, p. 97.

حيث ناهز زواجهما ثلاثة عقود (1773-1801م)، وظلت توصف بعد موته بالمرادية إن لم يكن لأنها أرملته؛ فلأن صفة "المرادية" لا يعني النسبة إلى زوجها ولكن إلى بيت مراد المملوكي، وخصوصا أنها لم تتزوج بعده. ورغم هذا؛ يظل وصفها بـ" نفيسة البيضاء" أكثر حيادا وتعبيرا أدق يشمل كل مراحل حياتها منذ عتقها إلى أن ماتت.

ويُذكر أن اسمها الجورجي الأصلي غير معلوم؛ والمعروف أن الأسماء التي عُرفت بها الجواري في مصر هي أسماء عربية، أُطلقت عليهن لاحقا بعد تعليمهن مبادئ الإسلام، وتدريبهن على واجبات الطاعة، وأخلاقيات التعامل والسلوك، وبعض المهارات الخاصة في بيوت الأمراء. والمعروف أن منح الجارية اسمًا عربيًا أصيلاً مثل اسم نفيسة كان من قبيل التشريف، وكانت هذه العادة تُمارس على مستوى حريم السلطنة العثمانية ككل[64]. أما (قادِن) أو قادين، فهو لقب كان يطلق على الجارية التي كانت تخدم السلطان ونالت الحظوة لديه وغدت أم ولد، وهي أعلى درجة تبلغها الجارية في القصر العثماني. وكلمة (قادين) تحريف كلمة خاتون بمعنى سيدة، وهو من الألقاب التي كانت تطلق على زوجة السلطان. وكانت الجارية إذا بلغت درجة (قادين) أُلبست كُرْك[65] السمور[66]، وقَبَّلَت ذيل رداء السلطان، وخُصص لها جناح، ومعاش (مرتب) ومعية (هيئة خدم). وإذا توفى السلطان عن عدد من القادينات؛ فمن كن منهن لم يلدن أو ولدن بنات أو بنين وماتوا؛ فإن القادينات يزوجن من رجال الدولة. وقادن تعني أيضا: السيدة الثرية أو الأميرة، وكان يُطلق هذا المصطلح في العهدين المملوكي والعثماني على أميرات البيت المالك وعلى زوجات السلاطين عموما[67]. وهو الشيء

64- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص ص 95، 97.
65- كُرك: كلمة تركية، والكرك: رداء ذو فَرْو، وأكثر ما يكون من فرو السمور، المعجم الوسيط،ج2، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، 1985، ص 815.
66- السَّمُّور: حيوان ثديي ليلي، من الفصيلة السمورية، من آكلات اللحوم، يُتخذ من جلده فرو ثمين، ويقطن شمالي آسيا، المعجم الوسيط،ج1، المرجع السابق، ص 465.
67- حسن حلاق وعباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م، ص ص 20، 168. وأحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل، دارالمعارف، القاهرة، 1979م، ص ص 83، 84.

نفسه الذي حدث مع نفيسة؛ حيث تزوجت من أمير من المماليك بعد علي بك الكبير على نحو ما سيرد ذكره مفصلا.

أما عن بقية اسم نفيسة وهو: (بنت عبد الله)؛ فقد جرت العادة أن هذا يُطلق على الأشخاص الذين لا يُعرف آباؤهم؛ حيث إنه من غير اللائق أن لا ينسبوا إلى أب وكأنهم وُلدوا من سفاح وليس من نكاح، وكان هذا شأن المماليك الذين يعتنقون الإسلام؛ فكانوا يمنحون اسما رمزيا للأب هو (عبد الله)؛ فيقال للذكر (ابن عبد الله) ويقال للأنثى (بنت عبد الله). وكان المماليك يسمون سادتهم الذين اشتروهم باسم (أبى)، كما كان السيد يسمى مملوكه «ابنى». وأحيانا كان العبيد يأخذون أسماء سادتهم، مثل محمد بك على، أو إبراهيم بك محمد. وهناك أمثلة عديدة بهذا المعنى[68]. أهمها مراد بك نفسه فلقد كان يُدعى (مراد بك محمد) نسبة إلى سيده وأستاذه محمد بك أبو الذهب؛ حيث كان مراد بك من مماليكه، وقد ورد اسمه هكذا (مراد بك محمد) في نص وثيقة اتفاقية العريش التي وقعها مراد مع كليبر في 5 أبريل 1880م[69]. أما وصفها بـــ(البيضاء)؛ فقد اعتاد المسلمون أن يميزوا بين العبيد البيض، والسود بوصف يميز هذا عن ذاك؛ ففى حالة الإماء البيضاوات؛ فكانوا يضيفون وصف (البيضاء) للدلالة على أنها مشتراة من القوقاز. أما الإماء السوداوات؛ فكانوا يضيفون وصف (السوداء) أو (السمراء)[70].

وهكذا جاء وصفها بـــ(بنت عبد الله) يُفهم منه أنها كانت جارية؛ وهو الوصف الذي كان يُمنح للجواري اللواتي كن غير مسلمات في الأصل[71]، وللدلالة على أنها ليس لها أب مسلم[72]. أما وصف (البيضاء)؛ فيشير أنها ربما وُلِدت في جورجيا وربما تم بيعها من قبل عائلتها الفقيرة، وكانت الغالبية العظمى من نساء هذه العينة من أصل

68- دنيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، تعريب: عبد الوهاب بكر، نهضة الشرق، القاهرة، 1985م، ص322.
69- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج2، المرجع السابق، ص 141. وانظر نص الوثيقة في ملاحق المرجع نفسه، ص ص325-327.
70- دنيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص322.
71 -Fay, M. A. : Shawikar Qadin, op. cit, , p.97.
72 - Fay, M. A.: Unveiling the Harem, op. cit, p.10.

قوقازي، وما ورد عن الست شويكار يكشف النقاب عن الأخريات من خلفيتها وطبقتها[73]. ومما لا شك فيه أن نفيسة وشويكار كانتا من الخلفية والطبقة نفسها، ومن ثم يبدو بجلاء أن هناك تطابقا في مثل هذه الحالات؛ فكلما دخلت جارية بيضاء –وغالبا ما تكون شركسية– عالم نخبة النسوة المملوكية إلا وأضيف لها بعد اسمها: "قادن بنت عبد الله البيضاء".

ومما يعنيه وصفها بـــ(بنت عبد الله) أيضا، أنه تمت إعـــادة إنتـــاج هويتهـــا الخاصة داخل نسيج المجتمع المصري بثقافتـــه وأصـــبحت شـــديدة الارتبـــاط بتقاليـــده وعاداته[74]. ومن غير المقبول ما ذهب إليه بعض الباحثين من احتمال أن نفيسة سُميت بـــ(بنت عبد الله) لجهلها باسم الأب[75]! إذ لا يُعقل أن فتاة ناهزت سن المراهقـــة عنـــد خطفها وتجهل اسم أبيها! والصحيح أنها سميت بـــ"بنت عبد الله"؛ لأنها أسلمت.

وينقل ديفيد إليون David Ayalon عن أحد الكتاب الفرنســـيين أن المماليـــك المصريين سواء كانوا من الروس، أو من جورجيا أو من الشراكسة، كـــانوا يتصـــلون جميعا بآبائهم عن طريق القنصل الروسي، وأن هؤلاء المماليك كانوا يعرفـــون آبـــاءهم جيدا، وكانوا يرسلون لهم مبالغ كبيرة في أوقات متقاربة. وكان إبراهيم بك ابنـــا لأحـــد القساوسة في جورجيا، ويمكنه أن يتذكر كيف كان يخدم في القـــداس[76]! فـــإذا كانـــت نفيسة سُبيت وهي في السن المشار إليه فلا يُستبعد أن تكون على معرفة بأسرتها وأنها كانت تتواصل معها على نحو ما.

وقد أنجبت نفيسة طفلة لعلي بك ولكنها ماتت وهي صغيرة[77]؛ فكانت كسائر المماليك الذين يموت أكثر أبنائهم في شبابهم الغض، ويندر أن يستمر جنسهم إلى الجيل

---

73 -Fay, M. A. : Shawikar Qadin, op. cit, p.97.

74- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 96.

75- ذهب ناصر سليمان إلى أنها سميت ببنت عبد الله لجهلها باسم أبيها! ناصر سليمان: مرجع سابق، ص ص 95، 97.

76 -Ayalon, D.: Studies in al-Jabarti, I: Notes on the Transformation of Mamlük Society in Egypt under the Ottomans. Journal of the Economic and Social History of the Orient 3. (1960): p. 315.

77- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 204.

الثاني[78]. ومن ثم أتى وصفها بـــ (مستولدة علي بك الكبير)، والمستولدة: هي المرأة التي عاشرها الرجل طلبا للولد؛ فولدت له، واستولد الرجل المرأة أي: أحبلها [79] وهذا يعني أن نفيسة أنجبت لعلي بك الكبير؛ لأن مصطلح مستولدة كان لا يطلق إلا على من أنجبت سواء كانت زوجة أو ملك يمين.

ومن الباحثين من ذكر أن نفيسة لم تنجب من علي بك؛ لأنها كانت عاقرا[80]، ولا ريب أن هذا غير صحيح؛ حيث تنص الوثائق أنها كانت مستولدة علي بك الكبير ومصطلح (مستولدة) لا يطلق إلا على من أنجبت، وهذا يؤكد أنها لم تكن عاقرا، ولا يهم بعد ذلك أن يكون المولود قد عاش أو مات؛ فقد صارت أم ولد ولا يجوز شرعا بيعها[81]، ومن ثم يبدو خطأ ما رتبه على هذا من أن مراد بك له فضل كبير عليها؛ لأنه حررها –من وجهة نظره– وتزوجها لأنها كانت لدى (علي بك) مجرد محظية يمكن أن تباع وتشترى وأن مراد هو الذي غير وضعيتها القانونية، فهذا غير صحيح؛ فإن نفيسة بعد وفاة علي بك لم يكن مسموحا بيعها لأنها على الأقل كانت أم ولد وأمهات الأولاد لا يجوز بيعهن[82]. ليس هذا فحسب بل تشير الدلائل أنه أعتقها وتزوجها ولم تظل محظية، فالمحظية لا يطلق عليها مصطلح أرملة؟ والمصادر تشير أنها أرملة علي بك الكبير، وهذا لا يطلق إلا على من كانت زوجة وليست مجرد سُرِّية محظية.

78- دي بوا- ايميه وجولوا:المرجع السابق، ص 97.

79- المعجم الوسيط،ج2، المرجع السابق، ص 1098.

80- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 98.

81- ذهب جمهور الفقهاء إلى النهي عن بيع أمهات الأولاد. وقد حكي بعضهم الإجماع عليه. واستدلوا بما روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "أيما أمة ولدت من سيدها، فهي حرة". ابن ماجة: سنن ابن ماجة، كتاب العتق، باب أمهات الأولاد، ج2، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت. ص841. وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم "نهى عن بيع أمهات الأولاد، ولا يُبَعْنَ ولا يُرَهَنَّ، ولا يوهبن، ولا يُرَثْنَ، ويستمتع بها سيدها مادام حيًا، فإن مات؛ فهي حرة". أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب المكاتب، ج5، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2004م، ص237.

82- وقد سبقت الإشارة إلى رفض الشيخ السادات ما عزم عليه حسن باشا قبطان وتحديه إياه مفتيا بأن بيع أمهات الأولاد حرام لأنهن حرائر؛ فهذا هو الوضع القانوني الصحيح لهن وهو ما ينطبق على نفيسة.

ومن الثابت أنها كانت على جانب كبير من التثقيف والتهذيب؛ فقد تعلمت العربية قراءة وكتابة وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها، فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والأمراء[83]. وهذا مرده -كما تشير الدلائل- إلى أن نساء النخبة كن يتلقين تعليما خاصا؛ وينلن تعليما دينيا وربما درسن على أيدي كبار علماء الإسلام المعاصرين لهن. ومن المعلوم أن الأسر الثرية كانت تجلب إلى البيت مدرسين خصوصيين لتعليم البنات[84]. وليس ثمة من هو أقدر ماليا من رجل كعلي بك الكبير أو مراد بك لجلب معلمين لبناته أو نسائه.

ويقال إنها كانت تعرف كتابات شعراء العربية كما لو كانت اللغة العربية هي لغتها الأصلية[85]. مما ساعدها على التواصل والتفاعل والاندماج في المجتمع المصري الذي احتضنها. ويفترض بعض الباحثين أن ذلك أتاح لنفيسة -عبر نافذة الحرملك المطلة على ديوان القصر- أن تتابع الشؤون السياسية، وما كان يتخذه سيدها علي بك من قرارات، وما يتبناه من سياسات، استهدفت إقامة حكومة مملوكية قوية في المنطقة، مستقلة عن إسلامبول[86]. فقد كان علي بك حينما يسمع أخبار سلاطين المماليك الجراكسة يقول: هم كانوا مثلنا مماليك فصاروا ملوكا، وكان يطلق على نفسه (الملك برقوق)، ورغبة منه في تجديد دولة الجراكسة؛ استغل انشغال الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا؛ فعزل محمد باشا والي مصر ثم قتله مسموما[87].

وثمة من يرى أن "المؤرخ كأي عضو متواضع من محلفي المحكمة مضطر بعد كل شيء إلى الاستعانة بفطرته وبما خبر من شؤون البشر لاستكمال النقص فيما يعرض له من أقوال متضاربة وإلا كان غبيا"[88]. وبناء عليه لا غضاضة في قبول ما

83- محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، ج1، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955، ص166. وعبد الرحمن الرافعي: ج1، المرجع السابق، ص269.
84- جوديث تاجر: المرجع السابق، ص ص258، و284.
85- طارق بدراوي: المرجع السابق.
86- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص ص97، 98.
87- أحمد جودت باشا: تاريخ جودت،ج1، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، نظارة المعارف، بيروت، 1358هـ، ص 345.
88- ج كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص9.

افترضه بعض الباحثين من أن نفيسة كانت تتابع سيدها وهو يطالع كتب الأخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية، ويتناقش بديوان قصرها مع بعض خاصته، بل وربما معها أحيانا في ما كان يقرأه، ولطالما تطرقت مناقشاته لفكرة استيلاء العثمانيين على مصر، فقد كان يرى أنهم "أخذوها بالتغلب وبنفاق أهلها"، وأن الحكم الشرعى في الأصل كان بأيدي ملوك مصر من سلاطين الأيوبيين والمماليك، وأن أمراء المماليك هم الورثة الشرعيون لحكم مصر، وأن العثمانيين ليسوا إلا دخلاء وغزاة. وحسبما أورد الجبرتي أن هذه الفكرة كانت قد سيطرت عليه، يبوح بها للمقتربين منه والمتسامرين معه في الأوقات الخاصة من "أهل الوقار والحشمة والمسنين من كبار الأمراء والأعيان والشيوخ[89].

ومن المتوقع أن مثل هذه المناقشات السياسية وتحركات علي بك العملية في التوسع إقليميا (مصر والشام والحجاز واليمن) على حساب العثمانيين؛ مستغلا حالة الارتباك الشديد التي كانت عليها الدولة جراء نشوب حربها الطاحنة مع روسيا (1768– 1774م)، وقراره الحازم في منع ورود الولاة العثمانيين إلى مصر، والمضي في مضمار هذا المشروع حتى النهاية – كل ذلك كان بمثابة نافذة أطلت من خلالها نفيسة على عالم السياسة المملوكية والصراع على الانفراد بحكم مصر، لأجل الانفصال بها أو العمل بقدر ما تتيحه الظروف والإمكانات نحو تقليل روابط التبعية العثمانية إلى أقصى حد[90]. وقد عبر الجبرتي عن ذلك قائلا: "وشرهت نفسه لزيادة وسعة المملكة، وكلف أمراءه الأســفــار وفتح البلاد"[91].

لم تقف إسلامبول مكتوفة الأيدي أمام مساعي علي بك؛ فاستخدمت رجاله في القضاء عليه، وكان أحدهم يدعى إسماعيل بك[92]. القائد الثاني للقوات المملوكية في

89- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار،ج2، المصدر السابق، ص 744. وناصر سليمان: المرجع السابق، ص 98.

90- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 98.

91- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص747.

92- بعد موت (أبوالذهب) خلفه إبراهيم بك ومراد بك اللذين قلدا علي بك في سلوكه تجاه الدولة العثمانية؛ فوقف ضدهما إسماعيل بك هذا كما وقف ضد علي بك من قبل وألف عصبة قوية أرغمت كلا من مراد وإبراهيم على ترك القاهرة وفرا إلى الصعيد وأخذا يسعيان لتجريد إسماعيل

الشام[93]. وكان مخلصا للدولة العثمانية؛ فأخذ يحول عزم كبير أمرائه محمد بك[94] أبوالذهب[95]. قائد جيش علي بك الكبير في سوريا ويغير أفكاره ويحذره العاقبة ويخوف أبوالذهب بأن الحرب الروسية العثمانية ستنتهي، وحين تفرغ الدولة العثمانية من حربها مع الروس ستنتقم منهم. وسيكون عليهم مواجهة غضبها حينئذ، وأنه لا يجوز عصيان سلطان المسلمين؛ لأن عصيانه عصيان لله ورسوله، وأن ما هم فيه وساوس شيطان، وأن علي بك أخطأ حين اتبع كاترين الثانية Екатерина II (1762-1796م) إمبراطورة الروس (كان علي بك قد راسلها وطلب منها الدعم بالسفن والرجال) التي يجب على كل مسلم محاربتها..إلخ؛ فتحول فكر أبوالذهب[96] وكان لنصائحه ولإغراءات الباب العالي دور في انشقاق محمد بك أبوالذهب على (علي بك الكبير)[97]، وفي الوقت نفسه وصلت أوامر علي بك لمحمد بك أبوالذهب بالبقاء في الشام؛ فجمع أبوالذهب الأمراء والضباط وأخبرهم بتلك الأوامر، وعتب أبوالذهب على سيده (علي بك) أنه بدلا

من السلطة، وقد مات في 1791م بالطاعون. فوريه: مصر والحملة الفرنسية مقدمة تاريخية، وصف مصر، ج1، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة الاسرة، 2002م، ص ص215، 316.

93- جلال يحيى: المرجع السابق، ص268.

94- محمد بك أبو الدهب: تابع علي بك الكبير، عرف بـ"أبوالدهب"، لأنه أعطى" البقاشيش ذهبًا"، وكان ينثر الذهب على الفقرا والجعيدية (مثيري الفتن الذين يقومون بالسلب والنهب). يقول إسماعيل الخشاب: ولما انفرد بالكلمة بمصر توجه إلى عكا بجيوشه فحاصرها وملكها، واعتل بتلك النواحي ومات بها". ويصفه الجبرتي قائلا: "كان آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة وسعداً وحزماً وعزماً وحكماً وسماحة وحلماً، وكان قريباً للخير يحب العلماء والصلحاء ويميل بطبعه إليهم، وقوراً محتشماً مبجلاً، ولولا ما فعله آخراً من الإسراف في قتل أهل يافا بإشارة وزرانه لكانت حسناته أكثر من سيناته". الجبرتي: عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص ص 833-839. وإسماعيل الخشاب: المصدر السابق، ص ص 18-22. عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس للجبرتي، المرجع السابق، ص 59.

95- (أبوالذهب) هكذا بلفظها المحكي، وليس (أبي الذهب) وذلك على قاعدة (الحكاية)، والحكاية عند اللغويين: أن نردد اللفظ بحالته الأصلية ونعيد نطقه أو كتابته بالصورة التي سمعناها أو قرأناها من غير أن نغير شيئا من حروفه أو حركاته مهما غيرنا الجمل والتراكيب، كما تأتي بالأمثال مذكّرها ومؤنّثها؛ فلا تغيّر صيغة المذكّر وإن خاطبتَ مؤنّثا، ولا المؤنّث وإن خاطبتَ مُذكّرا. ابن الأثير: البديع في علم العربية، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 1420هـ، ص 704.

96- أحمد جودت: المصدر السابق، ص ص345،346. وحيدر الشهابي: المصدر السابق، ج2، ص ص801-806.

97- فوريه: المرجع السابق، ص 315.

من أن يأذن لهم بالرجوع إلى مصر؛ إذ به يأمر بالعكس؛ فوجههم أبوالذهب لمراده ومرادهم[98]؛ فلقد ضاقت أنفسهم وسئموا الحروب والغربة والبعد عن الوطن، فانقادوا إلى (أبوالذهب) وغادروا الشام بعد فتحها دون استئذان منه[99]؛ فقد كان محمد بك أبوالذهب كان يرغب فى الاستئثار بالسلطة في مصر. بل ويطمع في امتلاك الشام كذلك، ولكن اختلفت أساليبه عن أساليب أستاذه على بك؛ فكان يرى (أبوالذهب) أن استقامة الأمور له في مصر يكون بإرجاع سيادة العثمانيين عليها، بيد أنه توفى فجأة في 8 يونيو 1775م[100].

وحين قرَّ قرار (أبوالذهب) الإجهاز على سيده وأستاذه علي بك الكبير؛ أراد استغلال مراد بك في هذا المسعى؛ فلم يتردد مراد في الموافقة؛ شريطة أن يظفر بنفيسة[101]؛ إذ كان مراد بك قد شغفها حبا لجمالها الرائع[102]؛ وقيل إن رغبة مراد في نفيسة كانت السبب الأول والأهم في ذلك[103]؛ فوعده بها إن أحرز له النصر على سيده علي بك الكبير وقتله[104]؛ فقاد مراد بك جيش أستاذه محمد بك أبوالذهب[105]، وانطلق يقود فرقة من المماليك قوامها ألف مقاتل لحرب علي بك، وفي الصالحية التقى الجمعان في أول مايو 1773م؛ فشتت مراد بك شمل قوات علي بك[106] ورجاله[107]، وجُرِح على بك جرحا بليغا في وجهه وسقط أرضا وأُخذ أسيرا، وحين قدموه إلى أبوالذهب؛

98- أحمد جودت: المصدر السابق، ص ص 345- 346. وحيدر الشهابي: المصدر السابق، ج2 ص ص801- 806.

99- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص746. وأحمد جودت: المصدر السابق، ص ص 345- 346. وحيدر الشهابي: المصدر السابق، ج2، ص ص 801- 806.

100- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، مكتبة الأسرة، 2013م، ص35.

101- علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ج7، مدينة الإسكندرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1987، ص75.

102- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 197.

103- أحمد زقلمة: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص 135.

104- علي مبارك: المرجع السابق، ص75.

105- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 197.

106- كان الرحالة لوزينيان من الذين حضروا تلك الموقعة مع علي بك ومن الذين آثروا السلامة ولاذوا بالفرار. دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، 1985م، ص 208.

107- س. ف. فولني: ثلاثة أعوام في بر مصر والشام، ج1، ترجمة إدوارد البستاني، ملحق ج2،عجائب الآثار للجبرتي، المصدر السابق، ص905. وعلي مبارك: المرجع السابق، ص 75.

انكب يقبل يده ويبكي وكذلك فعل السناجق والكشاف[108]. ورجع محمد بك ومعه علي بك جريحا محمولا في تخت؛ فأنزلوه في داره بدرب عبد الحق بالأزبكية؛ وأحضر محمد بك أبوالذهب الجراحين لعلاج علي بك[109]! وواظبوا على معالجة جراحه، لكنهم فشلوا في إنقاذه؛ فتوفى متأثرا بجراحه"[110]. أما الأمير حيدر الشهابي؛ فذهب إلى أن الجراحين عالجوا علي بك؛ حتى كاد أن يبرأ؛ فدس محمد بك أبوالذهب له السم في جرحه؛ فمات[111]! في 15 صفر1187هـ/ 8 مايو 1773م. ويقول الجبرتي: "والله أعلم بكيفية موته"[112]. وهذا تعبير فيه من الشك والريبة الكثير؛ رغم أنه لم يجزم بشيء؛ فلعل أمانة الجبرتي ودقته حالت دون أن يجزم بشيء دون تثبت.

ويلاحظ أن الأيام السبعة الأخيرة في حياة علي بك قضاها في قصره بدرب عبد الحق؛ حيث تقيم نفيسة؛ فلعل ذلك كان برغبة منه أو منها أو من كليهما أن يتداوى هناك لدى زوجته الأثيرة؛ نفيسة وليس عند غيرها من النساء.

فقد كان لعلى بك ثلاث (مستولدات) اتخذهن زوجات – غير نفيسة– هن: عائشة قادن بنت عبد الله البيضاء معتوقة أستاذه إبراهيم كتخدا، ومنور خاتون بنت عبد الله البيضاء، وجلسان[113] بنت عبد الله البيضاء[114]. وقد وزعهن على قصوره الأخرى، والواقعة بخط قوصون، وباب الخرق، ومصر القديمة، وسبيل قيماز بالعادلية[115]، وجميعها داخل القاهرة[116]. وأوقف عليهن أوقافا تكفي لكي يعشن في رغد من بعده، وكانت نفيسة أحبهن إلى قلبه، ولم يهضم لها حقا، بل ميزها عن غيرها،

108- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص 747. وحيدر الشهابي: المصدر السابق، ص814.

109- حيدر الشهابي: المصدر السابق، ص814.

110- دانيال كريسيليوس:المرجع السابق، ص ص 208، 209.

111- حيدر الشهابي: المصدر السابق، ص814.

112- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص747.

113- وتكتب أحيانا "كلسن" وقد توفيت في حياة علي بك، محمد رفعت رمضان: المرحع السابق، ص 204.

114- دانيال كريسيليوس:المرجع السابق، ص 269. ومحمد رفعت رمضان: مرحع سابق، ص 204.

115- العادلية: المقصود بها القبة التي بناها السلطان العادل طومان باى، فوق مقبرته التي عرفت بالعادلية، نسبة إليه. وتقع على يسار شارع صلاح سالم، بالقاهرة. عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس للجبرتي، المرجع السابق، ص 49.

116- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص ص 98-99.

وكان في علاقته بها مثالا للعفة والرجولة وأنجب علي بك من نفيسة طفلة ماتت في سن مبكرة[117].

ومهما يكن من أمر؛ فقد تُوفي علي بك وغُسِّل وكُفِّن وخرجوا بجنازته من قصر نفيسة وصلوا عليه في مشهد حافل، ودفن بمقبرة أستاذه إبراهيم كتخدا القازدوغلي بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعي[118]. مات علي بك بعد أن غلب على أذهان الناس آنذاك أن المماليك بزعامته سوف يخلفون الأتراك في الإمبراطورية العثمانية ولكن وفاته كانت خاتمة مجدهم[119].

إذن مات علي بك بعد أن أعطى اقتران نفيسة به الكثير، مما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن فترة اقترانها به كانت بمثابة فترة من "الثقيف السياسي"، كما أنها اكتسبت فيها مكانة خاصة في الوسط المملوكي؛ حيث كان أغلب البكوات المتنفذين من أتباع زوجها، كما أن قصرها الذي شهد أغلب الاجتماعات السياسية، كانت تصدر من خلاله أهم القرارات في تلك الفترة، فأضفى ذلك عليها وعلى قصرها مهابة خاصة؛ حيث كانت تطرح فيه أفكار ذات طابع سياسي معقد في علاقات القوة والصراع، وكان ذلك مجالا جديدا على عقل نفيسة، وستبدي الأعوام التالية –خاصة بعد موت علي بك– ما لديها من قابلية واستعداد لفهم هذا العالم، وولوج شبكة علاقاته المعقدة لتصبح هي نفسها جزءا منه[120]. وقد أصاب دانيال كريسيليوس في وصف حال نفيسة هذا قائلا: "عندما هُزم على بك حصل مراد بك على زوجته الجميلة الثانية نفيسة وهى إحدى النساء القليلات اللواتي لعبن دورا معروفا في السنوات اللاحقة في البكوية المملوكية؛ فقد كانت امرأة متعددة المواهب واسعة الحيلة[121].

117- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 204.
118- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص747.
119- جورج يانج: المرجع السابق، ص 26.
120- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 98.
121- دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص 269

نفيســـــة ومراد بك:

بعد وفاة علي بك آلَ أمرُ مصر إلى محمد بك أبوالذهب[122] إلا أنه لم يعمر طويلا؛ حيث توفي بعد عامين؛ فتقاسم كل من مراد بك وإبراهيم بك السلطة النفوذ، ولكي ندرك مدى التباين في الأجواء التي عاشتها نفيسة مع زوجها الجديد؛ فلا يوجد خير من الجبرتي يصفهما حين ترجم لهما؛ فقال ما موجزه عن (علي بك): كان قوي المراس شديد الشكيمة عظيم الهمة لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى، لا يميل لسوى الجد ولا يحب اللهو ولا المزح ولا الهزل، ويحب معالي الأمور من صغره، وكان لا يجالس إلا أهل الوقار والحشمة والمسنين. وتتبع المفسدين وعاقبهم بشدة، ولم يراع في ذلك أحدًا سواء كان فقيهًا أو قاضيًا... فأمنت السبل وكان عظيم الهيبة صحيح الفراسة شديد الحذق، ولو لم يخنه مملوكه محمد بك لرد الأمور إلى أصولها". بينما يقول عن مراد بك: "عكف مراد بيك على لذاته وشهواته...وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه، وسامحهم في زلاتهم، وحظى عنده كل جرىء غشوم عسوف، وكان ظالما...وكان من أعظم أسباب خراب الإقليم المصرى"[123]. وهكذا يبدو البون شاسعا بين الرجلين اللذين عاشت في كنفهما نفيسة!

وعلى أية حال؛ بوفاة علي بك تم المراد لمراد؛ فلقد هيأ له ظفره في ميــدان الحرب ظفرا آخر في ميدان الحب؛ ليفوز بنفيسة مكأفاة له. وبعــد أن عاشــت نفيســة

122- بعد وفاة علي بك كافأت الدولة العثمانية محمد بك أبوالذهب بتثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر حتى مات سنة 1775م؛ وبعد وفاته تسليم إبراهيم بك مشيخة البلد، وتسلم مراد بك الدفترداراية، وتسليم يوسف بك إمارة الحج، ووقعت بينهما صراعا، وحاولت إسلامبول استعادة سلطتها، بيد أن نشوب حربها مع روسيا صرفها عن ذلك، وتلاشي نفوذ الوالى العثماني بجانب نفوذ مراد بك وإبراهيم بك إلى أن جاءت الحملة الفرنسية. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية،ج1، المرجع السابق، ص ص26. وجلال يحيى: المرجع السابق، ص 277.

123- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج2، المصدر السابق، ص741-746. وعبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2023م، ص ص347، 353.

أعواما في كنف علي بك الكبير ها هي تنتقل إلى كنف رجل آخر وتدخل مرحلة جديدة من حياتها؛ فكيف حدث هذا؟

كان لأمراء المماليك عادات اجتماعية معينة للحفاظ على تماسك الكيان المملوكي، تتمثل في أن يتزوج المملوك ابنة أستاذه أو أرملته بعد وفاته؛ لـ"يفتح بيت أستاذه"[124]، وقد سجل لوزينيان أن من تقاليد المماليك إذا توفي أحد البكوات؛ فإن أحد أتباعه يرث منزلته ويتزوج أرملته[125]. وقد لاحظ علماء الحملة الفرنسية ظاهرة زواج أرملة أحد البكوات من أحد مماليك زوجها مع تقديمه أكبر قدر من الرعاية والتقدير لها مهما كانت المكانة التي سيصل إليها فيما بعد[126]. ورصدت جريدة كورييه دي ليجيبت الفرنسية هذا الظاهرة أيضا؛ فجاء فيها: "كثيرا ما يحدث أن تتزوج أرملة رجل عظيم بعبد زوجها، وقد رأينا أعظم رجل في القاهرة مثلا يزوج كريمته لأحد المماليك"[127]. والأمثلة على ذلك كثيرة[128]. لكن أهمها في سياق البحث؛ زواج محمد بك أبوالذهب بعائشة أرملة على بك الكبير الأولى[129]، وزواج مراد بك بنفيسة أرملته الثانية[130].

124- عراقي يوسف محمد: الوجود العثماني المملوكي في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص 415.

125 -Lusignan, S. :op. cit, p.45.

126- ج. دي شابرول: المصدر السابق، ص 112.

127- كورييه دليجيبت، ترجمة صلاح الدين البستاني عدد 115، السنة التاسعة للجمهورية، دار العرب للبستاني، القاهرة، 1971م، ص 426.

128- من هذه الأمثلة: حينما قُتل عثمان كتخدا القازدغلي تزوج تابعه الأمير سليمان جاويش بمحظية أستاذه الست شويكار واستولى على تركته وبلاده، وتزوج سليمان كاشف عديلة بنت إبراهيم بك الكبير بعد موت سيده إبراهيم بك، وتزوج عمر كاشف بأرملة سيده عثمان بك الأشقر، وتزوج محمد كاشف مملوك سليمان بك الأغا ابنة سيده. وحينما قَتل جوخدار (الجوخدار: المسؤول عن ملابس الأمير أو الحاجب أو الساعي) البرديسي في 3 يوليو 1803م حسين أغا شنن (مدبر محمد خسرو باشا) كافأه إبراهيم بك علي نحو ما نص الجبرتي: "وأنعم عليه ببلاد المقتول وبيته وزوجته وأملاكه وجعله كاشف الغربية". عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج1، ص467، وج6، ص ص202، 229، 230. ونقولا الترك: مذكرات نقولا ترك، أخبار المشيخة الفرنساوية في الديار المصرية، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، مكتبة الأسرة، 2015م، ص ص 150 ،151.

129- كانت عائشة بنت عبد الله البيضاء زوجة علي بك الكبير الأولى، وقبل ذلك كانت جارية ثم زوجة إبراهيم كتخدا القازدغولي الذي كان سيد علي بك الكبير. دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص 269.

130- دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص ص 269، 323.

وهكذا؛ فقد تزوج أهم أميرين من أمراء المماليك من أهم أرملتين من حـــريم ســـيدهما علي بك الكبير بعد موته.

ويبدو أن عادة زواج المماليك ذوى الحيثية من نساء من جنسهم فقط؛ ظل تقليدا مستمرا؛ فمثلت هذه الجماعة الصغيرة أرستقراطية اجتماعية فى مصر في تلك الأحقاب[131]. بل كان هناك نوع من الأرستقراطية النسوية في المجتمع المملوكي، وسماح محمد بك أبوالذهب بزواج مراد من نفيسة لم يأت صدفة؛ فكما يرتقي شخص ما سلم الحياة الاجتماعية بفضل زواجه من ابنة أو أرملة رجل ثري؛ كذلك كان الحال؛ فقد كانت زيجات المماليك سببا للتقدم الاجتماعي، وفي حالة مراد بك لم يستفد من زواجه بنفيسة أرملة علي بك ذيوع الصيت فقط؛ بل بل فاز بمسكنه في الأزبكية وعوائد أوقافه. ولم تكن هذه الزيجة مكافأة خاصة لخدمات سابقة أو رمزا للتكريم فقط؛ بل كانت أيضا الوسيلة الشرعية لارتقاء المملوك إلى قمة السلم الهرمي المملوكي؛ حيث كانت زيجات الأمراء الأقوياء بلا ريب لها أغراض سياسية، فقد كان الزواج المملوكي يخدم أغراض دعم العلاقات الوثيقة بين السيد والمملوك لدرجة أكبر في البيت المملوكي، وكم من تحالفات تمت في أعقاب زيجات. ومن الواضح أن معتوقات وأخوات وأرامل البكوات قد شكلن أرستقراطية نسائية واضحة داخل المجتمع المملوكي، وأن هذه الزيجات الرسمية قامت بوظيفة المبرر الشرعي لارتقاء مملوك سلم المجد في البناء الأرستقراطي المملوكي وفي الانتقال من طبقة مملوكية إلى الطبقة التي تليها[132].

وفي هذا الإطار يلفت دانيال كريسيليوس الانتباه إلى أن زواج محمد بك أبوالذهب من عائشة أرملة سيده الأولى مرت دون ملاحظة! وأنه كان يهدف إلى "تعزيز مركزه بحصوله على عائشة الزوجة الرئيسية لسيده السابق". ويشير كريسيلوس إلى أمر ذي بال يخص مراد بك وهو أن نفيسة لم تكن الأرملة الأولى التي تزوجها قائلا: "يبدو أن مرادا كان يهوى جمع الأرامل الثريات[133]! وقد سجل الجبرتي زيجاته قائلا:

131- وكان المماليك أحيانا يتزوجون من الدرجات الأقل من طبقات العلماء والتجار. نفسه، ص320.
132- نفسه، ص ص 268-271. و Fay, M. A.: Unveiling the Harem, op. cit, pp.45, 63
133- دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، المرجع السابق ص 269 م

"تزوج مراد بك بالست فاطمة زوجة الأمير صالح بيك[134] فى عام 1768م، "وسكن داره العظيمة، بخطة قلعة الكبش، ولما مات على بيك تزوج سُرِّيته أيضاً، وهى الست نفيسة الشهيرة الذكر بالخير"[135]. والذي تشير إليه الدلائل أن زواج مراد بنفيسة كان له دافع إضافي فوق كل الدوافع السابقة وهو أنه كان يهواها كما سبق ذكره.

ويُعَدُّ سكنُ مراد دار صالح بك الكبير بمثابة "تجسيد مادي لعملية انتقال السلطة واكتساب الشرعية والنفوذ". وفي هذا السياق يُفهم أن زواج مراد بك بالست نفيسة كان بمنزلة نقلة نوعية أكثر أهمية في مسيرته السياسية؛ فقد جعلته يتسلق سريعاً درجات سلم القيادة المملوكية إلى المرتبة الأولى[136]. ومن ثم تبرز أهمية دور المرأة في إضفاء الشرعية على خلافة الرجل في السلطة ورمزيته لاستمرار الأسرة المملوكية من جيل إلى جيل[137]. ومن ثمار زواج مراد من نفيسة أن "ذهب كل ما حازته من تركة «على بك» وإيراداته الأخرى ووقفياته إلى زيجتها الجديدة[138]. وأصبحت منذ ذلك الوقت تسمى بالسيدة نفيسة المرادية. وكانت تتمتع بثروة ضخمة، وتحظى بحب المماليك لها، حتى أصبحت تُلقب بـــ"أم المماليك". وكان هذا الزواج يظهر مراد بك في شكل متميز عن زميليه؛ حيث إنه يستند إلى ثروة ضخمة، ونفوذ واضح، وبدا كأنه الوارث لعلى بك الكبير نفسه[139]. وأي شرف وراتفاع منزلة وسط الأقران والرعية أن أميرا مملوكيا يبدو خليفة لعلي بك الكبير!

واللافت للانتباه أن زواج مراد بك بكل من فاطمة ثم نفيسة تم بعد عملية قتـــل لزوجيهما كان هو طرفا رئيسا في مقتلهما في الحالتين!

134- صالح بك الكبير: قتله غدرا كل من على بك الكبير وتابعه محمد بك أبوالذهب. ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 100.

135- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص347.

136- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص100. و Fay, M. A.: Unveiling the Harem, op. cit, p.63

137 -Fay, M. A. : Shawikar Qadin , op. cit, p. 96.

138- دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، المرجع السابق، ص 269 م

139- جلال يحيى: المرجع السابق ص ص 276، 277.

هذا، ولم يكن ثمة غضاضة في زواج الأمير من أرملة قتيله[140]! وينبغي التوقف قليلا لمناقشة هذه المسألة؛ فلا غضاضة في أن يتزوج التابع أرملة سيده، لكن أن يكون هو قاتله ثم يتزوج امرأته! كما حدث في حالة مراد مع فاطمة ثم مع نفيسة! فهذا قد يبدو مثيرا! ويحتاج تفسيرا! فكيف تقبل المرأة السوية أن تعيش مع قاتل زوجها؟ حيث يبدو هذا منافيا للفطرة! وما يمكن قبوله أن تتزوج الأرملة من أحد أتباع زوجها، لكن أن يكون الزوج الجديد هو قاتل الزوج السابق، ثم يُقال إن عموم نساء المماليك كن يقبلن ذلك دون غضاضة! قد يكون هذا مقبولا إذا كانت الزوجة تكره الزوج القتيل أو تهوى قاتل زوجها، ففي مثل هذه الحالة يمكن تَفَهمُ ذلك، ولكن تبقى هذه حالات استثنائية وليست الأصل. وفي حالة نفيسة تشير الدلائل إلى أنها كانت تحب علي بك وتقدره وتقر بفضله! ولكن من ناحية أخرى؛ ما هي الخيارات التي كانت أمامها؟ هل كان بإمكانها أن ترفض؟ هل كان واردا أن تضحي بالنفوذ والجاه؟ أم أن نفيسة كانت كما وصُفت سيدة (واسعة الحيلة) والتبصر في عواقب الأمور؟ فضلا أن ثقافة ذلك العصر وروحه كانت تقبل ذلك وتستسغيه!

ويقال إن المصادر لم تشر إلى أن زواج مراد بنفيسة تم بالإكراه، كما كان يحدث أحيانا لبعض نسوة المماليك[141]، وعلى الرغم من أن صمت المصادر في حد ذاته لا يعد دليلا قاطعا على ذلك، إلا أن هذا هو الراجح؛ وثمة حالة زواج لأحد أمراء المماليك من أرملة أمير مملوكي آخر ذكرها الجبرتي في وفيات عام 1191هـ(1777م)، لدى ترجمته لإسماعيل بك الصغير (كتخدا محمد بك أبوالذهب) يمكن الاسترشاد بها في هذا الصدد، وخلاصتها: أنه كان لإسماعيل بك هذا أخ يُدعى (علي بك الغزاوي) وقد مات وترك أرملة تدعى الست (سلن)؛ فأراد إسماعيل بك أن يتزوج (سلن) أرملة أخيه هذه؛ فصرفه محمد بك أبوالذهب عن ذلك وأخبره أنها ترفض الزواج به؛ ربما مراعاة لزوجته (زوجة إسماعيل بك) فاطمة هانم ابنة سيدها (سيد

[140]- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 100.
[141]- نفسه، ص 100.

سلن) رضوان كتخدا[142] (حيث كانت سلن هذه محظية رضوان كتخدا قبل أن تتزوج علي بك الغزاوي)، أي أن وفاءها لسيدها جعلها تخجل وتستحي من أن تصبح ضرة لابنته، ورغم ذلك يبدو أن إسماعيل ظل راغبا في إتمام الزواج بـــ(سلن) ووافقه أستاذه محمد بك أبوالذهب الذي يحتمل أنه كان مؤيدا لذلك؛ فأرسل إليها رسولا من قِبَلِه يعرض عليها الزواج من إسماعيل بك "فلم يمكنها الامتناع؛ فعقد عليها" على حد تعبير الجبرتي[143].

ولكن هذه الحادثة تصلح للاستدلال في اتجاهين قد يبدوان متعارضين؛ وهما: عدم وجود إكراه، وفي الوقت نفسه وجود شيء من الإكراه أو الضغط على الأرملة، وهو ما يمكن فهمه من قول الجبرتي "فلم يمكنها الامتناع"، رغم رفضها السابق؛ فهل جاء رفضها في البداية حياء من ابنة سيدها السابق، ولكن حينما تدخل أبوالذهب بشخصه وصفته وافقت في النهاية؛ فهل كان ذلك حياء من مقامه أن ترفض طلبه أم خوفا من عواقب رفض أمره بصفته الحاكم؟ ألا يُفهم من هذه القصة أن حدوث الإكراه كان أمرا غير معتاد، وأنه كان مسموحا لأولئك الأرامل بالاعتراض والرفض، وأنه لولا تدخل أبوالذهب للتغلب على اعتراضاتها لما تم الزواج؟

وبناء عليه يمكن القول إن نفيسة قبلت بالزواج من مراد بك دون إكراه، وأنه كان يمكنها الاعتراض والرفض ولكنها لم تفعل، ولو فعلت لكان من الممكن أن يُستجاب لها، أو تم استبداله بأمير آخر، ولتم نقل خبر ذلك إلينا نظرا لمكانتها؛ حيث كانت أرملة علي بك الكبير، أي أنها كانت من الطبقة الأولى في الاستقراطية النسائية المملوكية.

---

[142]- رضوان كتخدا: كان من مماليك أحمد كتخدا المجنون، تدرج في المناصب حتى أصبح كتخدا، كان شهما عاقلا، ولما استقل إسماعيل بك بإمارة مصر نوه بشأنه وأحبه، وصار في تلك الأيام نافذ الكلمة والرياسة، وكان قريباً إلى الخير؛ واشتهر أكثر من سيده، وصار له أولاد وعزوة وأتباع ومماليك. توفي في أبريل 1791م. عبد الرحمن الجبرتي: ج 3، قصور الثقافة، المصدر السابق، ص ص 508، 509.

[143]- عبد الرحمن الجبرتي: ج2 قصور الثاقافة، المصدر السابق، ص ص 888 ،889. يذكر دانيال كريسيليوس: أن الزواج لم يتم إلا بعد وفاة فاطمة! وهذا خطأ؛ لأن الجبرتي ذكر صراحة "فعقد عليها ثم ماتت فاطمة بعد ذلك". والجبرتي هو مصدر كريسيليوس في هذه المعلومة ص ص 270، 271.

فالذي نقل خبر رفض أرملة دونها منزلة مثل (سلن) كان سينقل لنا خبر رفضها من باب أولى إن حدث.

وتجدر الإشارة إلى أنه من الأسباب التي أضفت على نفيسة مكانة ومهابة من نوع خاص لدى أمراء المماليك، فضلا عن قوة شخصيتها هو إنعاماتها المتواصلة على هؤلاء البكوات الذين كان معظم زوجاتهم الجورجيات من جواريها اللاتي كانت تجهزهن على نفقاتها الخاصة، الأمر الذي جعل العلاقة الشخصية بينها وبين هؤلاء البكوات الكبار تنطوي على درجة كبيرة من الاحترام والتقدير لكرمها الموصول، حتى بعد رحيل أستاذهم علي بك الكبير[144].

ولعل هذا كان وراء لقب "أم المماليك" الذي حظيت به دون سواها من زوجات كبار الأمراء المماليك اللواتي مررن بمثل تجربتها واشتركن في عوامل الوراثة والبيئة نفسها، وحُزْنَ ثروة مثلها، ومع هذا لم تبرز منهن واحدة كبروزها، وما ذاك إلا لمواهبها الفطرية التي جبلت عليها.

ومن ثم يبدو جليا أن نفيسة أحسنت توظيف ثروتها في الإنفاق بسخاء على المحيطين، وهذا ذكاء اجتماعي يشهد لها بالنبل وبعد النظر؛ فليس كالسخاء ببذل المال وسيلة مضمونة لتأليف القلوب ورفع باذله مكانا عَلِيًّا في نفوس الناس؛ فبمثل هذا السخاء امتلكت نفيسة قلوب العامة والخاصة.

وفي هذه المرحلة الجديدة من حياة نفيسة في كنف مراد بك، تمتعت بمكانة مرموقة وكانت موضع احترام المماليك جميعا يتشرفون بزيارتها كلما تولوا منصبا من المناصب لتزودهم بالنصائح الثمينة قائلة: "إياكم واغتصاب حقوق الشعب، فإن (علي بك) كان دائما يرعاها حق رعايتها"[145].

هذا، ويمكن الاستدلال بنفيسة كأنموذج على خطأ التعميم الذي ذهب إليـــه (ج. دي شابرول) في (وصف مصر) حين تحدث عن سيدات الحريم إذ وصف حياتهن بأنهـــا كانت فارغة ورتيبة وعقولهن خالية من أية معرفة، وزاد قائلا: "فما عليك إلا أن تنظـــر

144- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 98.
145- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص ص 208، 209.

إلى واحدة من زوجات البكوات، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات[146]! والدارس المتأني يدرك أن الطبقة الثرية من النساء ومنهن زوجات البكوات لسن سواء في هذا، ونفيسة خير مثال ودليل. ثم كيف يجرؤ (ج. دي شابرول) أن يحكم على سيدات الحريم المملوكي وهو لم يتخط عتبة باب إحداهن؛ حيث كان ذلك من المستحيلات في ذلك الزمان أن تتخطى أقدام الغرباء أعتاب الحريم!

وقد انتقدت أيضا (ماري آن فاي) الرحالة أو التجار الأوربيين الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر وكتبوا ملاحظات تفصيلية لكنها غير دقيقة عن الشريعة الإسلامية والمرأة ومواقع الحريم رغم أنهم لم يكونوا يعرفون إلا القليل جدا عن الشريعة الإسلامية أو حقوق المرأة، ونظام الحريم وتقول: إنه من شبه المؤكد أنه لم تتم دعوتهم أبدا إلى منزل أو إلى حريم منزل. ومع ذلك؛ فقد تحدثوا في كتاباتهم بثقة معتبرين أنفسهم على دراية بأحوال النساء وحريم القاهرة بل العالم العثماني بأسره وأن حريم القاهرة سجون افتراضية [147]!

وقد سبق جوستاف لوبون في بيان هذا حين قال: "كلمة «الحريم» لفظ عام يدل عند العرب على كل شيء مقدس، فإذا ما طُبِّقت هذه الكلمة على بيت دلت على أمنع جزء فيه وأشده حرمة عند المسلم، وهو المكان الذي تسكنه نساؤه. وينسج الأوربيون أفسد الآراء حول دوائر الحريم في الشرق الإسلامي، ويعدون دوائر الحريم دور فسق يسكنها نساء سجينات بائسات يقضين أعمارهنَّ في البطالة ويندبن حظهن[148]!

---

[146]- ج. دي شابرول: المصدر السابق، ص ص53- 55.

[147]- Fay, M. A.:Unveiling the Harem: op. cit, pp2,23.

[148]- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م، ص413.

نفيسة في كتابات بعض الرحالة الأوربيين

نفيسة والرحالة لوزينيان:

يبدو بجلاء أن نفيسة بلغت حدا من الشهرة جعلت عددا من الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر يذكرونها في كتاباتهم، ويذكر (محمد رفعت رمضان)[149] أن الرحالة لوزينيان ذكر نفيسة في كتابه **A history of the Revolution of Ali Bey against the Ottoman Porte** (تاريخ ثورة علي بك ضد الباب العالي العثماني)، وبالعودة إلى الكتاب لوحظ أنه لم يصرح باسمها قط، ولكنه ذكر ما يلي: إنه (علي بك الكبير) في سنة 1764م امتلك فتاة جميلة ولدت في روسيا الحمراء[150]! جلبها إلى مصر مصطفى الطرابيزونى، وقد أغرم بها على بك، ولكنه بدل أن يغتصبها لنفسه عرض عليها الزواج إذا اعتنقت الإسلام، بيد أنها رفضت بشكل قاطع أن تغير اسمها (مارى) أو أن تترك المسيحية. وأعجب على بك بنبلها وسمح لها أن تبقى كما تريد. وكانت ماري جديرة بحبه؛ لا لجمالها وسحر عيونها وأهدابها وبشرتها الوردية فقط، بل لكرم أخلاقها وسمو فكرها. ورغم أن كثيرا من الجواري كن يقمن بخدمتها فإنها كانت تعاملهن كالأخوات[151]. ثم يذكر لوزينيان في موضع آخر وهو يتحدث عن زيارة والد علي بك له في القاهرة بعد غياب طويل، ووصف كيف كانت فرحةُ الأب حين رأى المكانة العالية التي غدا فيها ولده، وفصَّل في ذكر الترحاب والحفاوة التي استَقْبَلَ بها علي بك والده، واستضافته إياه في قصره بالأزبكية. وقضائه حوالي سبعة أشهر معه في مصر، وأن علي بك قدم له زوجته الجميلة الأميرة ماري وطفلتها[152]!

149- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 204.

150 -Red Rusia. Lusignan, S. : op, cit, pp.82,83: إحدى مقاطعات بولندا، وراء جبال الكربات.

151 -Lusignan, S. : op, cit, pp.82,83.

152 -Ibid, pp.85,86.

وبعد استعراض ما أورده لوزينيان في كتابه يجدر الوقوف أمامه ومناقشته؛ حيث إنه كان قد دخل في خدمة علي بك، ويفترض أن مثله يقص أخبارا ذات قيمة، وأول ما يلفت الانتباه أن ما سبق ذكره من قبل (محمد رفعت رمضان) من أن لوزينيان ذكر نفيسة في كتابه، فهذا غير صحيح؛ إذا حملنا كلامه على أنه ذكرها باسمها الصريح الذي تعرف به (نفيسة) فهذا لا وجود له في الكتاب كله، ولكنه تحدث عن امرأة اسمها (ماري) تسكن قصرا في الأزبكية، ومن المعلوم أن زوجة علي بك التي كانت في قصره بالأزبكية هي نفيسة وليس غيرها، كما ذكر الجبرتي وغيره! فهل ماري ونفيسة شخصية واحدة؟ باعتبار مكان الإقامة في قصر الأزبكية؟ ثم ذكر أنها أنجبت طفلة لعلي بك، ومن المعلوم أن التي أنجبت له طفلة كانت نفيسة. أما مسألة وصفها بالجمال والنبل، فهذا يمكن أن ينطبق على نفيسة وغيرها من زوجات علي بك ومحظياته فلا يُتخيل أن رجلا بمكانته سيحتفظ بنساء دميمات.

وبناء عليه يمكن القول إن لوزينيان كان يتكلم عن نفيسة ولكن أخطأ وسماها ماري، أو ربما لم يخطئ؛ إذ يحتمل أن هذا كان اسمها القديم قبل أن تُسبى وتصبح من حريم علي بك وقبل منحها اسما جديدا هو نفيسة. ولكن ماذا عن بقية أوصاف تلك المرأة لدى لوزنيان؟ فإذا سلمنا أنه كان يقصد نفيسة وأنه أخطأ حين أطلق عليها ماري، على افتراض أن هذا كان اسمها القديم حقا، وكان ينبغي أن يذكرها باسمها الجديد الذي مُنِحَته (نفيسة)، لكن المثير للتساؤل أن لوزينيان يذكر أن (ماري التي هي نفيسة) لم تسلم! وأنها لم تغير اسمها! وهذا لا ينطبق على نفيسة البتة! وما توافر من معلومات عنها؛ من حيث إسلامها واسمها؛ فإذا تجاوزنا بلد النشأة؛ حيث يشير إلى روسيا الحمراء وليس جورجيا، فهذا الأمر (الموطن الأصلي) لا يبدو ذا قيمة مقارنة بما ذكره عن رفضها اعتناق الإسلام ورفضها تغيير اسمها، وهذا لا ينبطبق على نفيسة مطلقا ولم يقل به أحد؛ حيث إن إسلام نفيسة وتغيير اسمها مقترنان؛ وصار معلوما من تاريخها بالضرورة، كما سبقت الإشارة أن اسمها في الوثائق: نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء، وقد سبق بيان أن هذا من دلائل إعادة صياغة شخصية الجارية أو المملوك.

ثم إن إنشاءها المنشآت الخيرية ومنها مكتب لتحفيظ القرآن ولم تجر العادة أن يقوم غير المسلمين بأوقاف على مثل هاتيك الأمور يعد من دلائل إسلامها أيضا! وذكرها الجبرتي بنعوت تفوح منها أنها كانت مسلمة ودفنت في مقابر المسلمين، بجوار الإمام الشافعي -كما سيرد- ومن المعلوم أنها لو كانت غير مسلمة لدفنت في مقابر غير المسلمين؛ حيث إنه من المسلمات منذ صدر الإسلام وحتى عصرنا أن كل ميت يدفن في مقابر أهل ملته بلا خلاف.

والراجح أن ماري هي نفيسة، ولكن كيف يمكن قبول ذلك؟ يمكن قبوله إذا علمنا أن لوزينيان -كما سبق الذكر- كتب كتابه هذا بعد عشر سنوات من ذاكرته بعد أن ضاعت مسوداته لدى فراره بعد هزيمة علي بك ومقتله، وأن لوزينيان نفسه اعتذر عن ما يمكن أن يصادفه القارئ من ذكر (حوادث لا يثق بصحتها)؛ لأنه يكتب من الذاكرة، ومن ثم؛ فيمكن القول: إن مجمل ما تذكَّره لوزينيان أنه كان لعلي بك زوجة جميلة نبيلة تسكن في قصره بالأزبكية وأنها أنجبت له بنتا، أما مسألة الاسم (ماري) ورفض تغييره، ورفض اعتناق الإسلام؛ فلعل هذا من خلط لوزينيان ونسيانه أو من قبيل المُقَبِّلات المثيرة التي يضيفها القصاصون على حكايات التاريخ لكي يزيدوها متعة وإثارة وتشويقا. فجاءت معلوماته مشوشة عن نفيسة جعلته في نهاية المطاف عبارة عن خيط من حقيقة ثم ينسج عليه خيوطا من الأوهام، والراجح أن أنه علم بأمر تلك المرأة الجميلة النبيلة التي تزوجها علي بك الكبير وأنها تسكن في قصره بالأزبكية، وأكمل من خياله باقي القصة لإمتاع الأسماع بأخبار مثيرة من قبيل رفضها تغيير دينها، ورفضها تغيير اسمها، وعلى الرغم؛ من ذلك استمر علي بك في حبها وتقديرها...إلخ. وبعبارة أخرى لقد ضحى بالحقيقة من أجل حبك قصة جميلة مثيرة!

وثمة أمر أخير في هذه المسألة؛ إن لوزينيان ادعى أن علي بك تزوج بـ(ماري) هذه، وأنها لم تغير اسمها ولا دينها، وعلي بك ليس نكرة وزوجاته لسن نكرات كذلك؛ فمن المعلوم أنه كان لعلي بك زوجات أربع، وأسماؤهن معروفة وهن: عائشة ونفيسة ومنور وجلسان، كما سبق الذكر؛ ومن ثم فلا توجد زوجة تدعي ماري

لعلي بك تسكن قصره بالأزبكية وأنجبت له، وتمسكت باسمها القديم وبقيت على المسيحية!

ولعل مما يؤيد صحة هذا أن الرحالة الفرنسي فولنى انتقد كتاب لوزينيان وذهب إلى أنه يتضمن معلومات جمعت من مصادر خاطئة، وقد التمس بعض الباحثين له العذر؛ حيث إنه كتب عن هذا الأحداث بعد مرور عشر سنوات ومن ذاكرته مما عرضه للوقوع في الخطأ[153]. كما سبق الذكر أيضا، وقد سبقت الإشارة إلى انتقاد ماري آن فاي لمثل هذه الكتابات؛ لما فيها من شطط.

الرحالة براون ونفيسة:

أما الرحالة الإنجليزي بروان؛ فقد زار القاهرة في عام 1792م؛ وذكر نفيسة ولكن لم يذكرها باسمها بل باسم (فاطمة)؛ فيقول ما يلي:

Fatme, now the aged daughter of the famous Ali, is held in much respect by all the Beys. Even Murad, her husband, stands reverently in her presence. When a Bey is appointed to a government, he never sails to pay a visit to this old lady, who lectures him on his duties; and will say, "Do not pillage the people; they were always spared by my father"[154]

الترجمة: تحظى فاطمة الابنة المسنة لعلي بك الشهير باحترام بالغ من قبل كل البكوات حتى مراد زوجها يقف في حضرتها موقرا إياها، وحينما يتم تعيين أحد البكوات في الحكومة لا يفوته أبدا أن يزور تلك السيدة العجوز والتي بدورها تلقنه واجباته وتقول له: "إياك وأن تنهب الناس؛ فقد كان والدي دائما يرحمهم"!

وهذا الذي ذكره بروان مثير! لما فيه من اضطراب وخلط؛ فلم يكن لعلي بك الكبير ابنة تدعى فاطمة! وفاطمة التي تزوجها مراد بك لم تكن ابنة علي بك ولا حتى أرملته؛ وإنما كانت أرملة صالح بك الكبير كما سبق الذكر. ولو لم يقل بروان إنها كانت أرملة علي بك الكبير لانصرف الذهن إلى فاطمة التي كانت أرملة صالح بك الكبير وتزوجها مراد قبل نفيسة كما سبق الذكر أيضا. ثم عن أي عجوز أو مسنة يتحدث

153- سيد أحمد على الناصري: المرجع السابق، ص15.

154- Browne, W. G.:op. cit, p.92.

بروان؟ إذ يصفها تارة بـــ(aged) أي مسنة أو عجوز، وأخرى بـــ(old lady) أي سيدة عجوز! فلم تكن نفيسة آنذاك (عام 1792م) مسنة ولا عجوزا! فقد كانت على الأرجح في الأربعينيات من عمرها، وعلى الأكثر في نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات! فهل تعد عجوزا من كانت في هذا السن؟ وخصوصا أنها كانت ترفل في ألوان النعيم ولا تعرف الكد؟!

والواضح أنه يتكلم عن نفيسة التي كانت مستولدة علي بك وليست ابنته، وعلى الرغم من أن بروان لم يذكر نفيسة باسمها وذكرها باسم فاطمة! ومع هذا فلا ينصرف الذهن عن أنه كان يتكلم عن نفسية؛ وحتما هي المقصودة؛ لأنه في السياق نفسه ذكر أنها أرملة على بك، كما ذكر أن مراد بك تزوجها، وهذان الخبران كافيان للجزم أنه يقصد نفيسة؛ فلم يخلف علي بك أرملة تزوجها مراد بك سوى نفيسة، ولم يكن من بين حريم علي بك أرملة تزوجها مراد ولها مكانة مرموقة لديه ولدي بكوات المماليك، سوى نفيسة أيضا. والذي يؤكد أن بروان كان يقصد نفيسة ما ذكره في سياق آخر نصا:

Murad Bey is married to the widow of his master, the daughter of the celebrated Ali Beyed(155)

الترجمة : مراد بك متزوج من أرملة سيده، ابنة علي بك الشهير(!)

ومرة أخرى يخلط بروان معلومة صحيحة بأخرى خاطئةٍ كاذبةٍ، فالصحيح أن مراد تزوج بأرملة علي بك، والخاطئ والكاذب فيما ذكره بروان أنها كانت ابنة علي بك؛ فكيف يمكن تفسير هذا الخطأ الذي وقع فيه بروان؟ كيف تكون نفيسة أرملة علي بك وابنته في وقت واحد؟ والراجح أن بروان يعلم أن المسلمين لا يتزوجون بناتهم! ويمكن تفسير ذلك بأنه سمع عن نفيسة من المترجِم المصاحب له، وحتما كان المترجِم يعلم أن نفيسة كانت مستولدة علي بك ولما مات غدت أرملته، ولكنه ربما أخطأ في الترجمة له حين لم يحسن التعبير عن معنى (مستولدة) ولم يستطع أن ينقل إليه بدقة حقيقة المصطلح، وأنه يعني أنها المرأة التي وَلَدَتْ لسيدها أو زوجها. أو لعل الخطأ لم يأت من قبل

155 - Ibid, p.91 .

المترجم بل أتى من بروان نفسه الذي فهم خطأ أن مصطلح (مستولدة) معناه (مولودة) أي ابنة؛ ومن ثم أتى الخطأ في التعبير عندما كتب عنها؛ فبدلا من أن يقول إنها مستولدة علي بك قال إنها مولودة علي بك.

وقد أصاب (محمد رفعت رمضان) في دراسته عن علي بك الكبير حين ذهب إلى أن بروان كان يقصد نفيسة في هذا النص، وحكم بخطأ بروان في زعمه أنها ابنة علي بك الكبير[156]. لكنه تغافل أن بروان أطلق على تلك المرأة اسم فاطمة وليس نفيسة ولم يدل بدلوه في محاولة تفسير ذلك. ولعل خطأ بروان في ذكره نفيسة باسم فاطمة مرده الخلط بين زوجتين لمراد بك أولاهما أرملة صالح بك الكبير والأخرى أرملة علي بك الكبير وكلاهما كانتا أرملتين لأميرين كبيرين وتزوجتا من أمير واحد وصارتا ضرتين؛ وسمع بذلك بروان من مترجميه ولدى تسجيله تلك الأخبار اختلط عليه الأمر؛ فسمى هذه باسم تلك.

ومن المعلوم أن براون درس العربية ولكن يبدو أن هذه الدراسة لم تكن كافية لحسن فهم العربية ودقة التعبير عن مصطلحات شديدة الخصوصية مثل مولودة ومستولدة؟ وله عذره في ذلك؛ فكيف برجل غير عربي يفهم بسهولة ويميز بين (مولودة) وأنها تعني: ابنة الرجل، وبين (مستولدة) وأنها تعني: المرأة التي ولدت للرجل مولودا وقد تكون جارية أو زوجة. وبمعنى آخر أنَّى له أن يفهم أن المولودة هي البنت وأن المستولدة هي الزوجة أو الجارية التي ولدت مولودا لزوجها أو لسيدها!

وعلى الرغم مِن أن مَن يطالع كتاب بروان يجده مصيبا في أشياء كثيرة تشير بجلاء إلى أنه كان مستوعبا وملما بالعديد من الحوادث؛ فعلى سبيل المثال: ذكر أن مراد بك كان مملوكا لمحمد بك أبوالذهب، وأن مراد بك هو الذي قاد مفرزة من المماليك قاتلت علي بك، وأنها هي التي هزمته، وأنه توفي بعد ذلك بوقت قصير؛ إلخ...[157]. ولكن حينما تكلم عن زواج مراد بنفيسة خلط على نحو ما سبق.

156- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق، ص 208.

157 -Browne, W. G.: op. cit, p.91 .

وقد علق عبد الرحمن الرافعي على مثل هذا الخلط الذي يقع فيه الرحالة الأوربيون قائلا: إن "أقوال الإفرنج الذين ساحوا في مصر في فترات مختلفة؛ هؤلاء لا يمكن التعويل على أقوالهم؛ لأنهم لم يدرسوا الوسط الذي كتبوا عنه، وأغلب كتاباتهم مبنية على المشاهدات الفجة، والآراء السطحية، والروايات التي يتلقطونها من أفواه التراجمة، ولذلك ترى كتبهم مملوءة بالأغلاط والسخافات، ولا يصح أن يُقام لها وزن بجانب كتاب الجبرتي الذي نشأ وقضى حياته في مصر[158]. وقد أجاد الرافعي وأصاب.

منشآت نفيسة الخيرية:

وتشير الدلائل إلى أن نفيسة نجحت في جذب قلوب عامة الناس وخاصتهم إليها بما اشتهرت به من البر والإحسان، وحظيت بثناء الجبرتي عليها قائلا: "كانت من الخيّرات ولها على الفقراء بر وإحسان"[159]؛ حيث كانت تتبرع بإعانات شهرية لكثير من العائلات التي أخني عليها الدهر، واستمرت تؤدي هذه الإعانات حتى في أيام محنتها[160] ؛ حيث كانت تسعى في إكرام فقراء القاهرة ووصلهم بإحسانها؛ حيث كانت تعرف مواطنهم[161]. فحُق للجبرتي أن يصفها بـ"الست نفيسة الشهيرة الذكر بالخير"[162]. وكان لها أدوار مشهودة في رفع المظالم ورعاية الضعفاء؛ وحماية من اتصل بها من أفراد الشعب؛ فعظمت مكانتها بين فئات الشعب[163]. وقد وقعت قبل قدوم الحملة الفرنسية بأحد عشر عاما واقعة تبين كيف كانت نفيسة مأوى لذوي الحاجات وإغاثة الملهوف؛ ذكرها الجبرتي في حوادث شهر رجب 1202هـ 1787م، حين قَتَلَ حمزة كاشف المعروف بالدويدار رجلًا، لاتهامه بارتكاب الفاحشة مع امرأته وبعد أن قتله طلق تلك المرأة، ولم يكتف بذلك بل أراد قتلها هي أيضا؛ فلم تجد مأوى لها سوى

158- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ج1، المرجع السابق، ص 440.
159- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج7، المصدر السابق، ص 461.
160- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص269.
161- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص99.
162- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج5، المصدر السابق، ص270.
163- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص205. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص269.

نفيسة؛ فهربت عندها ولاذت بها[164]. وهذا يدعم ما سبقت الإشارة إليه من أنها كانت ملاذا آمنا للخائفين، وهذا أمر لافت جدا؛ إذ قد يكون مألوفا أن يلجأ ذوو الحاجات المذعورون الذين يطلبون النجدة والحماية إلى رجل من ذوي البأس أو النفوذ أو السلطة أو المكانة المرموقة كالعلماء، أما أن تبرز نفيسة كملاذ آمن؛ فهذا شيء جدير بالتأمل لأنه يشير بجلاء إلى ما كانت عليه من مكانة مرموقة تزاحم بها عظماء الرجال في المجتمع المصري آنذاك والدور المهم الذي باتت تقوم به في حياة القاهريين! وهو ما تكرر مرارا في حوادث لاحقة.

هذا، وقد سرت شهرة نفيسة إلى الأوساط الأوروبية؛ إذ عرف عنها الميل إلى تنشيط التجارة والصناعة، ومعارضة أمراء المماليك في سلب أموال التجار، ومما يؤثر عنها أنها كانت تعارض زوجها مراد بك حين كان له مطلق السلطان في مصر في مصادرة تجارة التجارة الأوربيين وإرهاقهم بالضرائب والمغارم[165]. وفي هذا إشارة إلى قوة شخصيتها وبعد نظرها وجنوحها إلى الاعتدال والبعد عن الشطط والجور. ولم يؤثر أنها وقفت مثل هذا الموقف الناقد إزاء علي بك الكبير للتباين الكبير بين الزوجين على نحو ما سبق الذكر من وصف الجبرتي لكليهما.

وقد ضرب الجبرتي أمثلة لما قامت به نفيسة من المنشآت الخيرية؛ فقال: "ولها من المآثر: الخان[166] الجديد، والصهريج، داخل باب زويلة[167] بالقاهرة[168]، وتفصيل

164- عبد الرحمن الجبرتي: ج3، المصدر السابق، ص354.

165- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ج1، المرجع السابق، ص269. ومحمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص167.

166- خان: كلمة فارسية تعني النُّزُل أو الفندق، وهو عبارة عن مبنى كبير يأوى إليه المسافرون والتجار، وكان للخان فناء تربط فيه دواب المسافرين والتجار، وفى الدور الأرضى من الخان غرف مفتوحة تودع فيها السلع المعروضة للبيع، وأخرى على الشارع الخارجي، تؤجر كحوانيت للتجار، تعلوها غرف للسكن. حسن حلاق وعباس صباغ: المرجع السابق، 1999م، ص80. وعبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس، للجبرتي، المرجع السابق، ص ص 22، 23.

167- باب زويلة: أحد أبواب القاهرة القديمة في سورها القبلي، أنشاه أمير الجيوش بدر الدين الجمالي في ٤٨٥ هـ/1092م.عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس، المرجع السابق،ص 129.

168- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج7، المصدر السابق، ص 461.

ذلك أنه قبل قدوم الحملة الفرنسية وفي عامي 1796-1797م، وظفت جزءا من ثروتها الطائلة في إنشاء عدد المنشآت الخيرية لخدمة عامة المصريين؛ فقامت بالآتي:

أولا: إنشاء حمامين عموميين يستغل ريعهما لأوجه الخير.

ثانيا: إنشاء مكتب (كُتَّاب) لتعليم الأطفال، خاصة الأيتام، وتوزيع الغذاء والكساء عليهم من ريع الأوقاف والرزق المحبوسة[169] على المكتب، وكان يُخَصص للمكتب مؤدب يساعده عريف، ويقوم كلاهما بتعليم الصغار وتحفيظ القرآن الكريم، وكان يشترط فيهما شروط خلقية وعلمية[170]. وكان الكُتَّاب آنذاك بمثابة مدرسة أولية لأطفال الحي. وكان يتكون من شرفة مطلة على شارع المعز، تمتع بتصميم معماري متميز تجلت فيه روح العمارة والفن في العصر العثماني الذي انعكس بروعته على تصميمات المساجد والوكالات والأسبلة والكتاتيب التي أنشئت في ذلك العصر[171].

169- الرزق المحبوسة أو الأحباسية: أراضي تم تحوليها إلى "أحباس" والأحباس: هي الملك الموقوف على الأعمال الخيرية. هيلين آن ريفلين: المرجع السابق، ص ص425، 428.

170- زينب أبو المجد: أوقاف النساء المرأة، المعرفة، السلطة، مجلة المرأة والحضارة، العدد الأول، القاهرة، ربيع 2000م، ص25.

171- طارق بدراوي: المرجع السابق.

صورة من داخل كتاب نفيسة في الطابق الثاني فوق السبيل (تصوير الباحث)

ثالثا: بناء سبيل وصهريج في مواجهة جامع المؤيد خلف باب زويلة؛ لتأمين احتياج الناس من ماء الشرب المجلوب من النيل للمارة وعابرى السبيل؛ لأكبر تجمع عمراني بالقاهرة –آنذاك– وهو حي الغورية. وكان السبيل في الطابق الأرضي ويعلوه الكُتّاب في الطابق الأعلى منه. وكان بالسبيل نوافذ مغطاة بقضبان مزخرفة جميلة تربط بها أكواب الشرب بسلاسل، وكان العاملون بالسبيل يملؤون الأكواب من أحواض رخامية ويسلمونها للناس في الخارج، وكان الماء في الأسبلة عادة يأتي من صهريج تحت الأرض مُلىء بماء النيل الذي كانت تجلبه الإبل، ويختلف سبيل نفيسة هذا

في أن صهريجه لا يوجد أسفله وإنما أسفل مبني مجاور، كما كان هـذا السـبيل يعـد أنموذجا ممتازا للطراز المعماري العثماني في أواخر عهده بالقاهرة. وعلي الرغم مـن مساحة السبيل الصغيرة إلا أنه يعد مصدرا تاريخيا وشاهدا في الوقت نفسه على التطور المعماري في مصر؛ حيث يبدو فيه التناسق المعماري الملحوظ ودقة التنفيذ فـي نحـت الأحجار والزخرفة على البرونز والخشب[172].

سبيل وكتاب نفيسة ويلاحظ السبيل في الطابق الأرضي ويعلوه الكتاب (تصوير الباحث)

[172]- زينب أبو المجد: المرجع السابق، ص25. وطارق بدراوي: المرجع السابق.

رابعا: إنشاء وكالة[173] تجارية[174] ملاصقة للسبيل والكتاب، وكانت معدة لبيع الأقمشة وغيرها، وكانت تحتوي على عدد كبير من الحوانيت تؤجَّر، ويخصص ما تدره من إيجار للإنفاق على السبيل والكُتّاب وكان لوكالتها وسبيلها دور عمراني كبير[175].

مدخل وكالة نفيسة البيضاء (تصوير الباحث)

173- الوكالة: مبني كبير يتكون من عدة طوابق قد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة، وفي الطابق الأرضي من الوكالة حواصل يخزن فيها التجار بضاعتهم، ومحلات عديدة يعرض فيها التجار بضائعهم التي يرغبون في بيعها، والطوابق الأعلى لسكن التجار وتخزين السلع. عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس، للجبرتي، المرجع السابق، ص ص 22، 124.

174- كانت كثرة الوكالات التجارية في القاهرة مما لفت نظر المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية في رسالته عن تخطيط القاهرة، ووفرة الغلال التي كانت تكدس على ساحل النيل دون حراسة، وكان مما قاله جومار بهذا الصدد: إن الثقة بين الناس في مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن هناك خوف من أن تمتد يدٌ إلى تلك الغلال. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص 61.

175- زينب أبو المجد: المرجع السابق، ص ص 25،26.

خامسا: إنشاء رَبْع[176] فوق الوكالة والحمامين[177]؛ لإسكان الفقراء بثمن رمزي زهيد. وقد عرِفَت هذه المجموعة باسم السكرية[178].

صورة من داخل سبيل نفيسة البيضاء (تصوير الباحث)

176- الرَّبع: الدار، أو ما حول الدار، أو الحي، وهي هنا: مساكن مبنية فوق الحوانيت والدكاكين. المعجم الوسيط: ج1، المرجع السابق، ص 336. ومحمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص 100.

177- الحمامات: كانت عامة، يقصدها الناس للاغتسال فيها، نظير أجر معين، يدفعه الشخص الذي يرغب في الاستحمام، وكان للسيدات حمامات خاصة بهن، أو لهن أيام معلومة في الحمامات غير المخصصة. عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس، للجبرتي، المرجع السابق، ص 124.

178- وهي المنطقة نفسها التي تحدث عنها الأديب نجيب محفوظ (1911-2006م) في ثلاثيته الروائية الشهيرة (بين القصرين)، و(قصر الشوق)، و(السكرية) طارق بدراوي: المرجع السابق.

ومن الملاحظ أن نفيسة قد اختارت بعنايةٍ موقع السبيل والكُتَّاب اللذين أنشأتهما في مبنى من طابقين؛ حيث إنهما يقعان قريبا من الطرف الجنوبي لشارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار باب زويلة أحد أهم أبواب القاهرة، والذى يعد من أهم المَعالم التاريخية بها، كما أن هذه المنطقة ظلت منطقة تجارية مهمة لعدة قرون متتالية، ومما زاد من أهمية موقع السبيل والكُتَّاب أنهما أقيما على الشارع الرئيس الذى يقع بالقرب من باب زويلة، ومما يلفت الانتباه في هذا المبني زخارف الجزء العلوي؛ حيث إنها تشبه نهدى امرأة، وقد أراد الفنان أن يعبر عن التشابه بين عطاء الأم من ثدييها: الحنان والحياة، لطفلها؛ وبين عطاء السبيل: الماء –مصدر الحياة– لورديه[179]، ويوجد على واجهة السبيل نقشت أبيات شعرية تمتدح صاحبة السبيل نصها في الصورة المرفقة يقول:

سبيلُ سعادةٍ ومرادُ عزٍ . × . . × . . × . وإقبالٌ لمحسنةٍ رئيسه
يسرك منظرٌ وصنعٌ بديعٌ .×..×. .×. وتعجبُ من محاسنه الأنيسه
جرى سلساله عذبٌ فراتٌ .×. .×. .×. فكم أحيت به مُهجًا بئيسه
نؤرخه سبيلُ هديً وحسنٌ .×. .×. .×. لوجه اللهِ ما صنعتْ نفيسه

[179]- بمرور الزمن تراجعت أهمية السبيل والكُتَّاب، وأصابهما العطب؛ فأوشك على الانهيار، وفي عام 1995م تضافرت جهود مركز البحوث الأمريكي في مصر بالتعاون مع المجلس الأعلى للآثار لتنفيذ مشروع للحفاظ عليه، والذى أثارت دقة وإتقان عملية نحت الأحجار والزخرفة به إعجاب المرممين الأمريكيين؛ فوضعوه على قائمة ترميم المباني الأثرية. واستغرق الترميم نحو ثلاث سنوات، وافتتح رسمياً في 29 مارس 2005م. طارق بدراوي: المرجع السابق.

لوحة منقوشة على سبيل نفيسة بها الأبيات الشعرية التي سبق ذكرها (تصوير الباحث)

وقد تركت نفيسة لهذا السبيل من الأوقاف ما يكفى لقيامه بوظيفته، كانت قد أوقفتها قبل مصادرة أملاكها من قبل محمد علي باشا، وكان آخر ناظر لهذه الأوقاف – كما يقول على باشا مبارك– هو محمد أفندي سليم[180].

180- طارق بدراوي: المرجع السابق.

(2)
نفيسة والحملة الفرنسية على مصر

نفيسة والفرنسيون قبل الحملة:

تشير الدلائل إلى أن علاقة نفيسة بالفرنسيين وحكوماتهم بدأت قبل أن تهبط حملة بونابرت أرض مصر بسنوات عديدة، ويمكن أن نمسك بطرف خيط بدء هذه العلاقة حينما استقر في مصر تاجر فرنسي ماهر هو شارل ماجللون Charles Magallonفى عام 1771م، وقد كان يعمل لحسابه الخاص، هو وزوجته التي كانت أرملة تاجر بندقي، وتعمل بتجارة الأقمشة؛ الأمر الذي كان يتيح لها الاتصال بصفوة النسوة من المماليك، وعلى رأسهن نفيسة، ومن ثم بدأت العلاقة التي تطورت إلى صداقة وثيقة العرى بين السيدتين، كما استطاع مجاللون أن يكسب ثقة مراد، ولهذا الوضع المميز لزوجة ماجللون، تم إعفاؤه من الحظر الذي كان مفروضا من جانب السلطات الفرنسية على تجار الثغور الفرنسيين الذي كان يُحرِّمُ عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم! وكان من ثمار هذه الصداقة أنه حينما كان يشكو التجار الفرنسيون من المغارم والإتاوات التي فرضها بكوات المماليك عليهم، أو تَعَرُّض تجارتهم للنهب والمصادرة جراء تعديات المماليك عليهم[181] كانت زوجة ماجللون هذه تطلب بصورة منتظمة من نفيسة التدخل لتخفيف تلك التعديات وكانت تنجح في أغلب الأحيان. واللافت هنا أن (جان بابتيست مور)[182] Jean Bapteste Mure القنصل الفرنسي

181- كانت تعديات المماليك على التجار الفرنسيين حقيقة لا ريب فيها وقد صرح بذلك الجبرتي لدى ترجمته لإبراهيم بك حين ذكر أن من مثالبه أنه تغافل عن شرور مماليكه؛ فتمادوا في غيهم وامتدت إيديهم لأموال التجار الفرنسيين وغيرهم دون ثمن. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج7، ص 459.

182- جان بابتيست مور: كان من الساسة الفرنسيين الذين كانوا يعتقدون قرب انهيار الدولة العثمانية ويتوقع أن تقتسم روسيا والنمسا ممتلكاتها فيما بينهما وكان يخشى أن تبادر النمسا باحتلال مصر؛ فكتب تقارير إلى حكومة بلاده يحثها على احتلال مصر، شرح فيها مقدار ما ستجنيه من فوائد جمة من خلال استغلال موقع مصر المتميز وموادرها. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين. المرجع السابق، ص ص 42-45.

في القاهرة حينئذ كان يقف عاجزا أمام هذه التعديات بينما ينجح ماجللون وزوجته من خلال الست نفيسة في تخفيفها! وحينما اضطر الفرنسيون إلى نقل مركز تجارتهم وقنصليتهم من القاهرة فى عام 1777م؛ لانعدام الأمن المهيمن عليها إلى الإسكندرية، بعيدين عن مسرح الاضطرابات والفتن؛ عهدت الحكومة الفرنسية إلى ماجللون في ذلك العام بالإشراف على مصالح الفرنسيين في القاهرة[183].

ويبدو بجلاء أن العلاقة بين نفيسة وزوجة ماجللون استمرت وتوطدت؛ فزاد ذلك من دور ماجللون ومن ورائه زوجته، في تحسين علاقة فرنسا بحكومة بكوات المماليك، وقد تجلى ذلك في عام 1785م حينما أفلحت وساطة مجالون في توقيع ثلاث معاهدات تسمح للفرنسيين بالملاحة في البحر الأحمر، وتحديد قيمة الضريبة المحصلة على البضائع الفرنسية المصدرة من الهند إلى فرنسا أثناء نقلها عبر برزخ السويس، وتأمين هذه البضائع من اعتداءات العربان عليها في الطريق من السويس إلى القاهرة. وقد كان لماجللون دور مهم في توقيع هذه المعاهدة[184]؛ فقد كانت قوة المماليك تكمن في تحالفهم مع التجار المصريين والأجانب[185]. بيد أن الفرنسيين لم يفيدوا شيئاً من عقد هذه المعاهدة لاستمرار الاضطرابات والفتن في البلاد، بل سرعان ما رفعوا عقيرتهم بالشكوى من فداحة المغارم والإتاوات التي ألزمهم مراد بك وإبراهيم بك، كما ألزما سائر التجار الأجانب بدفعها؛ ففي عام 1786م زار مراد بك الإسكندرية، وزادت التعديات المفروضة على الفرنسيين؛ فطلب القناصل عون سفاراتهم في إسلامبول. وفي هذه الأزمة ظهر من جديد دور نفيسة حين تواصلت زوجة ماجللون معها لكي تتدخل لدى زوجها مراد بك وتنجح نفيسة بنفوذها مجددا في وضع حد لتلك التعديات[186]!

183- هنري لورنس الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ص ص112 ،113. ومحمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص38،39.

184- هنري لورانس: المرجع السابق، ص ص112 ،113. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، المرجع السابق، ص 39.

185- بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993م، ص38.

186- هنري لورانس: المرجع السابق، ص ص112 ،113. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص39.

حدث ذلك في وقت لم يكن في استطاعة الحكومة الفرنسية أن تقدم لأولئك التجار أي معونة تذكر[187].

ولما جاءت الحملة الفرنسية سنة 1798م ووصلت العاصمة أخبار احتلال الإسكندرية وجمع ابراهيم بك ومراد بك المشايخ للتشاور في الأمر كان السيد السادات ضمن المجتمعين، فوبخ الأمراء على سوء سياستهم وقال لهم: "إن كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للإفرنج، وخص مراد بك بالتوبيخ قائلا له: "وخصوصاً بأفعالك وتعديك أنت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم"[188]. ويبدو من هذا صدق ما وصف به الجبرتي مراد بك من أنه كان "غشوما متهورا مختالا معجبا متكبرا"[189]. ولكن رزانة وحكمة زوجته نفيسة كانت تسعى لتدراك هذا النزق وكانت تنجح أحيانا، وقد ساعدت ثقته بها ومكانتها لديه في ذلك؛ لأنه كان يقبل شفاعتها وتدخلها.

هذا، وقد ظلت نفيسة همزة وصل بين حكومة بكوات المماليك والحكومة الفرنسية الممثلة في قنصلها العام في مصر (مور) من خلال صلتها بماجللون على نحو لافت، ومن دلائل ذلك أنه في يوليو 1786م حينما هبطت حملة عثمانية بقيادة حسن باشا الجزايرلى[190]. في رشيد، واعتقدت حكومة البكوات (مراد بك وإبراهيم بك) أن شكاوى التجار الفرنسيين كانت وراء هذا التدخل العثماني؛ فطلب البكوات من ماجللون عبر الست نفيسة التدخل لدى (مور) قنصل فرنسا حتى يتم التوصل إلى وقف الحملة

187- ج. كرستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص 21.

188- عبد الرحمن الرافعي: ج2، المرجع السابق، ص 238.

189- عبد الرحمن الجبرتي: المصدر السابق، ج5، ص146.

190- في مايو 1786م أرسل الباب العالى حملة بقيادة القبطان حسن باشا؛ لاستعادة مصر للسيطرة العثمانية، وتخليصها من إبراهيم بك ومراد بك، اللذين امتنعا عن إرسال الجزية إلى إسلامبول. وكاد النصر يتم له عندما انهزم مراد ودخل العثمانيون القاهرة في أغسطس 1786م، وفر المماليك إلى الصعيد الذي لم يستطع حسن باشا إخضاعه، وبادرت إسلامبول باستدعائه عندما نشبت الحرب بينها وبين روسيا في سبتمبر 1787م ؛ فاستعاد البكوات سلطانهم فى القاهرة، وظلت الأحوال تسير من سيء إلى أسوأ. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص35، 36.

العثمانية[191]! ولا ريب في أن قيام نفيسة بهذه الأدوار مؤشر على ما كانت تتمتع به من حضور وذكاء، وسعة حيلة، ونفوذ؛ أتاح لها أن تكون همزة وصل بين الفرنسيين والمماليك على هذا النحو.

وفي 1789م انفجرت الثورة الفرنسية، وأطاحت بالملكية، واستمر التجار الفرنسيون في مصر، في رفع شكاواهم إلى حكومة الثورة، يصورون فيها سوء معاملة البكوات المماليك لهم[192]. وفي عام 1793م أعادت فرنسا افتتاح القنصلية الفرنسية في القاهرة[193]، ويُعَدُّ هذا من علامات اهتمام فرنسا بمصر في العقد الأخير من القرن الثامن عشر[194]. وعينت شارل ماجللون قنصلاً عاماً لفرنسا في مصر منذ أوائل عام 1793م؛ إذ كان ماجللون واسع الخبرة بالشئون المصرية؛ حيث عمل هو وزوجته بالتجارة في مصر لأكثر من عقدين من الزمان على نحو ما سبق ذكره[195]. واستمر بكوات المماليك سادرين في غيهم؛ فقد أرغم إبراهيم بك التجار الفرنسيين على دفع أربعة عشر ألف ريال أسبانى (أبوطاقة)[196] في أبريل 1794م، واستولى مراد بك على قدر كبير من البضائع، وتعرضت مخازن التجار للنهب والسلب، حتى اضطر التجار الفرنسيون إلى إغلاق بيوتهم التجارية في القاهرة، والانسحاب إلى الإسكندرية، فبلغها كثير منهم فى أبريل 1795م[197].

191- هنري لورانس: المرجع السابق، ص114.

192- عبد الرحيم عبد الرحمن: تحقيق تاريخ مدة الفرنسيس، للجبرتي، المرجع السابق، ص9.

193- كان لفرنسا قبل ذلك قنصليتان في الإسكندرية ورشيد، فضلا عن القنصلية العامة في القاهرة. ج. كرستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص 21.

194- أحمد عزت عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016م، ص315.

195- عبد الرحيم عبد الرحمن: تحقيق تاريخ مدة الفرنسيس، المرجع السابق، ص ص9، 10.

196- ريال أسبانى (أبو طاقة): وحدة نقد أول ما شاع منها ريال سانت تريزا الفضي. وريال أبو طاقة: (باتاكا) Patataque أو (باتاكه) كلمة فرنسية وهي تحوير لمصطلح أبو طاقة هو مصطلح مصرى، وهي عملة تساوى 90 بارة أو نصف فضة. دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص ص 415، 419. وحسن حلاق وعباس صباغ: المرجع السابق، ص 104.

197- بيتر جران: المرجع السابق، ص36. ومحمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 39.

ومما يجدر ذكره أنه في تلك الأثناء حينما شغل ماجللون منصب القنصل العام لفرنسا في مصر قامت نفيسة بدورها المعتاد في محاولة لجم تعديات المماليك ورعاية التجار الفرنسيين؛ فقدرت لها الحكومة الفرنسية هذا الجميل؛ وبلغ من تقديرها لهذا الدور الذي قامت به نفيسة في حماية الفرنسيين وتجارتهم في مصر مبلغا كبيرا؛ فأعربت لها عن شكرها بإهدائها ساعة ذهبية مرصعة بالألماس تقديرا لها ولخدماتها الجليلة ورعاتيها للتجار الفرنسيين، وكان الذي قدم لها تلك الهدية باسم الجمهورية الفرنسية هو القنصل ماجاللون[198]! وفي الوقت نفسه أخذ (ماجاللون) يرسل إلى وزراة الخارجية الفرنسية التقارير والمذكرات شارحا فيها عبث بكوات المماليك بمصالح التجار الفرنسيين في مصر، وأنَّ هذا العبث لن يزول إلا إذا استعملت الجمهورية الفرنسية القوة مع هؤلاء البكوات، ورغّب حكومة بلاده في احتلال مصر، وأنها ستحصل على الكثير من المزايا السياسية والاقتصادية، وظلت فكرة احتلال مصر تستولى على ذهن ماجللون[199]؛ فكتب في 1795م يقول: "وأما إذا شاءت حكومة الجمهورية أن تولى شؤون التجارة اهتماماً جدياً، وأرادت أن تجنى من هذه التجارة كل فائدة ممكنة، فلا مناص في هذه الحالة من أن تمتلك مصر، ومصر كلها...»[200].

وسافر إلى فرنسا وبلغ باريس في أكتوبر 1797م، وأخذ يحض رجال الدولة على تحقيق هذا المشروع، موضحاً لهم سهولة تنفيذه، وفي 9 فبراير 1798م قدم تقريراً جديداً في هذا الصدد إلى حكومة الإدراة؛ والتقى معه في الرأى نفسه وزير الخارجية تاليران (1754–1838م) Talleyrand[201]. الذي تقدم إلى حكومة الإدارة

198- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق ص86. وهنري لورنس: المرجع السابق، ص 156.

199- عبد الرحيم عبد الرحمن: تحقيق تاريخ مدة الفرنسيس، المرجع السابق، ص ص9، 10.

200- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وجلاء الفرنسيين عن مصر، المرجع السابق، ص 41.

201- تاليران: سياسي وأسقف فرنسي، وحين قامت الثورة الفرنسية هاجر إلى إنجلترا ثم إلى الولايات المتحدة؛ ثم عاد إلى فرنسا في يونيو 1796م، وانضم إلى هيئة المجمع العلمي الفرنسي، وألقى فيها بحثا في عام 1797م يحث على احتلال مصر. وفي العام نفسه عُين وزيرا للخارجية في حكومة الإدارة، ثم ساعد نابليون في انقلاب 18 بروميير 1799م وإنشاء حكومة القنصلية؛ فأصبح وزيرا للخارجية مرة ثانية من 1799م حتى 1807م، وبعد أن مثل فرنسا في مؤتمر فيينا (1814-1815م) اعتزل السياسة. كاترين وجيه: موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية على مصر،

الفرنسيه بتقارير يحضها فيه على تنفيذ مشروع غزو مصر واستخدم تاليران استنتاجات ماجللون التي رددها في تقاريره وهي أن احتلال مصر خطوة مهمة للتدخل في الهند وطرد الإنجليز منها في مذكرة عرضها على حكومته في 14 فبراير 1798م قال فيها: "إن مصر التي أضعفتها الفوضى يمكن احتلالها بسهولة دون إضرار بمصالح السلطان، وأن الشعب المصري سينظر إلينا بابتهاج"! وكان لاتفاق تاليران وماجاللون أثره؛ فاستجابت له حكومة الإدارة وقررت تنفيذ المشروع. وتجدر الإشارة إلى أن آراء (ماجللون) قد التقت أيضا مع رأي بونابرت **Bonaparte** الذي كان يرى أَنَّ غزو مصر لا يقل أهمية وأثراً عن مشروع غزو بريطانيا الذي كانت تفكر فيه الحكومة الفرنسية والرأى العام الفرنسي[202]. وحين قدمت الحملة إلى مصر جاء معها[203]؛ حيث كان على ظهر السفينة لوريان[204]. والمثير للانتباه ذاك الوصف الدقيق الذي عبر به الجبرتي حينما تكلم عن ماجللون هذا قائلا: "مجلون رأس كل خطية"[205]. وكأنه كان مطلعا على ما يضمره من تحريض على غزو مصر!

نفيسة إبَّان قيادة بونابرت للحملة:

حين هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر 1798م كانت شخصية نفيسة قد بلغت ذروة النضج والتألق والنفوذ والشهرة؛ فلا غرو أن تكون تحت الضوء وفي بؤرة الأحداث، ومن ثم كانت مؤهلة للقيام بأدوار عديدة على درجة من الأهمية والخطورة؛

المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عدد 51، 2017م، ص251. ومحمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص53-55.

202- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص 68-76. وبيتر جران: المرجع السابق، ص 36، 37.

203- وما يجدر لفت الانتباه إليه أن شارل ماجاللون حين كان في إجازة في فرنسا، خلفه في القيام بعمل القنصل في الإسكندرية ابن أخيه الذي لقب بماجللون الصغير، وهو الذي حملته سفينة في أول يوليو 1798م إلى بونابرت فأخبره بحالة الهياج الذي عم الأهالي مذ علموا باقتراب الأسطول، وأن كثيراً من سكان المدينة مسلحون يستعدون للدفاع، كما أخبره بقدوم أسطول نلسون وإقلاعه. فرانسوا فوريه وديني ريشيه: الثورة الفرنسية، ترجمة: زياد العودة، ج2، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012م، ص193. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص168. ومحمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص86.

204- ج كريستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص69.

205- عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ مدة الفرنسيس، المصدر السابق، ص88.

كشفت النقاب عن ملكاتها وقدراتها؛ فكيف قادت نفيسة سفينة حياتها في خضم هذا المحيط المضطرب العاصف بالحوادث الجسام؟ فليس ثمة أفضل من المحن لاختبار معدن الإنسان وصلابته وسعة حيلته.

يصور الجبرتي حالة الهلع التي استولت على الناس –ومنهم نفيسة بطبيعة الحال– في القاهرة عقب بلوغهم خبر دخول الفرنسيين الإسكندرية ثم هزيمة مراد قرب شبراخيت في 13 يوليو 1798م، وما تلا ذلك من شروع الأمراء في نقل أمتعتهم من قصورهم المعروفة إلى أماكن غير معروفة وفزع سكان القاهرة، وشروع الأغنياء في الهروب ولولا أن صدهم الأمراء "لما بقي بمصر منهم أحد". وبعد هزيمة مراد بك في معركة إمبابة ساد القاهرة جو من الهلع والرعب الرهيب ولاذ أكثر الناس بالفرار، وأخذت النساء يصرخن بأعلى أصواتهن. وهرب إبراهيم بك ومن معه من الأمراء بحريمهم، وخرج أعيان الناس وأكابرهم ونقيب الأشراف (عمر مكرم)، وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد خوفهم، وتحركت عزايمهم للهروب، واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من القاهرة، وأقام بها كل مخاطر بنفسه لعجزه عن الحركة أو لقلة ذات يده وعدم امتلاكه نفقات حمل من يعول[206]، ومما زاد البلاء أنهم حين خرجوا من أبواب القاهرة، وتوسطوا الفلاة تلقاهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم وأحمالهم؛ وسلبوا ثياب النساء واعتدوا عليهن، وفيهم الخوندات[207] والأعيان، و"كانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين"[208]!

---

[206]- يقول الجبرتي: "بيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على راسه وزوجته حاملة طفلها، وخرج غالب النسا ماشيات حاسرات وأطفالهن على اكتافهن يبكين في ظلمة الليل". عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج4، المصدر السابق، ص 78-83

[207]- الخوندات: مفردها خوند، كلمة فارسية الأصل، وتعني السيد العظيم والأمير، واستعملت في العربية بمعني السيد أو السيدة، وهي هنا جمع بمعنى السيدات. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص ص 91، 92.

[208]- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج4، المصدر السابق، ص 78-83.

وفي صباح الأحد 21 يوليو 1798م، أوجس المقيمون خيفة مما سيحل بهم حين يدخل الفرنسيون، ورجع كثير من الفارين وهم في أسوأ حال من الفزع، فأرسل الفرنسيون يطمئنون الناس، وكتبوا إلى المشايخ بالأمان؛ فحضر مشايخ كالشيخ السادات والشرقاوى، ومن انضم إليهم. أما عمرمكرم نقيب الأشراف؛ فلم يطمئن ولم يرجع. وفي ذلك اليوم هجم الجعيدية وأوباش الناس على بيت كل من إبراهيم بك ومراد بك اللذين بخطة قوصون ونهبوهما وأحرقوهما، ونهبوا أيضا بيوت أمراء آخرين، وأخذوا ما فيها من متاع، وشروه بثمن بخس. وفي 23 يوليو 1798م دخل بونابرت القاهرة، واستولى على قصر محمد بك الألفى بالأزبكية –الحي نفسه الذي تقيم نفيسة فيه– وسكن فيه، واستولى على قصر زوجها مراد بك على رصيف الخشاب وسكن فيه القنصل ماجللون[209]. وفيما يخص الأمراء ونساءهم؛ فيذكر برتييه Berthier (1753–1815م) –رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية– أن إبراهيم بك استطاع أن ينقذ طاقمه وزوجاته ومماليكه وكنوزه[210] وأمواله ونفائسه، وقصد مع جماعته إلى بلبيس في طريقه إلى الشام، وقد صحبه أبو بكر باشا نائب السلطان في حكم مصر[211].

ومما يلاحظ فيما ذكره الجبرتي تلك الأجواء الرهيبة بعد هزيمة المماليك في إمبابة، وكيف فر الناس هائمين على وجوههم، ومن شدة هول الأحداث أخذ أمراء المماليك نساءهم وعلى رأسهم إبراهيم بك ولاذوا بالفرار، وما تعرضت له بيوت أمراء المماليك من سطو ونهب، بما فيها بيوت إبراهيم بك ومراد بك، وأنه في هذه الجو الرهيب لم تهرب نفيسة مع الهاربين من الأمراء وعلى رأسهم زوجها وزوجات الأمراء بمن فيهم ضرائرها! ولم يُنقل أن أحدا اقتحم قصرها محاولا نهبه كما نُهب غيره من بيوت الأمراء، بما فيهم بيت زوجها مراد نفسه في مكان آخر غير الذي تقيم فيه، ويبدو جليا أن مرد ذلك إلى مكانتها الرفيعة في النفوس، وإن عدم هروبها مرده إلى رباطة

209- نفسه، ص 78-86.

210 -Berthier, L.A.: Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie, Publisher Paris: Didot l'Aine, 1801, p. 28.

211- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 90.

جأشها وشجاعة قلبها، فهل كانت تتوقع ألا يصيبها الفرنسيون بأذى لأياديها البيضاء عليهم قبل قدوم جيشهم الغازي؟!

ومما يبرز تميز نفيسة وتفردها عن سائر نساء بكوات المماليك بما فيهن ضرائرها من زوجات مراد الأخريات أن نعلم أن فاطمة زوجة مراد بك الأولى قد فرت إلى خارج مصر مع الفارين صوب بلاد الشام؛ فلقد ذكر الجبرتي في حوادث شهر شعبان 1213هـ (يناير 1799م) أن رجلا جاء يحمل خطابا للشيخ البكري (الذي قلده بونابرت نقابة الأشراف بعد عمر مكرم) من "غزة يطلب أمانا للست فاطمة زوجة مراد بيك"[212]. كما يذكر الجبرتي في موضع آخر أنه في 23 يوليو 1801م حينما كان الصدر الأعظم بمصر عقب جلاء الفرنسيين عنها أرسل بعثة من "عدة هجانة إلى ناحية الشام لإحضار المحمل الشريف وحريمات الأمراء إلى مصر"[213]. وهذا من دلائل أن الكثير من نساء نخبة المماليك قد فررن من القاهرة ومنهن فاطمة زوجة مراد الأخرى.

ويُنقل عن نابليون أنه ذكر أنّ مراد بك قبل رحيله للصعيد، لم يترك حريمه، وخاصةً الست نفيسة إلاّ بعد ان تراءي له توافر الظروف والتدابير المؤمّنة لحياتهن Des dispositions pacifiques[214]. ومن الواضح أنه التقى نفيسة على عجل وصمم معها خطة عمل أثناء هروبه، وبقيت في القاهرة واستمرت في دعم زوجها الغائب. وكانت في الواقع بمثابة عين الصقر التي تراقب كل تحركات الفرنسيين وأخبارهم وتبلغه بها. ويمكن القول أنها أدت ببراعة عمل نظام استخبارات كامل؛ فكان عملاً شجاعًا للغاية وكان بمثابة مغامرة عالية المخاطر. بيد أن رباطة جأشها قد مكنتها من الارتقاء إلى مستوى الحدث الجلل الذي كان عليها مواجهته والتصرف فيه بقدر كبير من الثقة بالنفس[215].

212- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص139.
213- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج5، ص205.
214-ناصر سليمان: المرجع السابق، ص104.
215- مجلة علوم وفنون، دراسات وبحوث، جامعة حلوان، مج21،ع4، أكتوبر 2009م،
Kandil, Doaa Adel Mahmoud: "Exploring Women's Role in Eighteenth-Century Egypt: Nafisa al-Muradiyah and Her Ingenious ,"Feminine Experience, p15.

وهكذا؛ فعلى الرغم من فرار مراد بك إلى الصعيد؛ بقيت زوجته نفيسة في القاهرة؛ لتقوم بأدوار شتى؛ منها حماية نسوة المماليك، اللواتي كن يلذن بها، واستمرت في رعايتها للفقراء والمساكين، ومد يد المعونة لمن يقضي عليهم الفرنسيون بالمغارم والضرائب[216]. فلقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بوسائل شتى؛ ويبدو بجلاء أن الفرنسيين كانوا يعلمون أنه لدى نفيسة ثروة طائلة؛ حيث كان معلوما أن المماليك مولعين بوسائل الرفاهية ويعيشون عيشة مترفة جدا[217]؛ ولا ريب أنها كانت في صدراة الصفوة المملوكية؛ فلا غرو إذن أن كانت من أوائل المستهدفين حينما شكل بونابرت لجنة لتحديد قيمة الضريبة التي طلب من كل سيدة من زوجات المماليك أن تدفعها مقابل السماح لهن بالبقاء في القاهرة والاحتفاظ بمقتنيات أزوجهن بشكل (قانوني)[218]! يقول الجبرتي في ذلك ونادوا على نساء الأمراء بالأمان، وسمح لهن بالبقاء في بيوتهن، ولكنه طالبهن بتسليم ما لديهن من متاع أزواجهن، فإن لم يكن عندهن شيىء منه؛ فيجب عليهن أن (يصالحن على أنفسهن ويَأْمَنَّ في دورهن)؛ "فظهرت الست نفيسة زوجة مراد بك وصالحت عن نفسها وعن أتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرانسا"[219]، وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها[220]. وتصدر نفيسة المشهد دون غيرها من حريم الأمراء أو حتى حريم مراد الأخريات فيه دلالة على أن صدارتها كانت حقيقية وطبيعية وغير متكلفة ومستحقة بجدارة، حيث تواجه المواقف الصعبة والعصيبة بثبات؛ بل وتتحمل مسؤولية غيرها من نساء النخبة أو من عامة الشعب!

216- أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص 391،315.

217-Douin, G.: Le Carosse de Mohamed Bey, Bulletin de l'Institut de l'Egypte 8 (1926) p. 168

218- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 106.

219- ريال فرنسا أو ريال مشط: عملة نقد فضي، كان مستعملا في مصر في القرن 18 وأوائل 19 كعملة أجنبية، وكان سعره في ارتفاع دائم، وكان سعر صرفه في عام 1798م يعادل من 90 إلى 100 بارة، ووصل في عام 1816م إلى 360 بارة، ولم يكن عملة حقيقية بل وحدة حسابية. كينيث كونو: المرجع السابق، ص265. عبد الرحيم عبد الرحمن: حاشية تاريخ مدة الفرنسيس، المرجع السابق، ص66، 72.

220- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج4، المصدر السابق، ص 88.

ويتفق (أوين) Owen مع الجبرتي في ذلك قائلا: افتدت نفيسة زوج مراد نفسها بمبلغ 120.000 (مائة وعشرون ألف) ريال[221]. ولا ريب أن هذه مبالغ ضخمة، يقول ريبو: إن السيدة نفيسة زوجة مراد بك اضطرت وهي ساخطة لدفع حصتها في الغرامة الحربية أن تنزل عن حليها وجواهرها، ومنها تلك الساعة المرصعة بالجواهر التي أهداها لها القنصل ماجللون منذ عهد قريب باسم الجمهورية الفرنسية؛ فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجا شريفا منها[222]. وقدرت تلك الساعة بـــأربعة وعشرين ألف فرنك[223]. وقدم لها الفرنسيون بناء على طلب ماجللون أمانا عاما لها ولجميع أهل بيتها، وعددهم 56 سيدة أو فتاة، واثنان من الخصيان[224]. ويقول (فيلكس مانجن)Felix Mangin[225]: "قدمت الست نفيسة –كما كانوا يسمونها– الساعة التي أهدتها إياها الحكومة الفرنسية من حصتها في الغرامة، وقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك، وعملت عنها لوتريه loterie (يا نصيب)؛ فكانت من نصيب «بوسيلج»؛ فأعطاها لبونابرت الذي أهداها لخليلته[226] «بولين فوريس»[227] Pauline Fourès (1778–1869م). وهكذا في الوقت الذي لاذ فيه

221- Owen, R.: Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development, Oxford University Press, 1969, p. 17.

222- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص ص268 ،269.

223- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص 168.

224- هنري لورنس: المرجع السابق، ص 156، 190.

225- فيلكس مانجن: كان من أعضاء الديوان الكبير الذي أنشأه بونابرت في مصر، وكان من الفرنسيين الذين بقوا في مصر حين غادرتها حملتهم في 1801م، واشتغل بالتجارة فى القاهرة، وقد كلفه (ماثيو دلسبس) فى أكتوبر 1804م بالعمل في القاهرة وكيلا (للقوميسيرية العامة). شغل منصب نائب دروفتي القنصل الفرنسي العام في مصر، ويعد مانجن شاهد عيان على الحوادث التي دونها منذ جلاء الفرنسيين حتى عام 1838م، وكان صديقاً لمحمد على باشا. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر 1801-1811، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2010م، ص 537. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص 453.

226- أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص391.

227- بولين فوريس: كانت بولين زوجة الضابط الفرنسي فوريس، اندست بين جنود الحملة وهي متنكرة بزي رجل؛ إذ لم يكن مسموحا بصحبة النساء. شعر بونابرت بانجذاب نحوها؛ لجمالها؛ فسعى إلى فصلها عن زوجها؛ وأقام بونابرت علاقة معها، وصارت تعرف بكليوباترا. واكتشف فوريس خيانة زوجته؛ فطلقها، وأصبحت "خليلة رسمية" لبونابرت؛ تترأس حفلات عشائه ويسير ضباط أركانه في حاشيتها. وحينما غادر بونابرت مصر أمر كليبر بترحيلها إلى فرنسا؛

أمراء بالفرار يصطحبون نساءهم حاملين ما استطاعوا من أموال؛ بقيت نفيسة تواجه العاصفة بثبات باذلة من ثروتها الكثير مضطلعة بشهامة بمسؤوليتها عن خاصتها وعمن لاذ بها، في الوقت الذي تخلى فيه الكثير عمن يعولون لائذين بالفرار مولين الأدبار.

واللافت أن حسن صنيع نفيسة مع الفرنسيين قبل الحملة لم يشفع لها بعد أن احتلوا مصر؛ ففرضوا عليها من الإتاوات الباهظة ما لا يتماشى مع ادعاءاتهم بتقديرها والعرفان بفضلها عليهم قبل الحملة!

ويرى الباحث أن تلك الواقعة مع الست نفيسة تنفد الرأي السائد من أن بونابرت كان قد تذرع بشتى الوسائل لجمع الأموال بفرض الغرامات ومصادرة الأملاك وتحصيل الضرائب، أو بالتنظيمات الإدارية المستحدثة، بعد تحطم الأسطول الفرنسي في أبوقير البحرية الذي أرغم الفرنسيين إرغاما على الاعتماد في تدبير شئونهم وسد مطالبهم على موارد البلاد وثروتها، بعد انعدام كل رجاء في وصول الإمدادات إليهم من فرنسا، فوجدوا أنفسهم منساقين إلى ابتكار الوسائل التي تمكنهم من جمع المال فحسب دون تفكير فيما قد تؤدى إليه أساليبهم المالية[228] فإن هذه الحادثة وقعت قبل تحطم الأسطول الفرنسي في أبوقير، وهذا دليل على أن ابتزاز أموال المصريين كانت سياسة أصيلة لدى بونابرت منذ بداية الاحتلال لمصر ولكن زاد تدمير الأسطول من قسوتها وشدتها ولم ينشئها إنشاء.

وبعد دخول الفرنسيين القاهرة بشهرين وقعت حادثة مثيرة تتعلق بالمصاعب التي تعرض لها حريم بكوات المماليك الذين غادروا القاهرة، وكانت نفيسة طرفا فيها، مفادها أن (ديبوي) حاكم القاهرة أرسل في استدعاء زوجة عثمان بك الطنبورجي[229]،

رغبة منه في إثارة المشاكل بين بونابرت وزوجته في باريس. وحين عادت في سنة 1800م رفض نابليون لقاءها، وتوفيت في سنة 1869م عن تسعين عاماً. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص 149، 572. وكرستوفر هيبرت: المرأة في حياة بونابرت، ترجمة: عمر الأيوبي، كلمة، أبو ظبي، 2002م. ص123-133.

228- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 105.

229- عثمان بك الطنبورجي (أو الجخدار). بعد وفاة مراد بك استقر رأي البكوات على تنصيبه زعيما عليهم. واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأعرب للفرنسيين عن ولائه لهم لكنه نقض

واتهموا زوجته بإخفاء أسلحة بداخله؛ فهرعت مذعورة فورًا إلى نفيسة؛ فلاذت واحتمت بها في قصرها؛ فأرسل ديبوي في 23 سبتمبر 1798م إلى نفيسة من يطالبها بإحضار تلك المرأة؛ للمثول أمامه؛ فأرسلت نفيسة إلى المشايخ تستغيث بهم، فأتي إليها كل من الشيخ محمد المهدي[230]! والشيخ موسى السرسي[231]، وجاهدوا أن يحولوا دون أن يأخذها الفرنسيون؛ بيد أنهم عجزوا؛ فما كان منهم إلا أن ذهبوا صحبتها، لينظروا ما الأمر، فعرفوا أن السبب في استدعائهم لها أن الفرنسيين ألقوا القبض على رجل يعمل "فراشاً"، ووجدوا معه بعض الدخان وبعض الثياب؛ فلما ضغطوا عليه واستجوبوه؛ أقر أنه تابع لزوجة عثمان الطنبورجي، وأنها أعطته ذلك، وطلبت منه أن يعود إليها مرة

المعاهدة معهم حينما رأى أن كفة الإنجليز والعثمانيين راجحة. لم يكن يمتلك الكفاية القيادية التي كانت لسلفه؛ فعجز عن توحيد شمل المماليك، وكان ممن قتلوا في المكيدة التي دبرها العثمانيون في الإسكندرية في أكتوبر 1802م. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج5، ص 147. ومحمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 454.

230- محمد المهدى: ولد في عام 1742م في (ناهية) بالجيزة، كان والده قبطياً، وأسلم وهو دون البلوغ، قرأ القرآن واشتغل بطلب العلم حتى عُدَّ من فحول العلماء، وحين جاءت الحملة الفرنسية "واصلهم ولاطفهم؛ فأحبوه وقبلوا شفاعته، فكان الواسطة العظمى بينهم وبين الناس في قضاء حوائجهم، لُقب عندهم وعند الناس بـ"كاتم السر". أثنى عليه نابليون؛ فقال: "إنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علما"، وعينوه سكرتيراً للديوان في أدواره المتعاقبة، وكان نابليون يعهد إليه بصياغة منشوراته في القالب العربي المسجوع، وصفه بوسليج (مدير الشؤون المالية) للحملة قائلا: "إن الشيخ المهدى رجل يطمع في الشهرة والتزلف للجماهير وإنه يضحى بجميع الفرنسيين في سبيل ألا يفقد شيئا من منزلته بين الناس». ذهب الجبرتى إلى أن علاقته بالفرنسيين كانت مفيدة للمصريين؛ فقال: "كان لتصدره في تلك الأيام النفع العام، وسد بعقله ثقوبا واسعة وخروقا"، وبعد جلاء الفرنسيين صار من المتصدرين في الحركات الشعبية واشترك مع عمر مكرم وغيره فى تولية محمد على، وتولى تحرير محضر اجتماع العلماء وقرارهم بعزل خورشيد. ولما بدأ الجفاء بين الباشا وعمر مكرم تولى كبر السعي عليه سرا هو وباقي العلماء حسدا وطمعا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به. وتوفي عام 1815م. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج7، ص ص375-386. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص ص247- 251.

231- موسى السرسى: من سرس الليان بالمنوفية، درس بالأزهر، وارتبط بالشيخ أحمد العروسي (1720-1793م)؛ فكفل له ذلك الشهرة والرغد المادى بشراء ممتلكات في القاهرة والمنوفية. وقام بنشاط علمي مهم؛ فقام بتحرير الفتاوى والمؤلفات، وفى عام 1798م اقترب من الصف الأول للعلماء، وقد وصُف بأنه كان شخصية لطيفة وبشوشة لا تميل إلى الادعاء. كان عضوا في ديوان القاهرة في عهد مينو. أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798-1801م، ترجمة بشيرالسباعي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2001م، ص ص 40، 206.

أخرى لإعطائه شبكين دخان وفروة، وخمسمائة محبوب[232] لإيصالهم إلى سيده؛ فقالوا: وأين الفراش؟ فبعثوا لإحضاره. وحينما استجوبوها عن هذا الأمر، أنكرت ذلك كله؛ وانتظروا حضور الفراش إلى ما بعد المغرب؛ فلم يحضر؛ فقال لهم المشايخ: دعوها تذهب إلى بيتها، وفي غد تأت لاستكمال التحقيق في هذه القضية، فرفض ديبوي قائلا: لا لا –"تو نو" على حد تعبير الجبرتي– فقالوا له: دعها تذهب هي ونحن نبيت عوضاً عنها؛ فرفض ذلك أيضاً؛ فألحوا في طلبهم قدر طاقتهم؛ إلا أنه أصر على الرفض؛ فلما يأسوا تركوها ومضوا، فباتت عندهم في ناحية من البيت، وبات معها في صحبتها جماعة من النساء المسلمات والنساء الإفرنجيات، وبعد التحقيق في الصباح لم يثبت عليها شيء من تلك الدعوى، ورغم ذلك فرضوا عليها ثلاثة آلاف ريال فرنسي[233]!

وتحمل هذه الحادثة دلالات كثيرة؛ حيث تؤكد صحة ما نُقل عن نابليون قوله عن نفيسة إنها "امرأة مهمة، تتمتع بين الأهالي داخل المدينة بحظوة واعتبار كبيرين"[234]. وأن المسؤولين الفرنسيين كانوا يعدونها الزعيمة الفعلية للنساء اللاتي تركهن المماليك وراءهن[235]! ولم تأت هذه المكانة من فراغ حتما، وقد تجلى في هذه الحادثة ما يشير إلى تلك المكانة المرموقة؛ فكما كانت ملجأ لذوي الحاجات من عامة الشعب؛ فإنها كانت ملاذا خاصا لنساء المماليك؛ فإن احتماء زوجة الطنبورجي هذه بها دون سائر زوجات الأمراء دليل واضح على ما كانت تحظى به نفيسة لدى الخاصة والعامة؛ وكأنها كانت وكيلة عنهن! وحينما طلب ديبوي من نفيسة تسليم تلك المرأة امتنعت بشهامة، ولو وافقت على تسليمها فور أن طلب منها ديبوي ذلك؛ فلا تثريب

232- المحبوب: عملة ذهبية، وهي الدينار الذهبى، استعملت في مصر من بداية الحكم العثماني إلى الحملة الفرنسية. والكلمة اختصار لعبارة (زَر محبوب)، و(زَر) بفتح الزاي كلمة فارسية تعني: الذهب. وكان المتعامل به في مصر من نقود الذهب وقت وصول الفرنساوية هو الزر محبوب، وكان مخلوطا بالفضة وكان عياره 16 قيراط. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص ص74، 120. ومحمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص85. وأحمد زقلمة: المرجع السابق، ص130.

233- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص 96.

234- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص94.

235 - Fay, M. A.:Unveiling the Harem:op. cit, p.13.

عليها؛ حيث إنها لا تملك سلطة تخولها رفض قرار حاكم غاشم محتل، وهو الذي سبق وأصلاها بنيران الغرامات متجاهلا أياديها البيضاء على رعاياهم قبل قدوم حملتهم المشؤومة، لكنها بذلت جهدها واستصرخت العلماء لنجدتها لعلهم يستطيعوا مساعدتها في الوفاء بذمتها إزاء تلك اللائذة بها ولم يتأخروا عن نجدتها، فهَبَّوا لإغاثتها وبذلوا جهدهم في نصرتها، ويبدو هذا من محاولتهم منع اعتقال تلك المرأة في البداية، ثم طول جدالهم مع ديبوى وعرضهم أن يطلق سراحها حتى لا تبيت رهينة لديه؛ فلما أبى عليهم عرضوا أن يحبسهم نيابة عنها! بيد أنه رفض. والراجح أن ما وقع من دعم نسائي لتلك المرأة من أولئك النسوة (المسلمات والإفرنجيات) اللواتي بتن معها لكيلا يتركنها تبيت وحدها في قبضة السلطات الفرنسية، كان وراءه نفيسة أيضا. التي كانت تشعر بأن عليها عبء حماية أولئك النسوة. وهذا مؤشر كاف على ما كانت تحظى به تلك المرأة من مكانة استثنائية؛ ونظرا لاضطلاعها بهذا الدور؛ فإنها لم تسلم من الضغط والابتزاز الفرنسي؛ فكم دفعت من غرامات مالية تعسفية لإنقاذ أولئك اللائذات بها!

ويمكن القول: إن حادثة إلقاء القبض على زوجة عثمان الطنبورجي بدعوى أنها تتواصل مع زوجها تبرز مدى حساسية الفرنسيين من تواصل أمراء المماليك مع زوجاتهم المقيمات في القاهرة وإيصال الدعم لهم. واتخاذ تلك الدعاوى ذريعة لمزيد من الابتزاز المالي لهن، وعلى الرغم من أن نفيسة رأت بأم عينها ما جرى مع زوجة عثمان الطنبورجي؛ فإن ذلك لم يردعها عن التواصل مع مراد.

وتشير الدلائل إلى أن نفيسة اتبعت سياسة مراوغة إزاء الفرنسيين؛ لاسترضائهم، كنوع من الانحناء للعاصفة وإقامة علاقة جيدة معهم وفي الوقت نفسه تخطط من ورائهم للنيل منهم؛ حيث إن هذا أجدى من العداء الصريح الذي لا تستطيعه وسيكون ثمنه فادح، وفي هذا الإطار يمكن فهم سلوكها حين قامت برعاية بعض الجنود الفرنسيين الذين أصيبوا في هجمات في الشوارع في منزلها؛ فلا ريب أن هذا كان عملاً (مشرفاً) يليق بمكانتها الكبيرة؛ ولكسب ثقتهم من أجل ضمان نجاحها في مساعيها[236].

236- **Kandil, D. A.: op.cit, p. 16.**

والراجح أن بونابرت كان يعلم أن ثمة تواصل بينها وبين زوجها على نحو ما، بيد أنه كان يتغافل؛ فقد نقل (لاكروا) عن نابليون أنه قال في مذكراته التي أملاها في جزيرة سانت هيلانة (في المحيط الأطلسي تابعة لبريطانيا) أن مراد بك حين عاد مهزوما من البحيرة[237] إلى الجيزة، اعتلى قمة هرم خوفو، وأخذ يتبادل الإشارات مع زوجته نفيسة من فوق سطح منزلها، وشاع الأمر بين الناس في القاهرة؛ فأوجست في نفسها خيفة نفيسة من أن يُلحق بها الفرنسيون أذي؛ فسعت إلى تكذيب ذلك؛ فبادرت بالذهاب إلى بونابرت حيث يقيم وطلبت مقابلته؛ فتلقاها بكل احترام وإكرام، وأكد لها أنه لا يحفل بهذه التهمة التي وجهت إليها، بل ادعى أنه على استعداد أن يعقد هدنة يوما وليلة مع زوجها؛ لتلقاه إن أرادت الاجتماع به! قائلا لها: "لو أنك تريدين الاجتماع بزوجك لما تأخرت عن أن أهادنه أربعا وعشرين ساعة لكي تلتقيا، إذا كان في هذا ما يسرك ويسره". وذهب بعض الباحثين أن نابليون ربما كان يبتغي من وراء تلك المجاملة أن يتخذ من نفيسة وسيلة للتأثير على زوجها حتى يقبل الصلح[238]! إذ لا ريب أن نابليون كان شديد الميل –وخصوصا في ذلك الوقت – إلى التوصل إلى اتفاق مع مراد بك، وأوفد لهذه الغاية روزيتى Rossetti قنصل النمسا بالقاهرة وصديق البكوات للمفاوضة مع مراد، وتوقيع معاهدة لإنهاء الحرب بينه وبين بونابرت، ولكن مراد أصر على المضي في القتال[239]، ورفض الاعتراف بغير سيادة السلطان العثماني[240]. ولا يستبعد أنه أراد أن يتخذ من منزلة السيدة نفيسة ومكانتها لدى زوجها وسيلة لمثل هذه

237- حدث هذا في 13 يوليو 1799م بعد أن عاد مراد بك من البحيرة؛ ليرابط قرب الأهرام لينضم إلى القوات العثمانية التي علم بقرب وصولها من البحر؛ فلما علم نابليون بالأمر قرر مطاردة مراد؛ فانتقل بونابرت إلى الأهرام في اليوم التالي 14 يوليو؛ فلم يجد مراد بك، وفي صباح 15 يوليو وصله خبر وصول الأسطول العثماني إلى الإسكندرية. ج. كرستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص ص 332، 333.

238- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص167.

239- رد مراد بك على روزيتي رسول بونابرت قائلا: "قل لبونابرت أن يأخذ عساكره ويرجع إلى إسكندرية ونحن ندفع له عشرة آلاف كيس (الكيس 20 ألف بارة، أو 500 قرش) ويتوجه الى بلاده، فإن فعل حقن دماء جنوده ووفر علي مشقة محاربته". دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص 304. كينيث كونو: المرجع السابق، ص 266.

240- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخرج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 114.

الأغراض التي كانت تخدم مصالحهم؛ ولهذا ظلت السيدة نفيسة دائما موضع إكرام الفرنسيين وإجلالهم[241].

وظلت علاقة نفيسة بالفرنسيين إبان قيادة بونابرت للحملة بين جيدة إجمالا رغم ما شابها من ابتزاز مالي، وليس أدل على ذلك من إقامتها مأدبة طعام في منزلها لبعض ضباط الجيش الفرنسي من باب المجاملة والتلطف، وعند انصرافهم من المنزل قدمت خاتما قيما مرصعا بالجواهر الكريمة إلى (يوجين بوهارنيه) Eugene Beauharnais (1781-1824م) ربيب بونابرت[242] كهدية وتكريم! والمثير أنه لم يمض على منحها هذه الهدية بضعة أيام حتى فرض الفرنسيون ضريبة كبيرة على نفيسة قدرها خمسين كيسا[243]، فلما اعترضت على ذلك وشكت من فداحة الضريبة، أفهموها أنها ما دام عندها مثل هذه الجواهر الثمينة؛ فإنها قادرة على أن تدفع أكثر من ذلك[244]! وهكذا كان رد الفرنسيين على كرم نفيسة! وهذا الموقف سيظل سببا لنقمتها على الفرنسيين وستفصح عن ذلك في وقت لاحق كما سيرد ذكره. ولكنها كانت تتغافل عما لا تشتهي ولا سيما أنه لم يكن بمقدورها فعل شيء.

241- أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص351.

242- يوجين بوهارنيه: ربيب نابليون وابن زوجته جوزفين Joséphine، وكان ياورا لبونابرت، وشارك في الحملة على الشام وكان ثاني اثنين أرسلهما بونابرت في 8 سبتمبر 1799م إلى يافا؛ للنظر في كيفية إعادة النظام إليها بعد اقتحامها والفتك بأهلها، وطلبت حامية قلعة يافا منهما الأمان مقابل الاستسلام فأعطى تأكيدات بأنهم لن يقتلوا. وحينما غادر بونابرت مصر مساء 22 أغسطس 1799م ومعه قلة قليلة اصطفاها لصحبته كان يوجين من هؤلاء, وفي خريف عام 1799 شارك في انقلاب 18 برومير، وفي فبراير 1805م، منحه نابليون لقب أمير الإمبراطورية، وفي يوليو تم تعيينه نائبًا للملك في إيطاليا. في العام نفسه تبنى نابليون رسميًا ربيبه، وشارك في حملة 1812م على روسيا. وبعد تنازل نابليون عن العرش أظهر يوجين حالة من اللامبالاة مذهلة، مات في ميونيخ في 1824م، وكان عمره 42 عاما. ومحمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص65، 127، 135. وأحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص351. وكرستوفر هيبرت: المرجع السابق، ص129.

243- الكيس: وحدة حسابية لحساب القيم الكبيرة من الأموال، وكان الكيس يعادل 20 ألف بارة، أو 500 قرش. كينيث كونو: المرجع السابق، ص 266.

244-هنري لورنس: المرجع السابق، ص 190. و أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص391.

إن إقامة نفيسة مأدبة طعام لبعض ضباط الجيش الفرنسي، وتقديمها هدية قيمة إلى ربيب بونابرت يمكن اعتباره من دلائل ذكاء نفيسة الاجتماعي والدهاء السياسي، وأنها كانت تنتهج سياسة المداراة إزاء جيش الاحتلال لتتقي شره، إذ لا يغيب عن بالها ولا بال الفرنسيين أن زوج تلك المرأة هو ذاك الرجل الذي قاتلهم ولا زال يقاتلهم والحرب بينهم سجال؛ ولكن يُلاحَظ أنها لم تُدَارِهم إلا بالمال، وكان بإمكانها أن تتألفهم بإهداء بعض جواريها وقد كان الفرنسيون قادة وجنودا في حاجة إلى "مطلق الأنثى" كما وصف الجبرتي، وفي الوقت الذي تزلف آخرون للفرنسيين بما يمس الشرف في مجتمع شرقي وما حدث من الشيخ البكري وابنته مقصوفة الرقبة (زينب) ببعيد.

وثمة رواية أخرى لهذه الواقعة تذهب إلى أن نفيسة لم تبادر بدعوتهم لمأدبة طعام بل إن بونابرت هو الذي أرسل إلى نفيسة ربيبه يوجين، حاملاً بعض الهدايا لها كنوع من الإشادة بها. وأنه زارها في منزلها ونقل لها رسالة من بونابرت؛ أكد فيها أنها ستحظى بحمايته دائمًا طالما لم تتعاون مع أعدائه أو تؤويهم في منزلها. وأنه كان هناك هدف آخر لبونابرت من هذه الزيارة؛ فقد أراد من يوجين أن يتفقد هذا المنزل الذي اعتبره "مقرًا للقيادة أو معسكرًا للأعداء" أكثر من كونه قصرًا سكنيًا، وللتأكد من عدم وجود أي من المماليك فيه. ومن الواضح أن نفيسة بذكائها قد أدركت السبب الحقيقي الخفي من هذه الزيارة، وهو التحذير الذي حمله إليها يوجين نيابة عن بونابرت. لكنها تصرفت كعادتها بحكمة، وقررت أن تخرج منتصرة من هذا الموقف. فاستقبلته بحفاوة وكرم، وقدّمت له فنجانًا من القهوة التركية وفقًا للتقاليد الشرقية. وبالغت في الحفاوة؛ حيث إنها قامت بإعدادها وتقديمها له بنفسها كي يشعر بالتميز. وأصرّت على أن يفتش المنزل، وبحسب كلماته "توسلت إليه". وقادته إلى جميع أرجاء القصر في جولة في الطابق الأول والثاني، بل وسمحت له بدخول الحريم، متجاهلة التقاليد التي تمنع دخول الرجال الغرباء إليه. ثم أعطته خاتمًا ثمينًا؛ حيث كانت حريصة على أن تنال تأييده؛ فقد كانت تعرف علاقته الوثيقة ببونابرت، وأرسلت معه هدية ثمينة إلى بونابرت، اختارتها بعناية لتوصيل رسالة معينة إليه؛ حيث أرسلت له بعض ممتلكات زوجها مثل شاله الأنيق، وبعض أسلحته وكانت تهدف من خلال تقديم أسلحة زوجها

إلى بونابرت؛ إظهار خضوعها لسلطته. والتظاهر بقبولها لحكمه بدلاً من اعتباره "شخصًا غير مرغوب فيه""[245].

وذهبت (دعاء قنديل) إلى أن نفيسة قد نجحت في هذه الحيلة أكثر مما توقعت؛ حيث إن بونابرت فيما يبدو بعد هذه الزيارة ظن أنه قد أخطأ في تقديرها، وعزم على عدم إزعاجها بعد ذلك وألا يفرض قيودًا على حركتها. ومن ثم بدأ يقدرها ويعاملها باحترام بالغ. وقد تجلى ذلك عندما شكت له من أن بعض جنوده قد اعتدوا بالضرب على رئيس خصيانها، فوبّخ قائده وأصدر أوامره بمعاقبة من ارتكب هذه الحماقة. وكتب يقول: "أنا مستاء للغاية، أيها المواطن الجنرال، من سماعي أن زوجة مراد بك تشتكي من سوء المعاملة، وأن رئيس خصيانها قد ضُرب! أرجو أن تكتشف من فعل هذا وتودعه السجن"[246]! وهذا يعني أنها نجحت في خداعه! والراجح أن هذا الموقف من بونابرت كان تظاهرا بتقديرها؛ فمثله لا يُخدع بسهولة، ولعل موقفه هذا كان مرده إلى رغبته في كسب ود نفيسة لحاجته إليها لعلها تقوم بدور إيجابي في التقارب بين الفرنسيين وبين زوجها على نحو ما سبق ذكره.

والراجح أنه كانت هناك زيارتان لقصر نفيسة إحدهما بدعوة منها ليوجين مع غيره من الضباط، وحمَّلته في نهايتها هدية قيمة لبونابرت، وزيارة أخرى كانت بتكليف من بونابرت لربيبه يوجين؛ متظاهرا بأنها كانت ردا على الزيارة الأولى الذي أرسل لها هدية بالمقابل كنوع من رد المجاملة السابقة.

وتجدر الإشارة إلى أن بونابرت كان يعد الإسكندر الأكبر ملهما له، ولم يشر أحد –في حدود ما نعلم– إلى أن زعامة شرقية كانت ملهمة له أيضا، ولكن هنري لورنس ذهب إلى أن بونابرت استمد الكثير من أسطورة على بك الكبير! وأن من أسباب تقديره لنفيسة أنها كانت زوجة لعلي بك الكبير! فيذكر أن بونابرت كتب فى30 يناير 1799م إلى بوسيلج يوصيه بنفيسة قائلا: إن السيدة نفيسة، أرملة على بك وزوجة مراد بك الآن، يجب أن تحتفظ بذلك الجزء من ممتلكاتها الذي ورثته عن على بك، فنحن نريد

245 -**Kandil, D. M. : op.cit, pp. 17-19.**
246- **Ibid, pp.17-19.**

بذلك أن نقدم دليل احترام لذكرى هذا الرجل الشهير[247]! وهكذا كانت علاقة نفيسة بالفرنسيين إبان قيادة بونابرت للحملة في مصر بين تقدير من جهة وابتزاز مالي من جهة أخرى يتبعه تقدير ثم وابتزار وهكذا دواليك!

ومن علامات تقدير رجالات الحملة الفرنسية لنفيسة أيضا أن ديجنيت[248] Desgenette كبير أطباء الحملة الفرنسية عندما ألف رسالة عن مرض الجدري في مصر وطبعها في المطبعة العربية التي أحضرها الفرنسيون، أهدى منها مائتين وخمسين نسخة إلى الديوان، كما أهدى إلى السيدة نفيسة وحدها خمسين نسخة[249]! وهذا يظهر حسن علاقتها بعلماء الحملة الذين وصفوها في (وصف مصر) قائلين: "السيدة نفيسة، وهي جورجية جميلة مملوءة بالحياة"[250]. ولا ريب في أن اصطفاء كبير أطباء الحملة نفيسة دون سواها من المصريين بإهدائها خمسين نسخة من كتابه هذا يعد دليلا على ما كانت تحظى به لدى الفرنسيين قادة وعلماء من مكانة استثنائية مرموقة دفعته لأن يخصها بهذا!

نفيسة إبَّان قيادة كليبر للحملة

وإبان قيادة كليبر للحملة اضطلعت نفيسة بدور يعد هو الأهم في فترة الحملة الفرنسية على نحو يبدي بجلاء صحة ما وصفها به (دانيال كريسيلوس) بأنها قامت بـــ"دور إيجابى في السياسة خلال الاحتلال الفرنسى (1798–1801م)[251]، وتتجلى

247- هنري لورنس: المرجع السابق، ص126.
248- ديجنيت: (1762-1837م) كبير أطباء الحملة الفرنسية في إيطاليا ومصر، وله عدة بحوث طبية عن مصر، وله إحصاءات دورية عن وفيات القاهرة في مدة الحملة الفرنسية، ومنح بعد الحملة لقب بارون. عبد الرحمن الرافعي: ج1، المرجع السابق، ص ص 133، 134.
249- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص167. عبد الرحمن الرافعي: ج1، المرجع السابق، ص134. وقد أشار الجبرتي إلى حادثة التأليف والإهداء فى حوادث شعبان سنة 1215هـ (ديسمبر 1800م) وأن ديجنيت أرسل نسخا لأرباب الديوان لكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج5، المصدر السابق، ص81.
250- دولابورت: قاهرة المماليك، وصف مصر، ترجمة: منى زهير الشايب، ج11، مكتبة الأسرة، 2002م، ص139.
251- دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص 269.

أهمية هذا الدور الذي لعبته نفيسة كوسيط بين المماليك والفرنسيين[252]؛ فلقد ظل المماليك بقيادة مراد بك يمثلون خطرا محدقا يهدد الفرنسيين ويمنعهم من السيطرة على الصعيد، ويحرمهم من خيراته، ولا يتركون الفرنسيين يهنأون بالراحة يوما، وإذا ما انتصروا عليه في معركة، فهم يأسفون لأنهم لم يستطيعوا الإجهاز عليه؛ فالكر والفر كانا أساس حروبه معهم، مما جعله وجنده كالسراب؛ فكلما لحق بهم الفرنسيون اختفوا[253]. وواصلوا القتال ضد الفرنسيين ببسالة وإصرار أدهشهم. حتى إن الجنرال ديزيه شبّهه وجنوده بـــ"الهيدرا" (وحش عملاق بتسعة رؤوس) من الأساطير اليونانية[254]. وقد أقر برتييه بذلك قائلا بأنه لم يكن هناك عدو أمام الفرنسيين يقاتلهم أكثر من مراد بك؛ وقد كلف بونابرت الجنرال ديزيه بملاحقته[255].

نفيسة واللورد جون كيث Keith [256]:

وفي آخر عام 1799م كان ثلث الجيش الفرنسي يتمركز فى الصعيد لمحاولة القضاء على مراد؛ فكان هذا تشتتا يضعف إجمالا الجيش الفرنسى[257] الذي كان كليبر يعتقد أنه قد ساء حاله إلى درجة خطيرة، ويتوقع زيادة هذه الحال سوءا كلما طال المُقام به في مصر دون وصول أي نجدات من فرنسا، وكلما مرت الأيام ازداد اقتناعا بضرورة إبرام صلح مع العثمانيين بسرعة، وكل الذي كان يتمناه ألا يبدو هذا الجلاء في صورة تسليم؛ بل يجب أن يكتسب صفة المعاهدة، ووافق كليبر على مبدأ الجلاء دون قيد أو شرط، بعد أن يأس في وصول أي نجدات من وطنه. وفي 24 يناير 1800م وقع

252 - Fay, M. F. :Unveiling the Harem, op. cit, p.13.

253- ليلى عنان:الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ،ج2، دار الهلال،القاهرة، 1998م، ص ص136 ،137.

254 -Kandil, D. A.: op. cot, p. 19.

255 -Berthier, L.A.:op. cit, p. 29

256–جون كيث: كان سكرتيرا لسيدني سميث، وقومندان البحرية الإنجليزية في البحر المتوسط، وقد وقع على اتفاق تسليم الفرنسيين للإسكندرية في 31 أغسطس عن لندن ومعه هتشنسون. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 539.

257- ليلى عنان: المرجع السابق، ص ص136 ،137.

ديزيه وبوسليج على اتفاقية العريش[258]، وكان أهم بنودها النص على انسحاب الجيش الفرنسي بالأسلحة والأمتعة إلى فرنسا[259]. وأبلغ كليبر ديوان القاهرة بعودة السلطة العثمانية. ووصل موظفو الضرائب العثمانيون لجباية الضرائب المخصصة لتغطية نفقات جلاء الجيش الفرنسي، ويلاحظ الجبرتي أنه لم يحدث قط أن دفع المصريون الضرائب بمثل هذا السرور، ونقل نقولا الترك فرحة لا توصف استولت على المصريين، وبدأت القوات الفرنسية تجلو عن شرق الدلتا والصعيد وتتجمع غربي القاهرة، وبدأ العثمانيون يحتلون المواقع التي يخليها الفرنسيون. وفي تلك الأثناء كان مراد بك مقيما في معسكره على الضفة الغربية للنيل وكان منزعجا على مصيره رغم كلمات العثمانيين المطمئنة[260]. بيد أن الحكومة البريطانية رفضت اتفاقية العريش، إلا إذا سلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب دون قيد أو شرط. وأصدر (إلجين) Elgin السفير الإنجليزي في إسلامبول أوامر إلى اللورد (جون كيث) ألا يوافق بحال على عودة جيش الشرق إلى فرنسا، ويطلب إليه إرسال قوة بحرية إلى المياه المصرية أمام الإسكندرية رجاء أن يستطيع كيث فرض شروط جديدة للصلح على الفرنسيين[261]. وكتب اللورد جون كيث الرسالة التي تحمل رفض حكومته لاتفاق العريش إلى كليبر على اعتبار أنها صدرت من سلطة أعلى من سيدني سميث الذي رعى اتفاقية العريش؛ فاعتبر كليبر إنذار كيث بمثابة إعلان حرب؛ فطلب كليبر تدخلا فوريا من الصدر الأعظم لتبديد سوء التفاهم وإلا فإنه لن يجلو عن القاهرة[262]!

وعلى الرغم من هذه الرسالة الرافضة لاتفاقية العريش إلا أن سيدني سميث أكد للفرنسيين أنه سوف يحترم الهدنة؛ معتقدا أن حكومته عندما تعلم بالدور الذي لعبه في

258- تتألف اتفاقية العريش من مقدمة واثنين وعشرين بندا وقد أفرغ الاتفاق في قالب معاهدة تفرض في شكلها الظاهر التزامات معينة على الطرف العثماني وذلك في نظير قبول الطرف الفرنسي الجلاء عن مصر وإخلائها. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص 156-197.

259- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص ص156-197.

260- هنري لورنس: المرجع السابق، صص 465- 466.

261- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص156-197.

262- هنري لورنس: المرجع السابق، ص466. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الرحكة القومية، المرجع السابق،ج 2، ص 122.

المفاوضات؛ فلن يكون بوسعها سوى الاعتراف بمشروعيتها، وحضر أمام الإسكندرية على أمل تنظيم لقاء مع كليبر، وعند وصوله وجد هناك بوسيلج؛ فتحادث معه. ورأى سميث أن الجلاء يجب أن يبقى عند النقطة التي وصل إليها، ورغب في التحدث مع كليبر مباشرة حتى يتحقق التوافق. ولكن هذا بدا مستحيلا؛ لأن كليبر لا يمكنه مغادرة القاهرة، كما لا يمكن لسميث مغادرة السفينة (تايجر) Tigre حتى لا يغيب بعيداً جداً عن دوريته البحرية؛ ولهذا كلف (سميث) سكرتيره (جون كيث) بالتفاهم مع الفرنسيين مع بقاء الأمور على ما هي عليه، حتى يمكن إزالة جميع المصاعب[263]. وكان سيدني سميث يسعى لاستمالة كيث إلى جانبه لإتمام اتفاقية العريش[264].

وحين وصل جون كيث إلى القاهرة، بحجة استطلاع إمكانات تأمين المدفوعات للجيشين العثماني والفرنسي، قام بزيارة الأعيان الرئيسيين المرتبطين بالفرنسيين؛ فلقد كان كيث يخشى من تعارض عنيف بين مراد بك والعثمانيين، ولهذا حاول التفاوض على ولاء الزعيم المملوكي الكبير بالاجتماع مع زوجته الست نفيسة وكارلو روزيتي Carlo Rossetti[265]. وفى 10 مارس –بعد لقاء مع كليبر– زار جون كيث المعسكر العثماني، وشدد على ضرورة وقف زحف الجيش إلى المطرية؛ حيث توجد الطليعة. والشيء الأساس بالنسبة له هو تجنب حدوث اتصال بين الجيشين، وفى 12 مارس، التقى مرة أخرى بكليبر. وفي اليوم التالي (13 مارس) سارع إلى بحث موقف مراد بك مع الست نفيسة وروزيتي[266]! ويبدو أن تقارير كيث إلى حكومته كانت عاملا في تأييدها في نهاية المطاف لإنفاذ اتفاقية العريش ووصلت أوامر من وزارة البحرية

263- هنري لورنس: المرجع السابق، ص ص 467، 468.

264- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، المرجع السابق، ص 201.

265- رغبت الإمبراطورية النمساوية حوالى عام 1782م فى السيطرة على تجارة الشرق، وتحويلها إلى الطريق البرى عبر مصر، واعتمدت في ذلك على تاجر بندقي قديم (كارلو روزيتي) الذي عينته قنصلا لحكومتها في مصر. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 38.

266- وبعد ذلك بوقت قصير، تحفظ عليه الفرنسيون، مع كثير من وجوه التقدير، ثم أفرجوا عنه في 16 مارس، مع وصول رسول بريطاني جديد، هو الملازم رايت. هنري لورنس: المرجع السابق، ص 468.

الإنجليزية في 29 مارس بهذا المعنى، لكن هذه الموافقة أتت متأخرة؛ فقد اشتبك كليبر مع العثمانيين في معركة كبيرة في 20 مارس أي قبل ذلك[267].

وجدير بالذكر أنه حينما التقى (جون كيث) نفيسة كتب عن هذه الزيارة؛ فذكر أن السيدة نفيسة "تمقت اسم الفرنسي نفسه"، وأنها حدثته بسخرية لاذعة عن "شهامة" الفرنسيين معها! وضربت له مثلا –سبق ذكره– على ذلك أنه حينما زراها يوجين بوهارنييه ربيب بونابرت وأهدته سوارا جميلا من الماس، فحين رأى بونابرت تلك الجوهرة أصدر قرارا يلزمها بدفع ضريبة قدرها خمسين كيسا أجبرت على سدادها[268]! وهذا الذي ذكره (كيث) يكشف النقاب عن ما تكنه نفيسة إزاء الفرنسيين من الكراهية وأنها تحقد عليهم لانعدام شهامتهم معها حينما قابلوا إحسانها بالإساءة، وهديتها بالغرامة، كما يظهر كم كانت نفيسة تجيد المناورة واقتناص الفرص؛ فلقد سعى (كيث) إليها ولم تسع هي إليه؛ فاهتبلت الفرصة لإقامة علاقة جيدة معه كمندوبة عن المماليك وهي تعلم أن ذمها للفرنسيين وسخريتها من (نذالتهم) أمامه سيطربه، ويوحي إليه بنفور المماليك منهم؛ فلعلهم يبسطوا يدهم للتعاون مع المماليك ليخلصوهم من الفرنسيين ثم تخلص البلاد بعد ذلك للمماليك، ولا سيما أن الصراع بين الفرنسيين والمماليك لا زال قائما؛ وهذه براجماتية جلية من نفيسة لا تخطئها العين.

ومن جهة أخرى؛ إنه لأمر لافت جدا أن تكون نفيسة في بؤرة الأحداث الجسام على هذا النحو وأن تكون قِبلة يؤمها رجالات الحرب والسياسة مثل (جون كيث)؛ لتلعب دورا في صناعة الأحداث وصياغتها على نحو ما؛ فكيف يحدث هذا في بلد شرقي محافظ يزعم الكثير أنه يقمع المرأة؛ ولا يسمح لها بالبروز في عصر طالما سمي بعصر الحريم؟! وفي زيارة جون كيث لنفيسة دلالة جلية على أن الإنجليز كما الفرنسيين عرفوا لها قدرها ونفوذها وبلغت من الشهرة حدا كبيرا.

وخلال إقامة جون كيث القصيرة (التي التقى فيها بنفيسة وغيرها) رصد وجوه قوة الوجود الفرنسي ووجوه ضعفه؛ وعرف أن المماليك يعادون الفرنسيين الذين

267-محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص 202،203.

268-هنري لورنس: المرجع السابق، ص 190.

جردوهم من سلطاتهم وامتيازاتهم (وهذا صدى لقائه مع نفيسة)، وأن الجيش الفرنسي سعيد بالعودة إلى الوطن، ولكنه مستعد للقتال تحت قيادة يثق بها ثقة عظيمة. وعلى الرغم من اعتراف كليبر بأمانة سيدني سميث؛ فلقد شعر بسخط عميق على تهديد اتفاق العريش. واتخذ على الفور تدابير احتياطية ليضع جيشه على أهبة القتال[269]؛ فنشر على الجند في 18 مارس خطاب اللورد كيث، وعلق عليه بقوله: ولا يسع المرء أن يرد على هذه الإهانات إلا بإحراز النصر؛ فاستعدوا للمعركة[270].

ومن ناحية أخرى ظلت نفيسة ترسل إلى مراد بك آخر الأخبار عن الفرنسيين باستمرار، والتي كان في أمسّ الحاجة إليها أثناء وضع خططه ضدهم. وهذا ما يفسر سبب معرفته التامة بكل ما كان يجري في القاهرة، وكأنه لم يغادرها قط. ومع ذلك، عجز عن هزيمتهم هزيمة ساحقة، لا ريب أنه ألحق بهم خسائر فادحة، إلا أنه لم يكن قادرًا على طردهم من البلاد. وفي الوقت نفسه، كانت قواته تعاني من الإرهاق والإنهاك الشديد. وبناءً عليه، كان على نفيسة أن تلعب دورًا حاسمًا آخر لإنقاذ الموقف. ويمكن القول إنها كانت حريصة على منح زوجها متنفسًا ليستعيد أنفاسه المتقطعة بعد كل تلك المشاق التي مر بها والمعارك المتواصلة التي خاضها ضد الفرنسيين منذ قدومهم. لقد شعرت بضعف قوته بعد كل تلك المواجهات التي دفعته إلى حافة الانهيار. ولهذا، كانت مستعدة للقيام بهذه المهمة الإنقاذية والتوسط بين كليبر وزوجها، من خلال تدخلها الحكيم[271].

نفيسة وفورييه والتوسط للصلح:

وقد واتت نفيسة الفرصة؛ ففي 18 مارس 1800م، عندما تبين لكليبر أنه لا مناص من الصدام مع جيش الصدر الأعظم رغب في التفاوض مع مراد بك؛ فبادر بإرسال العالم الرياضي فورييه Fourier سكرتير المجمع العلمي المصري كمندوب عنه

269-هنري لورنس: المرجع السابق، ص 468

270- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 204.

271 -Kandil, D. A.: op. cot, p. 20.

إلى الست نفيسة[272]؛ لجس نبضها في ضم مراد إلى صف الفرنسيين ويرجوها التوسط بينهم وبين مراد وعرض الصلح عليه[273]. ولا بد أنه كان يدرك مدى تأثيرها وقوة إقناعها اللافتة. ومن الواضح أنه رأى فيها الشخص الوحيد القادر على الضغط على زوجها لقبول العرض الفرنسي. وكان محقًا، لقد كانت دائمًا بمثابة مستشارته، بما فيها مستشارته في الأمور السياسية[274]. وكان ذلك قبل معركة هليوبوليس بيومين فحسب. وسعيا إلى اقتراح حلول حازمة عرض فورييه الأمر على نفيسة على النحو التالي: إن الفرنسيين على وشك القطيعة مع العثمانيين، وأن ثقة الفرنسيين فى الانتصار على العثمانيين في القتال المنتظر كبيرة، وأنهم يرغبون في انحياز بك مراد إليهم، والانفصال عن قوات العثمانيين؛ وعقد صداقة مع الفرنسيين وأن يقتسم معهم (الفرنسيون) حكم مصر، إلى أن تنتهى الحرب في أوربا؛ وعند تحقيق الصلح الشامل، سوف يجلو الفرنسيون عن مصر ويتركون له حكم البلد كله؛ إذ إنه سيصبح سيداً عليها وحده؛ فرحبت نفيسة بالعرض وردت قائلة إن زوجها سوف يغضب بلا شك إن لم يتلق ببالغ السرعة إشعار على هذه الدرجة من الأهمية، وأنه (مراد بك) الآن جِدُّ قريب من القاهرة، وأنها قد أرسلت إليه هذا الصباح خصيها الأول الذى لم يعد بعد، وأنها سوف

272- ذكر محمد فؤاد شكري أن هذا التفاوض كان مع فاطمة زوجة مراد! ويبدو أن هناك التباس لديه في هذه المسألة؛ حيث إنه ذكر كثير من الأخبار والنعوت التي تخص نفيسة ونسبها إلى ضرتها فاطمة؛ فقال: إن بونابرت ثم كليبر أظهرا نحوها الكثير من ضروب العناية والتوقير والاحترام وأنها اشتهرت بفعل الخير وأن بيتها ظل مفتوحا طوال ثلاثين عاما يلجأ إليها البؤساء وذوو الحاجات. وأنها فضلت البقاء في القاهرة عند مجيء الفرنسيين" وهذا مخالف لكل المصادر والمراجع العربية والأجنبية؛ فالثابت أن فاطمة فرت خارج مصر إلى الشام كما سبق الذكر، وأنها أرسلت وهي في غزة إلى الشيخ البكري تطلب أمانا للعودة، ولم تعد إلا بعد خروج الفرنسيين منها، حينما كان الصدر الأعظم بمصر؛ فأرسل بعثة من "هجانة إلى ناحية الشام لإحضار المحمل الشريف وحريمات الأمراء"؛ فكيف تكون همزة وصل بين الفرنسيين وزوجها وهي غائبة عن القاهرة! محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص 207، 208. وعبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج5، ص 205. وناصر سليمان: المرجع السابق، ص 103. عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص139.

273- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، المرجع السابق، ص 208. وهنري لورانس: المرجع السابق، ص470. وهيرولد: ص 372.

274 -Kandil, D. A.: op. cot, p. 20.

ترسل إليه في الساحة رجلا موثوقا به؛ ليحمل إليه بأمانة الاقتراحات المشار إليها، وأنها لا يمكنها أن تعرف تماماً نوايا زوجها، حتى ترد بأنه سوف يقبلها، لكنها تعرف أنه مستعد بشكل خاص للتوصل إلى ترتيب مع الفرنسيين، وأضافت أنه لو كانت الظروف قد سمحت ببذل هذا السعى قبل ثمانية أيام خلت، لكان نجاحه مؤكدا، وأنها – علاوة على ذلك– لا يمكنها إلا أن تستقبل بالسرور اقتراحا يفضي إلى منع زوجها من القتال، بالنظر إلى أنه قد يهلك في ذلك العمل. وقد أضافت بعض الأقوال الأخرى، وقالت إنها تفضل الصلح بين الفرنسيين والعثمانلية والمماليك والإنجليز على أي شيء آخر، وأنه إذا ما أصر هؤلاء الأخيرون (الإنجليز) على سد طريق البحر، فعلى الصدر الأعظم أن يخرج بنا عن طريق البر[275]. وينتهز الرسول فرصة وجوده مع «الست نفيسة» ليطلب عفوا عن "جواريها وجوارى إبراهيم بك اللاتي يعشن مع الجنرالات الفرنسيين، خاصة تلك التي تعيش عند كليبر والتي طلب منها الجنرال دوجا حمايتها". وينقل عن فورييه قوله عن نفيسة: "وعَدَت هذه السيدة أن تضم صوتها إلى صوت الشيخ الفيومي حتى لا تصاب هذه الجواري بأي أذى. وقالت الست نفيسة إن الجنرالات الفرنسيين يعيبهم أنهم خطفوا أجمل جواريهم، وكان خطأ هؤلاء الجواري تغيير بيوتهن، ولكن لا بد أن يُنظر إلى هذا النوع من الأخطاء برأفة"[276]!

وأبلغت نفيسة حديث فورييه إلى زوجها، الذي كان مقيما في طرة آنذاك، بينما كانت هي مقيمة في القاهرة. ولكن مراد رفض أن يعد بشيء أو يتورط في أي عمل قبل أن يقطع الفرنسيون كل علاقة بينهم وبين الصدر الأعظم، ويتعهدوا بشن الحرب عليه؛ فينحاز عندئذ مراد وجماعته إليهم. ولما كان كل ما يرجوه كليبر وقتئذ أن يقف مراد بك موقف الحياد في أثناء المعركة القادمة، ولم تكن المفاوضات بين الرجلين قد انتقلت بعد إلى مرحلة البحث فى أية شروط معينة من قبل القائد الفرنسي أو البك المصرى، فقد عَدَّ كليبر جواب مراد صراحة محمودة، واكتفى بأن طلب إليه عدم الاشتراك فى أية معارك

275- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 208. وهنري لورانس: المرجع السابق، ص470. و ج. كريستوفر هيرولد: المرجع السابق، ص 372.
276- ليلى عنان: المرجع السابق، ص ص 137، 139.

قد تنشب بينه وبين العثمانيين. وبناء على ذلك؛ فقد امتنع مراد عن الاشتراك في معركة هليوبوليس 20 مارس 1800م، مع وجوده برجاله قريبا من ميدان القتال. وفي اليوم نفسه (20 مارس) الذي انتصر فيه كليبر على العثمانيين في معركة هليوبوليس اندلعت ثورة القاهرة الثانية العاتية، وحينما عاد كليبر إلى القاهرة في 27 مارس كانت الثورة بلغت ذروتها وامتد لهيبها إلى الوجه البحري، وإبان اشتعال الثورة بالقاهرة كانت المفاوضات والاجتماعات بين الفرنسيين ومراد تجري على قدم وساق لبحث قواعد الصلح[277]؛ فأدرك كليبر أن من مصلحته تقضي بإتمام اتفاقه مع مراد وإخضاع الجهات الثائرة في الوجه البحري؛ ليتم تطويق القاهرة؛ ليتفرغ لإخماد ثورتها وإخضاع أهلها[278].

ومهما يكن من أمر؛ فقد وجدت عروض كليبر هذه –التي جرت من خلال الاتصالات بالست نفيسة– صدى إيجابيا من جانب مراد بك مهد لقبوله الدخول في معاهدة مع الفرنسيين، الذين كبدوه خسائر جسيمة خلال عام كامل من المطاردة في أرجاء الصعيد. ومن ناحية أخرى كان منزعجا من نوايا العثمانيين، واشتد نفوره منهم لصلفهم، ثم أقض مضجعه ما لحظه من استعداداتهم الكبيرة في سوريا للزحف على مصر، وصار يخشى أن يسترجع العثمانيون سلطانهم القديم في البلاد بعد إقصاء الفرنسيين. وقويت شكوكه عندما نشر الفرنسيون في القاهرة شروط اتفاق العريش، التي نصت على أن يتسلم العثمانيون المراكز التي يجلو عنها الفرنسيون. وعلم مراد أن العثمانيين يريدون إقصاء المماليك عن الحكم والقضاء عليهم. ولهذا فقد آثر الحفاظ على الحياد خلال معركة هليوبوليس. ورأى فيما يعرضه كليبر عليه تسوية مشجعة؛ وبعد عدة أيام من التفاوض، قبل المقترحات الفرنسية. وتم توقيع المعاهدة في 5 أبريل 1800م. وجرى الاعتراف بصفة الأمير الحاكم لمصر العليا وتم التنازل له بهذه الصفة

277- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، المرجع السابق، ص206-209 .
278- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج2، المرجع السابق، ص 135 .

عن الأرض بدءاً من جرجا وحتى أسوان مع الالتزام بأن يدفع إلى الجمهورية الفرنسية الميرى المقرر[279].

وثمة من ذهب إلى أن هذا الاتفاق مع الفرنسيين لم يكن سوى مناورة سياسية تهدف إلى إقناعهم بالتخلي عن فكرة الحرب مع مراد؛ حتى يتمكن من إعادة تنظيم قوته وانتظار اللحظة المناسبة للهجوم من أجل استعادة سيادته على مصر التي كان يؤمن بأنها حقه الشرعي. بمعنى آخر، إن خضوعه المفاجئ بدا خضوعًا زائفًا. وأن الاتفاق كان مجرد تكتيك؛ لكسب بعض المزايا وليس خضوعًا حقيقيًا لهم؛ فقد كان الخداع من سمات المماليك، وخصوصا بعد انتصار كليبر على العثمانيين في معركة عين شمس (هليوبوليس)، ولذلك، قرر تغيير سياسته تجاه الفرنسيين بناءً على نصيحة زوجته نفيسة. ولم يجد حرجًا في الخضوع الظاهري لأعدائه ومصالحتهم مؤقتًا إلى أن تحين الفرصة للتخلص منهم[280]!

ولا ريب أن هذا غير دقيق؛ حيث تشير الدلائل بجلاء إلى أن عقد هذه المعاهدة لم تكن مناورة سياسية من مراد ليلتقط أنفاسه ويعيد تنظيم صفوفه ليستأنف الكفاح ضد الفرنسيين الذين استفادوا إفادة كبيرة من هذه المعاهدة؛ فلقد بالغ مراد بك فى الولاء للفرنسيين على أثرها؛ فلم يكد يتم التوقيع عليها حتى أنفذ إلى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال، ثم ذهب كليبر لجزيرة الذهب بدعوة من مراد الذي أكرمه غاية الإكرام؛ فأقام مأدبة طعام عظيمة "وانبسط معهم وافتخر افتخارا عظيما زايدا" –على حد تعبير الجبرتي– وأعطاه نحو 4 آلاف رأس من الأغنام[281]! وطرد درويش باشا[282]

279- هنري لورانس: المرجع السابق، ص ص487، 488. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، المرجع السابق، ص ص207، 208. و
Hanotaux, G. :Histoire de la nation egyptienne, tome v, l'egypte turque, pachas et Mameluks du xvie au xviiie siecle, l'expedition du general Bonaparte, Broché janvier 1934, p. 492.

280 -Kandil, D. A.: op. cot, p. 21.

281- الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص 264.

282- درويش باشا: عينه يوسف باشا الصدر الأعظم والياً على الصعيد؛ فنزل الوجه القبلى طبقاً لمعاهدة العريش، فلما نقضت المعاهدة وتجدد القتال جمع نحو عشرة آلاف من الفلاحين والعرب وأزمع الزحف على القاهرة لقتال الفرنسيين، فطلب كليبر إلى مراد بك مطاردته تنفيذا للاتفاق

من الصعيد بناء على طلب كليبر؛ فتعقبه مراد بك واضطره إلى الانسحاب شمالا قاصداً فلول الجيش العثماني في غزة. كما سلم مراد إلى كليبر العثمانيين الذين لجأوا إليه يطلبون حمايته، وأكبر دليل على أنها لم تكن مناورة بل انبطاحا حقيقيا تحت أقدام المحتل أن مراد بك قدم المساعدة للفرنسيين في إخماد ثورة القاهرة الثانية التي ظل أوارها مستعرا منذ 20 مارس 1800م؛ وسعى مراد بك سعياً حثيثاً في خذلان المصريين الثائرين لينفض عنهم من يدعمهم من المماليك الذين شاركوا في الثورة؛ فبذل جهده لكي يتخلى المماليك الذين كانوا في القاهرة عن الثوار وينضموا إلى صفوف الفرنسيين! وأغرى مماليك إبراهيم بك الذين يقاتلون في القاهرة بالفرار، ولما أعيته الحيل أشار على كليبر بإضرام النار في القاهرة لإخماد الثورة[283]! وقدم لهم المؤن والذخائر؛ حيث تعاون مع المعلم يعقوب حنا[284]. في نقل أكبر كمية ممكنة من الحبوب

المبرم بينهما، ففعل، وأخذ مراد ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة، وكان شيئاً كثيراً، وسلمه للفرنسيين. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص ص 138-143.

283- ينقل الرافعي عن (ريبو) قوله: إن مراد "أرسل فعلا إلى كليبر عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لإحراق العاصمة. كما نقل عن المسيو (جالان) وهو شاهد عيان قوله: إن مراد عرض علينا إحراق المدينة، وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة أحطابا"، ويقول دفيلييه De Villiers أحد مهندسي الحملة الفرنسية إن مراد بك ظل موالياً للفرنسيين أثناء حصار القاهرة وإنه أرسل لهم الأحطاب لإحراق المدينة. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج2، المرجع السابق، ص142،143.

284- يعقوب حنا: ولد في ملوى (محافظة أسيوط) حوالي عام 1745م، من أسرة قبطية متوسطة. عرض خدماته على سلطات الاحتلال الفرنسي؛ فرحبوا به، نظم جيشا من الأقباط يخدم في صفوف الفرنسيين، يقول الجبرتي: "إنه ناصر الفرنساوية وقلدوه صارى عسكر القبطة، وأنه جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية، وجعلهم عسكره وعزوته". أبلى مع ديزيه بلاء حسنا في حملته على الصعيد. وفي أثناء ثورة القاهرة الثانية كان يعقوب على رأس من تعاونوا مع سلطات الاحتلال في قمعها، واستمر يعقوب في خدمة الاحتلال بتفان على حساب أمن المصريين وكرامتهم وحرمة بيوتهم وأموالهم، وثمة من يرى -وهو محق- أن موقفه لم يكن نابعا من مجرد الشعور بالتعصب الطائفي؛ بل غلبت عليهم الانتهازية الجشعة والأثرة العمياء؛ فانشق على أمته وصانع الاحتلال الفرنسي وذهب في مصانعته إلى أبعد مدى. وبلغت تجاوزات يعقوب وأعوانه في حق المسلمين من التطرف حدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تتدخل لوقفها. فتحول إلى عميل يعمل ضد وطنه وأبناء جلدته وأصبح أكثر توحشا وسوءا ممن يستخدمه. كافأه كليبر برتبة الكولونيل ثم رقاه مينو إلى رتبة جنرال، ولم يكن رجال الكنيسة راضين عن غروره وخروج تصرفاته عن الأصول والتقاليد. وقد نصحه بطريرك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته، ولكنه رفض. وصف نفسه بـ"المواطن يعقوب القائد العام للفيالق المصرية القبطية"، في رسالة بتاريخ 24 يونيو 1801م إلى حاكم أسيوط العميد دونزلو Donzelot ، وغيره؛ فكان مما جاء

من الصعيد، وأرسل لهم عدداً من المراكب المحملة بالحطب والمواد الملتهبة لأحداث الحرائق في القاهرة؛ فتمكنوا من إخماد الثورة بالحرائق التي أشعلوها في الأحياء الوطنية، وخصوصا فى حي بولاق الذي خربوه تخريبا. وغنى عن البيان أنه لم يراع في هذه المعاهدة إلا مصلحته الشخصية دون أدنى اعتبار لمصلحة البلاد؛ فقد تمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق بينه وبين كليبر وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تمطر قنابلها على سكان القاهرة[285]. وقد استمرت الثورة 33 يوما، وحين دخل كليبر المدينة مزهوا بالنصر كان في المقدمة وخلف ظهره عثمان البرديسي وعثمان بك الأشقر (مندوبي مراد بك) وخلفهم طوائف من خيالة الفرنسيين...[286]!

هذا؛ وقد أوردت كورييه دليجيبت موقفا حدث بعد توقيع هذه الاتفاقية خلاصته أن مشايخ بعض القرى ومدينة المينا حينما قدموا التحية إلى مراد بك أجابهم قائلا: "أنا الآن سلطان فرنسي، والفرنسيون وأنا نؤلف كيانا واحدا[287]! وهذا يؤيد ما ذهب إليه هنري لورنس من أن مراد نفذ بشكل صارم جميع بنود المعاهدة وحرص على أن يعلن على الملأ في مناسبات عديدة، صداقته وإخلاصه للفرنسيين[288]. وهذا يشير إلى جانب من طبيعة شخصية مراد بك التي لا تدين بأي ولاء إلا لمصلحته الخاصة وأنه لا يختلف كثيرا عن المعلم يعقوب حنا الذي اصطف مع المحتل ضد بني وطنه. ولهذا فإنه خضع خضوعا حقيقيا وليس ظاهريا تكتيكيا؛ فقد أبدى عقب توقيع المعاهدة انتهازية وأنانية

فيها: "فالجيش (الفرنسي) يخلف وراءه أصدقاء في مصر تحدوهم الرغبة في التضحية بأنفسهم فداء له...أنتم تعرفون مصر وما تمثله لكم من مزايا، فقد ينتفي عنها لبعض الوقت صفتها الفرنسية...يتحتم إذن على فرنسا ضمان وجود آمن (في الصعيد) لأصدقائها؛ لتهيئة السبل لعودة فرنسا...إنني أبتغي من وراء ذلك إعطاء فرنسا دلائل جديدة تثبت حماسي لها"! خرج مع الفرنسيين عند جلائهم عن مصر وهلك في عرض البحر في 16 أغسطس 1801م. عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص ص 343، 344. مختارات من وثائق الحملة الفرنسية 1798-1801، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006م. ص155. أحمد حسين الصاوي: المعلم يعقوب، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1986م، ص ص 17-51.

285- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص211. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج2، المرجع السابق، ص140-143. وهنري لورانس: المرجع السابق، ص 488.

286- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص 263.

287- كورييه دليجيبت، ترجمة صلاح الدين البستاني، عدد 68، المرجع السابق، ص256.

288-هنري لورانس: المرجع السابق، ص 488.

مفرطة خالية من أي إحساس بالمسؤولية عن شعب وأمة كان حاكمها قبل أقل من عامين، وبدا وكأنه سئم الكفاح فألقى عن كاهليه السلاح، وانقلب على عقبيه فلا ولاء ولا انتماء لهذه الأمة أو البلد التي قدمت إليه الكثير؛ فلم يقدم لها هو إلا المصائب والخذلان والتآمر عليها مع عدوها.

ومن دلائل أن مراد بك بعد توقيع تلك المعاهدة ظل وفيا للفرنسيين، خاذلا للمصريين، حتى النهاية؛ أنه حينما هُزم الفرنسيون بقيادة بليار Belliard (1769-1832م)[289] من جيش الصدر الأعظم في معركة الزوامل 16 مايو 1801م، وتحرَّج موقف الفرنسيين الذين تراجعوا وامتنعوا في القاهرة في الوقت الذي واصل الجيش العثماني زحفه صوبها؛ فطلب بليار من حليفه مراد بك النجدة –ضد العثمانيين– تنفيذا للاتفاق المبرم بينهم؛ شرع مراد بك في إمداد بليار ونجدته، وسار برجاله صوب القاهرة، إلا أنه لم يبلغها؛ حيث أُصيب بالطاعون في سوهاج ومات؛ فحزن الفرنسيون لموته؛ إذ فقدوا حليفا قويا[290]!

وعلى الرغم من كل ذلك؛ فإن مما يلفت الانتباه؛ نظرة بعض الفرنسيين لمراد بعد كل ما قدمه لهم؛ فقد عبر عنها أحدهم قائلا: "أما الاتفاق الذي أدت دوافع عديدة إلى إبرامه مع مراد؛ فلم يكن ليوحي بأية ثقة. لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته...وكان علينا أن نخشاه خائنا وألا نأمل إلا في عون جد ضئيل من جانبه لو أنه كان مخلصا[291]. والواقع أنه سلك معهم مسلك الأوفياء المخلصين حيث رأي أن هذا يصب في مصلحته الخاصة، وقدم لهم الكثير جدا، وتحول تحولات انقلابية كبيرة؛ فمن شخص كان حاكما لمصر (بالشراكة مع إبراهيم)، إلى قائد لمقاومة الاحتلال الذي

289- بليار: رقي إلى رتبة جنرال في معركة أركول Arcole (بين فرنسا والنمسا في نوفمبر 1796م)، وشارك في حروب الثورة والإمبراطورية، وعين سفيرا لبلاده في بلجيكا عام 1831م حتى وفاته في عهد لويس فيليب. عبد العزيز جمال الدين: حاشية مذكرات نقولا الترك، المرجع السابق، ص97.

290- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص212.

291- ج. دي شابرول: المصدر السابق، ص347.

سلبه سلطته، إلى تابع خاضع للاحتلال، وهذه من الحالات النادرة في التاريخ عموما وتاريخ مصر خاصة.

وهكذا كان للسيدة نفيسة دور واضح في إتمام معاهدة السلام بين مراد والفرنسيين، ولا ريب أن هذا يبرز أنها كانت تتمتع بمواهب وقدرات، أهلتها للقيام بدور الوساطة في مفاوضات خطرة لعقد صلح مهم للغاية بين قائد قوات الاحتلال وبين قائد قوات المقاومة (حتى حينه) أو حاكم البلاد السابق، وأن ثقته في جدارتها كانت كبيرة فسمح لها أن تتفاوض نيابة عنه وتحمل له خلاصة ما انتهت إليه من مفاوضات مع جيش الاحتلال؛ فهذا أمر غير مسبوق حدوثه من قبل امرأة منذ أحقاب طويلة وغير ملحوق كذلك لآماد طويلة.

وهكذا، سلك مراد بك عقب توقيع تلك المعاهدة مسالك لا تشرف أي حاكم تجاه شعبه؛ فهل يمكن إدانة نفيسة في وساطتها في توقيعها؟ وهل خطر لها على بال أن الضرورة التي ألجأت إلى توقيع تلك المعاهدة مع الفرنسيين ستؤدي إلى أن يتماهى زوجها مع مصالح جيش الاحتلال إلى درجة التواطؤ معه في سحق ثورة المصريين الذين خذلهم وتخلى عنهم ولم يدعم مقاومتهم للمحتل الغاصب؟ بل لم يقف حتى على الحياد كما فعل إبّان قتال العثمانيين للفرنسيين في معركة (عين شمس)؛ بل إنه أمد الفرنسيين بما يساعدهم في حرق القاهرة وسحق ثورتها الكبيرة الثانية! ومنع المؤن عنها وفرض حصار غذائي عليها لتستسلم للغزاة! وهو الذي طالما أكل هو ومماليكه من خيرات مصر بدعوى أنهم يحمونها، وها هو الآن ينقلب مائة وثمانين درجة؛ فحين اندلعت ثورة شعبية كبرى وجد الشعب المصري حاكمه قبل الاحتلال بدلا من أن يصطف معه ضد المحتلين ويحميه منهم؛ إذ به يراه يصطف مع المحتل ضده!

ومن أسف أن المصادر تشح ببيان موقف نفيسة من سلوك زوجها على أثر توقيع تلك المعاهدة، ولكن يمكن استشفافه من خلال ما سبق ذكره؛ من أنها اعتادت التدخل بحكمتها للجم نزق زوجها وطيشه حين كان يتجاوز بحق الرعايا الفرنسيين قبل الحملة، فهل عجزت هذه المرة عن لجمه؟ أم أنها لم تحاول ابتداء؟ أم لم تسعفها

الظروف؛ حيث كان هو بالصعيد وهي في القاهرة؟ ويمكن القول إنه يُستشف من استمرار تقدير المصريين عامتهم وخاصتهم لها بعد الحملة –على نحو ما سيرد ذكره– أنها لم تكن راضية عن مسلك زوجها؛ ومن ثم حين وقعت نفيسة في أزمة مع خورشيد باشا في 1804م –على نحو ما سيرد تفصيله لاحقا– نهض الخاصة والعامة لنجدتها وهو ما يوحي بأنهم لم يحملوها ورز ما اقترف زوجها. والراجح أنهم لو علموا رضاها بما صنع زوجها؛ لنفروا منها، كما نفروا من الشيخ البكري مثلا، وهو ما لم يحدث إذ تشير الدلائل إلى أنها ظلت تحظى بتقديرهم ومحبتهم حتى النهاية.

هذا، ويبدو أن نجاح نفيسة في تلك الوساطة كان نقطة مفصلية في علاقة الفرنسيين بها؛ فحملوا لها هذا الجميل؛ فحين تحدث الجبرتي عن صلح مراد مع الفرنسيين؛ قال: "ولما كان أيام الفرنساوية واصطلح معهم مراد بك حصل لها منهم على غاية الكرامة، ورتبوا لها من ديوانهم في كل شهر مائة ألف نصف فضة[292]، وشفاعتها عندهم مقبولة لا ترد"[293]. ويبدو بجلاء أن نفيسة نالت تلك المكافآت التي عبر عنها الجبرتي بقوله "غاية الكرامة"، وراتب شهري كبير؛ جزاء ما قدمت لهم.

ومن الوقائع التي تؤيد صحة ما ذهب إليه الجبرتي حين تحدث عن تقدير الفرنسيين لها قائلا: "وكانت شفاعتها عندهم مقبولة لا ترد"؛ أنه بعد أن أخمد الفرنسيون ثورة القاهرة الثانية اشتطوا في عقاب المصريين؛ ففرضوا عليهم الغرامات الفادحة، وخصوا بعض الأعيان وكبار العلماء بنصيب جسيم من الغرامة الباهظة، كالشيخ السادات والشيخ محمد بن الجوهرى؛ الذي اختفى؛ فلم يجدوه؛ فنهبوا داره، فلم يجد سوى أن يتوسل سرا بالست نفيسة إلى أولئك الفرنسيين لتشفع له عندهم؛ فأرسلت إلى مراد بك وهو بالقرب من الفشن؛ فأجاب شفاعتها وأرسل من لدنه كاشفا وتشفع فيه؛ فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه[294]. وهذه الحادثة تعد أنموذجا لدور قامت به نفيسة

292- نصف فضة: أي: "بارة"، والبارة هي الوحدة النقدية العثمانية الأساسية. وأربعون بارة تساوى قرش صاغ واحد. دانيال كريسيليوس: المرجع السابق، ص ص 418، 419.
293- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج7، المصدر السابق، ص 461.
294- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص 267.

مرارا إزاء الذين يلوذون بها وقت الشدة؛ فلا تملك إلا أن تنجدهم متسلحة بنفوذها لدى زوجها تارة، ونفوذها لدى الفرنسيين الذين لا يردون لها شفاعة تارة أخرى.

ويمكن ملاحظة وجه شبه بين نفيسة والشيخ المهدي الذي كان يرتبط بعلاقة جيدة مع الفرنسيين وفي الوقت نفسه علاقة جيدة بالمصريين يذود عنهم قدر طاقته ويستغل نفوذه لديهم في الدفاع عنهم.

نفيسة إبّان قيادة مينو للحملة:

وبعد سبعين يوما من توقيع معاهدة الصلح بين مراد بك والفرنسيين، قُتل كليبر في 14 يونيو 1800م، وخلفه مينو في قيادة الحملة؛ فكان حريصا على استبقاء مودة مراد بك فى سبيل المحافظة على المحالفة القائمة بينه وبين الفرنسيين؛ فكتب مينو فى 24 سبتمبر من العام نفسه (بعد حوالي مائة يوم من مقتل كليبر) إلى الحكومة الفرنسية في باريس: "إن من واجب الفرنسيين تنفيذ معاهدة كليبر– مراد محافظة على شرف الوطن؛ لأن مراد الذى كان في وسعه أن يلحق الأذى بالجيش الفرنسي المحارب في معركة هليوبوليس قد امتنع عن فعل ذلك. بل ومن الواجب شراء صداقة مراد بأى ثمن". وعاد مينو فأثنى على مراد في رسالة أخرى كتبها فى اليوم نفسه 24 سبتمبر 1800م إلى وزير الحربية الفرنسي؛ امتدح مسلك مراد، وقال: "إن زوجته _ وهى أرملة على بك الكبير_ كانت تتمتع في القاهرة بكل احترام وتبجيل من أيام بونابرت نفسه"[295]. وهكذا؛ مرة أخرى نرى اسم نفيسة حاضرا في المراسلات الرسمية المهمة بين قيادة الحملة في مصر وحكومة باريس مصحوبا بعبارات التبجيل. وعلى الرغم من أن ذلك ليس مما يشرف بالضرورة، إلا أنه يشير إلى (كاريزما) نفيسة التي كانت حاضرة على نحو لافت جدا. كما تشير هذه الرسالة إلى المكانة المرموقة التي كانت تحظى بها نفيسة لدى القيادة الجديدة للحملة.

295- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص274.

ومن مؤشرات استمرار التمييز الذي حظيت به نفيسة في عهد مينو تلك الرسالة المؤرخة في 3 ديسمبر 1800م من مينو إلى الجنرال دونزلو، يخبره أنه أصدر أمرا إلى الخازن العام المواطن (استيف)، بشأن فرض دفع الرسوم الجمركية في أسيوط على كل شخص يمر بها قادما إلى مصر، ويستثنى فقط من هذه الرسوم مراد بك وأهل بيته...[296]. واستمرت تحظى بتلك المكانة حتى بعد وفاة زوجها مراد بك بسوهاج في أبريل 1801م؛ فيذكر الجبرتي أن وكيل الديوان أخبر بأن (مينو) "أرسل كتابًا إلى الست نفيسة بالتعزية، ورتب لها في كل شهر مائة ألف نصف وأربعين"[297]. وتعزية قائد جيش الاحتلال لها مؤشر إضافي لمكانتها؛ فلا تحظ كل أرملة بمثل هذا العزاء؛ بل لا توجد إشارات إلى أن زوجات مراد الأخريات حظين بمثل ذلك الاهتمام، ولا ريب أن هذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى وإنما كان لما قدمته لهم من خدمات قبل هبوط الحملة وبعده، ورغبتهم في الاحتفاظ بتلك العلاقة التي يؤدي لهم خدمات جليلة، وخصوصا أن مينو كان يسعى للبقاء في مصر وتحوليلها إلى مستعمرة فرنسية متميزة؛ فكان الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع امرأة بقامة وقيمة نفيسة ذات الجاه العريض والمكانة والنفوذ لدى المماليك والعلماء والأعيان وعموم المصريين يصب في مصلحة مشروعه الاستعماري الذي يرجو تحقيقه.

ولم يقف التقدير الفرنسي لنفيسة عند مجرد التعزية؛ بل تجاوز ذلك إلى الأمر بصرف مرتب شهري كبير كما ذكر سابقا، بل زادوا فوقه معاشا سنويا وهو الأمر الذي أكدته (كورييه دي ليجيبت) حين أوردت خبر نعي مراد بك حينما مات؛ فقالت: "مات مراد بك ...وقد أمر القائد العام مينو بأن يصرف لأرملته الست نفيسة وأرملة على بك معاش سنوى "قدره 60,000 جنيه"[298]. ومما يلفت الانتباه في أمر صرف هذا المعاش الذي خصصه الفرنسيون لنفيسة بعد وفاة مراد أنها انفردت بهذا المعاش وحدها؛ دون سائر زوجات مراد بك، ولا غرو في ذلك؛ فلم تقدم إحداهن للفرنسيين

296- مختارات من وثائق الحملة الفرنسية: المرجع السابق ص137.
297- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج4، ص236.
298- كورييه دي ليجيبت: عدد 112، المصدر السابق، ص 414. (60,000) هكذا في الأصل! والراجح أنها (60) جنيها، وليس كما قد يُفهم أنها ستون ألف جنيه.

مثلما قدمت نفيسة من خدمة جليلة، فضلا عن أنه لا تحظى إحداهن لدى الخاصة والعامة بمثل مكانتها المرموقة ومن ثم كانت العناية بها خاصة دون غيرها.

ويشير الجبرتي إلى أنه حين مات مراد بالصعيد وتم دفنه هناك؛ "أقيم عزاؤه عند زوجته الست نفيسة"[299]. فعلى الرغم من تعدد زوجاته إلا أن عزاءه لم يعقد إلا عند نفيسة ولا عجب في ذلك فهي صاحبة النفوذ والجاه الأعرض.

وبعد موت مراد اختلف رجاله من بعده فلم يسيروا على نهجه في الولاء للفرنسيين فتمردوا على أوامرهم؛ فخشيت نفيسة أن ينالها منهم أذى من جراء ذلك، بيد أنهم طمأنوها على حالها، وأنها لن تؤخذ بجريرة صنعيهم وبقيت مكانتها لديهم كما هي؛ وفي 29 مايو 1801م حضر حسين كاشف إلى قايمقام[300] بليار وأخبره أن الأمراء الذين بالصعيد خرجوا عن طاعة الفرنسيين بعد موت مراد بك؛ فركب بليار بنفسه "وذهب للست نفيسة وأمنها وطيب خاطرها وأخبرها أنها في أمان هي وجميع نساء الأمراء والكشاف والأجناد ولا مواخذة عليهن بما فعله رجالهن"[301].

وقد حُق لنفيسة أن تقلق وتضطرب وتخشى عواقب فعل المماليك المرادية التي تعد منهم؛ إذ تجدر الإشارة إلى أنه عندما عسكر الإنجليز وحلفاؤهم العثمانيون قريباً من القاهرة عظم الأمل في إمكان تضييق الخناق على الفرنسيين وجيش بليار وإرغامهم على التسليم طوعا أو كرها، وكان مما عزز هذا الأمل انضمام البكوات المماليك بفرسانهم إلى الجيوش الزاحفة آنذاك؛ فقد تم الاتفاق بين هتشنسون[302] John Hely-Hutchinson (1757–1832م) وبين عثمان بك البرديسي وعثمان بك الطنبورجي، ومحمد بك الألفى وغيرهم، على أن يبذل هؤلاء كل مساعدة ممكنة

299- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس، المصدر السابق، ص ص 328، 329.
300- قايمقام: الشخص المفوض باختصاص القائد العام في القاهرة. عبد الرحيم عبد الرحمن، حاشية تاريخ مدة الفرنسيس، المرجع السابق، ص 64.
301- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، قصور الثقافة،ج5، المصدر السابق، ص 165.
302- أرسلت إنجلترا جيشا قوامه 17500 مقاتل بقيادة (رالف أبركرومبي) Ralph Abercromby؛ لإخراج الفرنسيين من مصر؛ فوصل قبالة الإسكندرية في أول مارس 1801م، وكان هتشنسون قائد الفرقة الأولى في هذا الجيش، ثم تولى قيادته عقب مقتل أبركرومبي في المعركة أمام الإسكندرية في 21 مارس 1801م. وتمكن من محاصرة الفرنسيين حتى استسلموا. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص ص194، 204.

للإنجليز، وأن يشتركوا معهم في القتال الدائر ضد الفرنسيين، مقابل أن يضمن لهم الإنجليز استرجاع ممتلكاتهم[303]. ولهذا كانت نفيسة في حاجة إلى من يهدئ روعها وأنها لن تزر وزر بكوات المماليك الذين نقضوا معاهدة السلام التي أبرمها زوجها معهم بوساطتها.

هذا، وتزيدنا الوثائق علما بمدى ما وصلت إليه علاقة نفيسة بالفرنسيين إبان قيادة مينو للحملة؛ حيث تشير في رسالة وجهتها نفيسة إلى مينو في 6 يوليو 1801هـ إلى أنه (مينو) كان قد أرسل زوجته السيدة زبيدة[304] بصحبة ابنهما سليمان؛ لزيارة نفيسة في قصرها، وأنه كان قد أرسل إلى نفيسة مع زوجته رسالة وهدايا؛ فكتبت إليه قائلة: "بعد سلامنا وبعد دعواتنا لكي يحطيكم الله بنعمته، إذا كنتم تسألون عن أخبارنا فنحن بأتم صحة، نحمد الله ونرغب في معرفة حالة صحتكم. لقد تلقينا خطابكم وهداياكم التي أرسلتموها، فليزيد الله رخاءك ونحمد الله على صحتكم ونحن ندعوه أن تكون نهايتكم حسنة. منذ بضعة أيام جاءت السيدة زبيدة، زوجتكم لرؤيتنا مع سليمان ابنكم الغالي، ورغبنا في أن يقيموا عندنا بضعة أيام لكي يستريحوا ولكي نتحادث سويا، ولكنهم لم يستطيعوا؛ لأنهم لم يتلقوا الأمر أو الاذن من جانبكم، نحن نصلي يا صديقنا أن تستمر في إرسال الخطابات؛ لكي نطمئن على أحوالكم، وحماك الله من كل شر". ثم ختمت الرسالة بتوقيعها: "نفيسة الكبرى، السيدة الشريفة"، 24 صفر 1216هـ وبصمة ختمها يحمل حرف (ن) وهو أول حرف من اسمها الشخصي[305].

303- محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص 487

304- تزوج مينو من زبيدة بنت محمد البواب في مارس 1799م وأنجب منها ولدا في يناير 1801م، سماه سليمان مراد، على اسم سليمان الحلبي قاتل كليبر الذي كان مينو يكرهه. وسافرت زبيدة إلى فرنسا مع جيش بليار لدى جلاء الحملة عن مصر. ولكن مينو أساء معاملتها وتنكر لها وهجرها هي وولده إلى أن ماتت بها قبله. محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، المرجع السابق، ص ص 177، 541، 684، 687. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، 176- 179,

305- وثائق الحملة الفرنسية على مصر، أرشيف أوروبي، ملف رقم 35، B6-70، محفظة من 20 يونيو إلى 22 يوليو سنة 1800م، في 17 ميسيدور السنة 9 (24 صفر سنة 1216 هـ)، بدار الوثائق القومية، القاهرة.

والرسالة حافلة بعبارات المجاملة والدعوات الدينية، تماهيا –فيما يبدو– مع ادعاء مينو اعتناقه الإسلام، وزاوجه بمصرية مسلمة، ويلفت الانتباه تلك النعوت التي وصفت بها نفسها في نهاية الرسالة "نفيسة الكبرى، السيدة الشريفة". وما فيها من اعتزاز وثقة بالنفس. إضافة إلى اللغة الراقية والأسلوب السليم الذي يفصح بجلاء عن مدى ثقافتها وقدرتها على الكتابة والتعبير؛ فقد خلت الرسالة من أي كلمة عامية، على عكس كتابات الجبرتي مثلا، وهو من هو علما وفضلا إلا أن المفرادات العامية كثيرة في كتاباته على نحو ما هو معلوم.

وتكشف هذه الرسالة أيضًا عن مدى انفتاحها، إذ كسرت المحظور الشرقي السائد في ذلك الزمن بشأن تبادل المراسلات بين النساء والرجال؛ فقد كانت تتبادل الرسائل مع مينو علنًا، وتختمها بخاتمها الخاص[306].

وهكذا؛ فإذا كان بونابرت قد سبق وأرسل ربيبه (يوجين) محملا بالهدايا إلى نفيسة؛ فإنه يمكن فهم دوافع زيارة زوجة مينو إلى نفيسة محملة بالهدايا في إطار ما سبقت الإشارة إليه من رغبته في تقوية أواصر الصلة مع تلك المرأة الاستثنائية خدمة لمشروعه الاستعماري الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو لا يدري.

وفي 27 يونيو 1801م وقع بليار اتفاقية الجلاء عن مصر مع العثمانيين والإنجليز في القاهرة، ثم انعقد الديوان لآخر مرة في 6 يوليو 1801م؛ (يلاحظ أنه اليوم نفسه الذي وجهت فيه نفيسة إلى مينو رسالتها التي سبق الإشارة إليها) وكان الجنرال مينو يجهل توقيع بليار لاتفاقية الجلاء هذه، وكان يظن –وهو في الإسكندرية– أن الحرب لا زالت مستمرة؛ فأرسل إلى بليار رسالة في 30 يونيو 1801م، وقد وردت هذه الرسالة قبل انعقاد آخر جلسة للديوان، ومع أنها صارت بلا قيمة بعد توقيع على الصلح؛ فإن جيرار Girard قومسير (وكيل) الديوان أمر المترجم بتلاوتها على الأعضاء، وتتضمن دعاء لهم، وإخبارا بأن جيوش الجمهورية الفرنسية قد انتصرت في أوروبا، ومبشرا بنصر قريب لهم فى مصر...! ووصاهم بزوجته زبيدة وولده سليمان

306 -**Kandil, D. A: op. cit, p.23.**

إحسانا، وأبدى أسفه لوفاة مراد بك وأثنى على فضائله، وعزى الست نفيسة زوجته قائلا: "وتأسفنا جدا برحلة المرحوم مراد بك في انتقاله إلى البقاء، ومعلوم فضايلكم أننا أرضينا بإنعام علوفة توجه على عمدة العفايف حضرة الست نفيسة خاتون لما جرت الحكومة الفرنساوية إلى أصدقائها"[307].

ولا ريب في أن ورود اسم نفيسة في المراسلات الرسمية بشكل متكرر حتى آخر رسالة رسمية تتلى في الديوان فيه من الإشارة ما يكفي للدلالة على الحضور اللافت لها في تلك الأحداث الجسام في تلك الحقبة المضطربة! وليس مجرد ذكر بل أمره بتخصيص راتب لها لكونها صديقة للفرنسيين مصحوبا بنعوت التبجيل "عمدة العفايف حضرة الست نفيسة خاتون" على حد قوله!

لقد زاد تقدير الفرنسيين لنفيسة بعد وساطتها في توقيع معاهدة السلام مع مراد وظلوا يحملون لها هذا الجميل حتى أواخر أيامهم في مصر؛ إذ أرسل الجنرال بليار حاكم القاهرة قبل مغادرة القوات الفرنسية لمصر رسالة إلى الصدر الأعظم يوصيه بها خيراً ويؤكد له على ضرورة احترام الأتراك لعهود الفرنسيين مع نفيسة، وما قدموه لها بمنحها (التزاما) يضم عدة قرى مختلفة، ويؤكد على ضرورة الحفاظ على أملاكها، وعدم إلحاق أي ضرر بها[308]!

وهكذا؛ فبعد توصية مينو بنفيسة تأتي توصية بليار إلى الصدر الأعظم بنفيسة خيرا؛ وهذا شيء لافت لا ريب؛ بيد أن اللافت أكثر هو ما ورد في الوصية من تفاصيل تتعلق ببعض الامتيازات المادية التي منحها لها الفرنسيون، والتي كانت متمثلة في منحها التزام بعض القرى، فلقد سبقت الإشارة إلى ما خصصه لها الفرنسيون من راتب على أثر توقيع معاهدة السلام مع زوجها، ثم زادوا على ذلك ما خصصوه لها من معاش عقب وفاته، ولكن هذه الوثيقة تكشف عن أنه كان هناك المزيد من العطايا لنفيسة غير

307- الجبرتي:عجائب الآثار، المصدر السابق،ج 5، ص ص 188-189. الرافعي: ج2، ص 217-219.
308- وثائق الحملة الفرنسية على مصر، أرشيف أوروبي، ملف رقم B6-134 ، محفظة من 20 إبريل1801 إلى 22 مايو 1801م ، دار الوثائق القومية، القاهرة.

تلك الأموال؛ متمثلة في منحها امتياز بعض القرى. وقد حرص بليار على التأكيد في الوصية على عدم مصادرة هذه الأملاك وضروة أن تظل محتفظة بها.

لقد كانت نفيسة قبل هبوط الاحتلال الفرنسي تملك الكثير من الثروة ولكنها فقدت الكثير منها بسبب الإتاوات والمصاردات التي طالتها وطالت غيرها، ولكن بعد توقيع المعاهدة كف الفرنسيون عن ابتزازها ماديا؛ بل أخذوا في منحها الكثير وهو ما يعني أنه حينما غادرت الحملة مصر كانت نفيسة تملك الكثير من الثروة ستدخل بها مرحلة جديدة من تاريخ مصر فهل ستظل محتفظة بها وهل ستزيد عليها أم هل ستنقص حتى تتلاشى؟

وعلى أية حال فقد جلا الفرنسيون عن القاهرة في منتصف يوليو 1801م أي بعد أقل من ثلاثة أشهر من وفاة مراد في إبريل 1801م، فكيف سيكون حالها في المرحلة الجديدة من تاريخ مصر؟

(3)
نفيسة (وكيلة المماليك) في فترة الاضطرابات السياسية
(1801-1805م)

يمكن القول إن عام 1801م كان حاسما في سيرة نفيسة؛ حيث شهد منعطفا مهما في حياتها؛ فبعد أن عاشت في كنف علي بك الكبير ثم مراد بك عقودا معــززة موقــرة، جاء الاحتلال الفرنسي؛ فتوالت الحوادث وتتابعت الكوارث على مصر وشعبها والمماليك جزء منه؛ فأصابها بعض ما أصابهم؛ فتعرضت للابتزاز المادي والمضايقات أكثر من مرة. بيد أن أحوالها أخذت في التحسن حين عقد الفرنسيون بواسطتها معاهدة سلام مع زوجها (5 أبريل 1800م) كوفئت على أثرها بامتيازات خاصة، وبدا أن أيام سعدها قد أطلت من جديد، وعاشت بعد هذا الصلح حوالي عام (منذ توقيع المعاهدة في أبريل 1800م حتى أبريل 1801م الذي توفي فيه زوجها) في عز واستقرار.

ولكن حمل لها عام 1801م نذيرا ببدء منحى هبوطها من فوق قمة المجتمع والنفوذ؛ فبعد وفاة زوجها بدأت هوة الانقسام بين المماليك تتسع بمن فيهم أتباع زوجها، وعلى الرغم من أن معاملة الفرنسيين لها لم تتغير؛ حيث لم يأخذوها بجريرة انقلاب قيادة مماليك زوجها عليهم، إلا أن أمورها سارت باطراد نحو هبوطها من القمة إلى السفح؛ فبعد موت زوجها -بحوالي شهرين فقط- جلا الفرنسيون عن القاهرة (في يونيو1801م)، ودخلها العثمانيون الناقمون على المماليك. وحاولت نفيسة أن تستنقذ جماعتها (المماليك) -تلك المؤسسة العريقة التي تدين لها بالفضل- من أن تهوي إلى دركات التشرذم والضياع؛ فسعت للشفاعة لهم لدى ذوي النفوذ كالفرنسيين؛ لعلها تنجح في إعادتهم إلى صدراة مشهد النفوذ والسلطة في تلك الحقبة الموارة بالقلاقل؛ فتصرفت كــ(وكيلة) معتمدة عن المماليك تتحدث باسمهم وتتواصل مع الأطراف المختلفة؛ فكيف حدث هذا؟ وهل ستنجح أم لا؟

وللإجابة عن هذا؛ فلا مناص من تتبع ما جرى من جماعة المماليك في تلك الحقبة؛ حيث كان له تأثيره على نفيسة بشكل مباشر على نحو ما سنرى.

في الفترة الزمنية بين عامي 1801-1805م سعى كل من الإنجليز والفرنسيين سعيا حثيثا للاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر؛ فعملت لندن من جهة على إنشاء حكومة مملوكية قوية مستقرة تستطيع الدفاع عن مصر ضد الغزو الفرنسي الذي توقع الإنجليز حدوثه مرة ثانية. وسعت باريس من جهة أخرى لتأسيس النفوذ الفرنسي بعد أن كاد يتلاشى كلية عقب إجلاء الفرنسيين من مصر. وكان مقصد القنصل الأول (نابليون) استئناف العلاقات التجارية بين البلدين، وإبطال مساعي الإنجليز ومنعهم من أن يكون لهم أي نفوذ سياسي في مصر. وعلى الرغم من أن الإنجليز والفرنسيين على السواء راعوا في نشاطهم دائما عدم تنفير العثمانيين (أصحاب السيادة الشرعية على مصر)، واستبقاء علاقات المودة معهم، الأولون (الإنجليز) حتى لا تنضم الدولة العثمانية إلى فرنسا، والأخيرون (الفرنسيون) حتى ينحاز إليهم السلطان في الصراع القائم بينهم وبين إنجلترا؛ فقد ظهر أن الفريقين كانا يعتقدان أن المماليك وحدهم هم القوة الفعالة في مصر والتي في وسعها أن تحقق مآرب من يتمكن من كسبهم إلى جانبه. وعلى ذلك؛ فقد انحصر نشاط السياستين الإنجليزية والفرنسية في توثيق الصلات بالبكوات[309]. وكانت نفيسة بمثابة (وكيل) المماليك ومن ثم كانت تحت الضوء، وفي بؤرة اهتمام تلك القوى الإمبريالية على نحو ما سنرى.

ولقد سعى الجنرال الإنجليزي هتشنسون قبل أن يزحف على القاهرة لطرد الفرنسيين في ضم المماليك من خلفاء مراد بك إلى صفوفه، وكانوا في ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد-كليبر؛ فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم السابقة في مصر إذا انحازوا إليه؛ فرأى المماليك أن صفقة الإنجليز أربح؛ حيث إن نجم الفرنسيين آخذ في الأفول؛ فنقضوا معاهدة مراد-كليبر وانضموا إلى صفوف الإنجليز، الذين رغبوا في أن يتخذوهم صنائع لسياستهم في مصر، ولهذا توثقت عرى العلاقات بين المماليك

[309]- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص174.

والإنجليز، ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين، أبدى هتشنسون عطفا كبيراً على مطالب المماليك؛ لاسترجاع السلطة التي كانت لهم قبل الاحتلال الفرنسي[310].

وفي هذا الإطار يمكن فهم ما ذُكر من أن المؤرخ والمستشرق النمساوي جوزيف فون همر Joseph von Hammer (1774–1856م)[311] قد قابل الست نفيسة بالقاهرة سنة 1801م عندما كلفه السير سيدني سيمث بتوصيل بعض الهدايا إليها[312]. وهذه الهدايا الإنجليزية لنفيسة لم تكن قطعا لوجه الله تعالى؛ إنما رغبت لندن أن تخطب ود نفيسة تزلفا إليها لمكانتها المرموقة وشخصيتها المؤثرة على المماليك الذين تنظر إليهم إنجلترا على أنهم القوة الأهم في مصر والتي من خلالها يمكن للندن تحقيق أغراضها. وهذا يُظهر أن سمعة نفيسة ونفوذها بلغا مكانا عَليًّا حتى صارت معروفة لدى الدوائر السياسية المهتمة بمصر وعلى رأسها الإنجليز.

ولقد بذل اللورد إلجين Elgin سفير بريطانيا في إسلامبول مساعي من أجل إقناع الباب العالى بأن المماليك هم القوة التي في وسعها الدفاع عن مصر بعد خروج الفرنسيين منها، وطلب من شلبي مصطفى أفندي[313] وزير الخارجية العثمانية (يعرف اختصارا الريس أفندى) إعطاءهم حكم الصعيد بعد جرجا؛ مكافأة لهم على نشاطهم فى محاربة الفرنسيين. وتوسط لهم الجنرال هتشنسون –في الوقت نفسه– لدى الصدر الأعظم فى القاهرة[314]، حتى يصفح الباب العالى عن البكوات ويعيد إليهم أملاكهم

310- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، 229-232.

311- شارك همر في الحملة البحرية البريطانية العثمانية التي استهدفت إخراج نابليون وقواته من مصر، وعمل مترجماً لقائدها الأدميرال وليام سيدني سميث، وشهد حصار الإسكندرية واستسلام القوات الفرنسية في سنة 1801م.

312- محمد رفعت رمضان: المرجع السابق، ص 197.

313- أفندى: مأخوذة من العامية اليونانية "أفنديس، ودخلت إلى اللغة التركية الأناضولية منذ القرن 13م. استعملها العثمانيون لقباً لبعض كبار الموظفين؛ كقاضي إسلامبول، وشيوخ الإسلام، ورؤساء الديانات الأخرى. ويلقب الضباط رسمياً بلقب أفندى حتى رتبه البكباشي. وكان يقال لزوجة السلطان قادين أفندى، وكان الروزنامجي في مصر هو رئيس طائفة الأفندية أى العاملين في الدولة والقائمين بالأعمال الكتابية، كما أطلقت في مصر على نقيب الأشراف، وكان المصريون يُطلقون على محمد على باشا وعلى الباشاوات العثمانيين الذين تولوا الحكم قبله لقب أفندينا. أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص ص 20 ،21.

314- كانت الدولة العثمانية قد أرسلت إلى مصر جيشين؛ الأول: برا بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وعدده حوالي 20 ألف مقاتل، والثاني: بحرا بقيادة حسين قبطان باشا قوامه ستة آلاف

والأقاليم التي كانت في أيديهم. ولكن رغبة المماليك فى استرجاع نفوذهم وسلطانهم اصطدمت برغبة الباب العالى في إرجاع مصر ولاية عثمانية، وعزمه ليس على القضاء على نفوذ المماليك وإقصائهم عن الحكم فقط، بل وإبعادهم عن البلاد أيضا. حتى إن (هتشنسون) شكا إلى الريس أفندى فى الأسبوع الثالث من شهر يوليو 1801م من مسلك الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا إزاء المماليك؛ إذ لم يكتف بمنع البكوات – مثل إبراهيم بك– من الإقامة بمنازلهم في القاهرة بل (زعم) طردهم منها وطرد الست نفيسة من قصرها[315]!

وقبل الاسترسال ينبغي التوقف أمام خبر طرد العثمانيين لنفيسة من بيتها؛ وهو ما أورده كل من هنري لورنس ومحمد فؤاد شكري، وانفرد الأخير بتحديد تاريخ طرد نفيسة في الوقت المشار إليه، وهذا التاريخ يوافق النصف الأول من شهر ربيع الأول 1216هـ، وبالعودة إلى يوميات الجبرتي نجد أنه ذكر أخبارا كثيرة مثل: تزيين الأسواق للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وخبر صلاة الصدر الأعظم الجمعة في الأزهر، وطلبه سلفة من التجار...إلخ، وذكر تفاصيل أخرى كثيرة صغيرة[316]. لكنه لم يذكر خبر طرد إبراهيم بك ونفيسة من بيتهما؛ فهل لو كان قد حدث حقا؛ فكيف أغفل الجبرتي ذكره! لا سيما أن إبراهيم بك، ونفيسة من الشهرة وعلو المقام بمكان؛ فكيف يهتم بذكر تفاصيل كثيرة أقل أهمية من مثل هذا الحدث! ثم يُغفل ذكر حدث بحجم طرد إبراهيم بك ونفيسة من قصرهما إن كان قد حدث حقا؟!

واللافت أنه في تلك الفترة المشار إليها وما تلاها، قد وقعت أحداث توحي بعكس ما أورده شكري ولورنس؛ حيث ذكر الجبرتي أن أمراء المماليك دخلوا مصر صحبة الصدر الأعظم، وأنه قد حصل عفو عام عن المتعاونين مع الفرنسيين؛ حيث نودى في 19 يوليو 1801م بألا يتعرض أحد بالأذية لنصراني أو يهودى؛ فإنهم "من

من خيرة الجنود الانكشارية. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص ص 205، 211.

315- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص10. وهنري لورنس: المرجع السابق، ص 596.

316- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج5، المصدر السابق، ص ص201- 208.

رعايا السلطان والماضي لا يُعاد". بل ذَكر أنه كُتبت في 13 أغسطس 1801م فرمانات باللغة العربية تحث على عدم أذية أهل الذمة (اليهود والنصارى)، والتُمِسَت الأعذار لهم بأن الذي حملهم على تعاونهم مع الفرنسيين كان رغبتهم في "صيانة أعراضهم وأموالهم"! ثم يشير الجبرتي إلى تولية محمد بك الألفي إمارة الصعيد من قِبل الصدر الأعظم. واللافت أنهم أرسلوا في جلب حريم الأمراء من الشام! وجلبوهن فعلا بما فيهن جثة زوجة إبراهيم بك"[317]! الذي يُقال إنه مُنع من السكن في قصره! وفي الوقت الذي قيل فيه أيضا إنه تم طرد نفيسة من قصرها! ومن ثم يبدو بجلاء أن الفترة التي أعقبت دخول العثمانيين القاهرة ساد فيها الوئام (الظاهري)، بين العثمانيين والمماليك، وقد زادت على الشهرين ولم يبدأ العثمانيون في القاهرة والإسكندرية في إظهار نواياهم السلبية تجاه المماليك إلا في شهر جمادى الآخرة الذي يوافق معظمه شهر أكتوبر 1801م، وليس يوليو.

واللافت أن (شكري) نفسه يذكر ما يناقض خبر طرد إبراهيم ونفيسة من قصرهما؛ حيث أورد أن العثمانيين منذ تسلموا زمام الأمور في القاهرة أخذوا يتوددون إلى البكوات ويتظاهرون بإعادة السلطة إليهم؛ فنصبوا إبراهيم بك شيخا للبلد، وقلدوا الألفى أميرا على الصعيد[318]! ولا يستقيم التظاهر بالتودد الذي وصل إلى حد تعيين إبراهيم شيخا للبلد والألفي أميرا على الصعيد؛ في نفس التوقيت الذي حدده شكري لطرد إبراهيم ونفيسة!

هذا، وقد روى الجبرتي خبر مكر الصدر الأعظم بالمماليك في 11 جمادى الآخرة 1216هـ (19 أكتوبر 1801م) حينما ألقى القبض على إبراهيم بك الكبير وعدد من الأمراء وحبسهم...وأرسل لإلقاء القبض على محمد بك الألفى بالصعيد، وسعى لإلقاء القبض على المماليك، وتوعد من أخفاهم أو آواهم[319]. وبعد يومين وقعت

317- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج5، المصدر السابق، ص ص202، 205 ،208، 212، 213، 374.
318- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج2، المرجع السابق، ص468.
319- نفسه، ص374.

مؤامرة حسين باشا قبطان[320] في الإسكندرية بالمماليك هناك؛ فقُتل عثمان بك الطنبورجي وغيره من البكوات، وألقي القبض على الكثير منهم، وفر جرحى المماليك إلى الإنجليز الذين استشاطوا غضبا وأصروا على إطلاق سراحهم؛ وتسلم جثث القتلى لدفنهم؛ فتم لهم ذلك[321].

وباستعراض ما ذكره نقولا الترك من أحداث في الفترة الزمينة المشار إليها؛ فلا أثر فيها ولا بعدها لأي خبر عن طرد إبراهيم بك أو نفيسة من قصرهما؛ بل إن مجمل ما ذكره يتفق مع ما ذكره الجبرتي من دخول الصدر الأعظم القاهرة وبصحبته أمراء المماليك وفصَّل بذكر أسمائهم؛ فكان إبراهيم بك أول من ذكرهم؛ ومجمل ما ورد لديه يفيد بأن هذه الفترة ساد فيها الوئام بين العثمانيين والمماليك (حتى لو كان ظاهريا) وحدث فيها عفو عام كما سبق الذكر، ثم فصَّل نقولا الترك أكثر في ذكر (مؤامرة) الصدر الأعظم بالمماليك حينما ألقى القبض عليهم في القاهرة وعلى رأسهم إبراهيم بك لكي يرسلهم إلى السلطان في العاصمة العثمانية؛ بزعم أن السلطان سوف ينعم عليهم بالوظائف ويرتب لهم المعايش، ويذكر غضب هتشنسون من هذا الصنيع وطلبه إطلاق سراحهم مهددا بالحرب- الصدر الأعظم الذي اضطرب لذلك؛ فاستدعى القنصل النمساوي روزيتي للتوسط لدى الإتجليز لحل الأزمة؛ فنجح في إخماد الأزمة المستعرة وأُطلق سراحهم جميعا، وكانوا حوالي خمسمائة وتوجهوا إلى نواحي الصعيد وعاد إبراهيم بك وحده ليستوثق من دعم الإنجليز للمماليك فأكدوا له ذلك؛ فعاد ولحق بالمماليك في الصعيد...[322].

وبناء على ما سبق؛ يبدو بجلاء أن خبر طرد إبراهيم ونفيسة من بيتهما -في التاريخ الذي ذكره شكري (الأسبوع الثالث من يوليو 1801م) أي عقب دخول الصدر الأعظم القاهرة مباشرة- مشكوك في صحته، والذي حدث من إجراءات عنفية ضد

320- قبطان باشي: رتبة عسكرية عثمانية يحملها قائد الأسطول العثماني، ويسمى ناظر البحرية (عثمانلي بحرية ناظري) عبد العزيز جمال الدين: حاشية مذكرات نقولا الترك، المرجع السابق، ص 118.

321- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، ج5، المصدر السابق، 376.

322- نقولا الترك: المصدر السابق، ص ص126-133.

المماليك وقعت بعد ذلك بما يزيد على الشهرين تمثلت في القبض على إبراهيم وغيره ومطاردة من لم يتم إلقاء القبض عليهم؛ فلم يكن الهدف هو طردهم وتركهم أحرارا؛ بل كان المطلوب تقييدهم وإرسالهم إلى إسلامبول واستئصال شأفتهم من مصر. وليس ثمة أي خبر عن طرد نفيسة من بيتها مطلقا والراجح أنه لم يحدث ولو حدث لما فات الجبرتي ونقولا الترك أن يذكراه، كما سبقت الإشارة.

وثمة دليل آخر يدعم كثيرا الشك في صحة خبر طرد الصدر الأعظم لنفيسة من منزلها عقب دخوله القاهرة؛ وهو تقريع نفيسة لخورشيد باشا لدى مواجهتها له حين اعتقلها في 1804م – سنعرض لتلك الحادثة بالتفصيل لاحقا– قائلة: "طول ما عشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم والسلطان ورجال الدولة...أما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم"[323]. ويبدو بجلاء من هذا أن نفيسة كانت تفخر بما حظيت به من تقدير طول حياتها من رجالات الدولة العثمانية بدءا من السلطان ورجال الدولة والولاة العثمانيين، ولو كان خبر إهانتها من قبل الصدر الأعظم صحيحا لما فخرت بتقدير رجالات الدولة لها بهذا الشكل الذي لم تستثني فيه أحدا.

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم العفو العام الذي أُعلن عنه بعد جلاء الحملة؛ فقد جرت عمليات عقاب للعديد ممن تورطوا بالتعاون مع الفرنسيين رجالا ونساء وصلت لحد القتل مثل زينب البكرية التي انزوى أبوها في بيته بعد عزله من نقابة الأشراف إلى أن مات[324]؛ إلا أنه يُستبعد أن يكون قد نال نفيسة بعض ما نال هؤلاء؛ لمجرد أنها كانت أرملة الأمير المملوكي مراد الذي عقد صلحا مع الفرنسيين كانت هي وسيطة فيه.

ومهما يكن من أمر؛ فإن سياق الأحداث يظهر بجلاء أن هذا الطرد لو حدث؛ فإنه لم يَدُمْ بسبب شفاعة الشافعين (الذين أرسلوا لها الهدايا) من حلفاء العثمانيين وهم الإنجليز الذين كانوا يتظاهرون بأنهم الصديق الحميم للمماليك، وأنها عادت لبيتها الذي ظل قِبلة يؤمها الكثير من أهل البلاد أو الأجانب على السواء.

323- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص 308
324- أندريه ريمون: المرجع السابق، ص 250-255.

والراجح أن (لورنس) و(شكري) قد اعتمدا على مصادر أجنبية في ذلك، والراجح أيضا أنها غير دقيقة، فلربما أراد (هتشنسون) أن يبالغ في تبشيع مسلك الصدر الأعظم في رسائله إلى وزير الخارجية العثماني؛ فذكر أنه طرد تلك المرأة ذات المكانة المرموقة من بيتها؛ ليدلل على تطرف مسلك يوسف ضيا باشا؛ لعل هتشنسون يستميل إليه وزير الخارجية العثماني في تحقيق ما يرغب فيه من تخفيف الضغط على المماليك وتحسين السلوك العثماني إزاءهم.

ولكن لو ذهبنا مع الاحتمال الأضعف وهو صحة هذا الخبر؛ فما علة هذا الموقف العثماني المتشدد من نفيسة؟ يمكن القول إنهم كانوا يعرفون دورها في الوساطة في عقد الصلح بين زوجها والفرنسيين وخصوصا أنه أحجم عن نصرتهم وخذلهم حين وقف على الحياد عند نشوب موقعة عين شمس (هليوبوليس) وقد كان قريبا منهم على مرمى حجر، وأن زوجها ظل وفيا للفرنسيين (خائنا للعثمانيين) حتى وفاته، كما سبق الذكر. فلعل هذه المواقف لزوجها كانت وراء موقف العثمانيين منها، وما فعلوه معها كان صدى لدورها في عقد الصلح بين زوجها والفرنسيين. واللافت أنه لم يُنقل أن العثمانيين طرودوا أي زوجة من زوجات أمراء المماليك من منازلهم بمن فيهن أرامل مراد الأخريات (ضرائر نفيسة)؛ التي نص (لورنس) و(شكري) على طردها هي بالذات؛ حيث لم يكن لأولئك الأخريات أي دور سياسي بارز في تلك الأحداث العاصفة التي كانت تمر بها البلاد.

على أية حال؛ فقد تجمع المماليك الناجون في الجيزة؛ حيث تحالفوا مع الإنجليز الذين استمروا يؤيدونهم ويناصرونهم؛ حتى إن السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807م) ما لبث أن بعث بكتاب شخصى إلى ملك إنجلترا جورج الثالث George III (1760-1820م) في 23 نوفمبر 1801م يرجوه باسم الصداقة والمحالفة التي بينهما أن يأمر قواده وضباطه في مصر بأن يكفوا عن إعطاء حمايتهم للبكوات وعن إصرارهم على تمكينهم منها، ويكفى أن نال معظمهم العفو عن جرائمهم وعصيانهم، وأنه رتب

لهم الوظائف والمعاشات عند دخولهم في خدمة السلطان. وقال إن خروج البكوات من مصر مبعث ارتياح له، كما كان خروج الفرنسيين منها باعثا لارتياحه[325].

وتجدر الإشارة إلى أنه في إطار حربه على المماليك فرض الباب العالي في بداية عام 1802م حظرا صارما علي تجارة الرقيق الأبيض من القوقاز إلى مصر[326]؛ في مسعى واضح لتجفيف أحد أهم منابع قوتهم وهو تكاثرهم بالشراء. وكانت رغبته الواضحة تلك فى التخلص منهم وتحطيم قوتهم، قد قضى على كل أمل في حدوث أى تفاهم بين العثمانيين والمماليك، ومقدمة لقيام صراعات في البلاد وبداية عهد من الفوضى السياسية جعلت من المتعذر إنشاء الحكومة الموحدة القوية التي تستطيع في نظر الإنجليز خصوصاً – حماية مصر من الاعتداء الخارجي إذا تجدد، بل وأفسحت هذه الفوضى السياسية ذاتها المجال لتدخل كل من الدولتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا في شؤون مصر لخدمة مآربهما الخاصة[327].

نفيسة وسباستياني Sebastiani[328]:

هذا، وقد غادر القبطان حسين باشا مياه (أبوقير) إلى إسلامبول في أواخر نوفمبر 1801م، ثم تبعه الصدر الأعظم يوسف ضيا بحوالي شهرين (في 8 فبراير 1802م)، وتولى محمد خسرو باشا السلطة في مصر[329]. وفي الشهر التالي لمغادرة الصدر الأعظم مصر أُبرم صلح (أميان) Amiens بين فرنسا وإنجلترا وهولندا وأسبانيا (في 27 مارس 1802م)، وكان من شروطه جلاء الإنجليز عن مصر، لكنهم رغم عهودهم أخذوا يماطلون في الجلاء ويعملون باتفاقهم مع المماليك على إطالة أمد

325- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص 16.
326- نفسه، ج2، ص357. وناصر سليمان: المرجع السابق، ص111.
327- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ج1، ص 17.
328- سباستياني: كولونيل من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم في مهمات سياسية، وقد عهد إليه برحلة سياسية إلى الشرق وخاصة في مصر والدولة العثمانية سنة 1802م ورفعه إلى درجة قائد فرقة، ثم عينه سفيراً لفرنسا فى إسلامبول، وبقى في هذا المنصب إلى سنة 1807م. عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج2، 229-232.
329- نفسه، ص ص17 و18

احتلالهم، وكان نابليون ينظر بعين القلق إلى مماطلة الإنجليز في الجلاء عن مصر؛ خشية رسوخ قدمهم فيها، وما يستتبعه من بسط نفوذ إنجلترا وسيطرتها على حوض البحر المتوسط والبلاد المفضية إليه[330]؛ فعين في أكتوبر 1802م الكولونيل سباستياني؛ وزيرا مفوضا؛ ليراقب موقف الإنجليز وليتعرف نياتهم وليدرس أحوال مصر؛ فجاء سباستياني إلى الإسكندرية خلال شهر أكتوبر 1802م، وطالب الجنرال ستيوارت Stewart قائد القوات البريطانية في البحر المتوسط بالجلاء عنها، لكنه رأى منه العزم على البقاء، وألفى الإنجليز غير مكترثين لعهودهم! ولما علم المصريون أن سباستياني قادم لاستعجال الإنجليز في الجلاء عن البلاد قابله كبراؤهم وعلماؤهم بالترحاب، ونُقل أنه ذكر في تقريره الذي رفعه إلى نابليون بعد ذلك مقدار ما لقيه منهم من كرم الوفادة، وذكر أسماء كبراء مصر الذين قابل بعضهم[331]. وكان على رأسهم الوالي العثماني خسرو باشا الذي قابله بالحفاوة والإكرام[332]. وأحدثت زيارة سباستياني ضجة في مصر، وأخذ الناس يخوضون في حديثها[333]. وقد أشار الجبرتي إلى تلك الزيارة وما صحبها من مظاهر الحفاوة والتقدير من قِبل خسرو باشا، وأنه قبل سفره لقي روزيتي القنصل النمساوي في القاهرة[334]. وتفصيل ذلك أنه عندما وصل إلى القاهرة بصفته وزيرا مفوضا من القنصل الأول في الليفانت Le Levant (بلاد الشرق) في 25 أكتوبر 1802م التقى خسرو باشا، وأبلغه عزمه على الاجتماع بمشايخ القاهرة، ونفيسة أرملة مراد بك[335]. وفي 27 أكتوبر بدأ سباستياني زياراته بشيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي، وفي اليوم التالي 28 أكتوبر قام بزيارة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، وبعد أن التقى هذين الزعيمين زار في 29 أكتوبر الست نفسية

330- عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج2، ص ص 270، 271.
331- نفسه، ص ص 270، 271.
332- ومرد ذلك لأن العلاقات بين الدولة العثمانية وإنجلترا كان قد اعتراها حينئذ شيء من الجفاء والفتور لتلكؤ الإنجليز في الجلاء عن مصر، ومعاونتهم المماليك؛ فاتجه الباب العالي إلى مصادقة فرنسا. نفسه، ص ص 270، 271.
333- نفسه، ص ص 270، 271.
334- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص 119، 120.
335- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص ص 33-39. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الرحلة القومية، المصدر السابق، ج2، ص 254.

التي ورد أنه كان في عزمها أن تبادر هي إلى زيارة سباستياني في بيته، ولكنه سبقها بالزيارة، وقد اشتكت بشدة عند اجتماعه بها من مظالم العثمانيين وألحت عليه في الرجاء أن يعمل لإعادة حكومة البكوات الذين يحفظون في نظير ذلك للفرنسيين وللقنصل الأول (نابليون) حسن صنيعهم إلى أبد الآبدين؛ فأبلغها سباستياني رغبة بونابرت واعتزامه التدخل والتوسط من أجل الوصول لإنهاء الخلافات وحلول السلام بين البكوات والباب العالي. وقد وصف سباستياني في تقريره نفيسة بأنها كانت "بمثابة الوكيل لهم (المماليك) في القاهرة"[336]!

وهذا الوصف الذي نعت به سباستياني نفيسة (وكيل المماليك) في تقريره إلى بونابرت؛ يعد وصفا دقيقا لا مبالغة فيه؛ حيث إن المماليك بعد وفاة زوجها انفرط عقدهم؛ إذ تولي قيادتهم من بعده عثمان بك الطنبورجي؛ فلم يكن لديه (كاريزما) تجمع شمل المماليك المرادية حوله؛ فضلا عن هذا؛ فقد لقي حتفه في الإسكندرية –كما سبق الذكر في مكيدة حسين باشا قبطان– ومعه عدد من أهم البكوات؛ فوقع التحاسد بين المماليك المرادية وخصوصا بين أكبر زعيمين فيهم وهما الألفي والبرديسي، ونظرا لمكانة نفيسة الكبيرة بين مماليك زوجها الراحل؛ فقد كانت تمثل واسطة العقد المنفرط، وكانت تمارس نفوذها عليهم، وقد كانوا يجلونها على نحو ما ذُكر سابقا، وما سنرى لاحقا؛ فكانت نفيسة تتصرف بثقة كوكيلة عنهم وتتفاوض باسمهم ويتعامل معها ممثلو الدول الأجنبية على هذا الأساس مثل الوزير المفوض الفرنسي سباستياني الذي كان على علم تام بمكانتها لدى المماليك والشعب وزعمائه على السواء؛ فلا غرو إذن أن يكون بيتها قبلة يؤمها أولئك القاصدون، ويوضع اسمها جنبا إلى جنب مع كبار الوجهاء في مصر الذين لهم نفوذ وكلمة في مجريات الأحداث مثل شيخ الأزهر ونقيب الأشراف وفي هذا ما يدل على ما كانت تحظى به من مكانة ونفوذ صار في غني عن مزيد بيان.

وقد بدا بجلاء من خلال تقرير سباستياني رؤية نفيسة للأوضاع في مصر، من حيث المشكلة والحل من وجهة نظرها، المشكلة: تتمثل في أعداء المماليك وهم

[336]- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص ص 33-39.

العثمانيون الذين عاثوا حين عادوا في البلاد فسادا، والحل: في "عودة الحكم إلى المماليك" كما كانوا، ولكنها تدرك أن المماليك بمفردهم ودون مساعدة خارجية من دولة كبيرة لهم لن يستطيعوا أن يستعيدوا سلطانهم السابق، ولهذا بذلت جهدها في التواصل مع الفرنسيين ومراسلة نابليون (سيرد ذكر ذلك) لتحقيق تلك الغاية؛ فهل يُعَدُّ هذا انحياز منها لجماعتها؟ يمكن الإجابة بنعم؛ لأن المماليك لم يكونوا في حكمهم لمصر مثالا في العدل والرحمة بالشعب! ويمكن ألا تكون منحازة؛ لأن ممارسات العثمانيين الجائرة آنذاك كانت أشد وطأة على الناس من ممارسات المماليك؛ فلعل لها عذرا في ذلك من باب أن المماليك كانوا أقل ظلما من العثمانيين.

وبناء على تلك الرؤية؛ فقد رجت نفيسة (سباستياني) رجاء حارا أن يتدخل لصالح المماليك معطية إياه وعدا نيابة عن المماليك أنهم سيحفظون لنابليون والفرنسيين هذا الجميل أبد الدهر. ولا يعطي مثل هذا الوعد إلا من كان قادرا على الوفاء به عادة، ومن ثم يبدو أنها كانت تعطيه وهي تثق بقدرتها على تحقيقه وتعلم أن المفوض الفرنسي يتلقى كلامها بتقدير كونها امرأة مسؤولة عما تقول ولديها من المكانة ونفاذ الكلمة ما يمكنها من ذلك. ويبدو بجلاء من هذا الرجاء أن نفيسة كان لديها رغبة جامحة في استنقاذ جماعتها، ويمكن القول: إنها كانت ترغب أيضا في تخليص المصريين من مظالم العثمانيين، وليس في هذا مبالغة؛ فسيرتها في العطف على المصريين توحي بحبها الخير لهم وسعيها لدفع الأذى عنهم قدر طاقتها. ولكن هل لو كان العثمانيون حين عادوا للحكم بعد جلاء الاحتلال الفرنسي ساروا في الناس بالقسطاس المستقيم؛ فهل كانت نفسية لترضى بذلك، ولا تسعى لاستعادة جماعتها للحكم والنفوذ؟ ولا يمكن الجزم بإجابة قاطعة على هذا التساؤل.

ومن ناحية أخرى؛ فقد أثارت بعثة سباستياني إلى القاهرة انزعاج القائد الإنجليزي الجنرال ستيوارت، وخشي آثارها حين علم رغبة نابليون في التوسط لإنهاء

الخلافات بين الباب العالي والبكوات[337]! وحُقَّ له أن ينزعج؛ فلقد رأى سعي سباستياني لكسب مودة البكوات ولهذه الغاية التقى الست نفيسة، وتراسل مع البرديسي (الذي تزعم قيادة المماليك المرادية بعد مقتل عثمان الطنبورجي في الإسكندرية كما سبقت الذكر)؛ الأمر الذي وصف بأنه "بات يهدد بفشل سياسة الإنجليز في مصر"[338]. إلى هذا الحد كان لقاء الوزير المفوض الفرنسي بنفيسة وكيلة المماليك، مزعجا للإنجليز وعُدَّ مما يهدد بفشل سياستهم في مصر؟!

نفيســة وماثيو دلسـبس Mathieu Delesseps:

ومن دلائل نفوذ نفيسة ودقة وصف الوزير المفوض الفرنسي سباستياني لها بأنها (وكيلة المماليك)، أن لجأ إليها القنصل الفرنسي ماثيو دلسبس[339] (والد فرديـنان دلسبس) من بعده حين تعقدت الأمور بينه وبين المماليك؛ فنجحت بنفوذها على البكوات في حل أزمته معهم؛ حيث تجدر الإشارة إلى أن القنصل الأول نابليون أصدر أمره في 7 مارس 1803م، بتعيين ماثيو دلسبس نائب قومسيير للعلاقات التجارية الفرنسية في دمياط[340]، على أن يذهب إلى القاهرة ليتولى بها مؤقتا منصب القومسيير (القنصل، مفوض، وكيل) العام للعلاقات التجارية حتى يتم تعيين من يشغله[341].

337- كانت القوات الإنجليزية لا تزال في مصر منذ إخراج الفرنسيين في 1801م، ولم تقلع من الإسكندرية إلا في 16 مارس 1803م، تقل جنودا عددهم 4400 مقاتل، وسافر معهم محمد بك الألفي. عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص 273.

338- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص ص44، 114.

339- ماثيو دلسبس: ولد في همبرج في مارس 1774م، ونشأ في أسرة شغل أعضاؤها وظائف مهمة في السلك السياسي. وبدءا من عام 1791م تقلد ماثيو دلسبس نفسه مناصب سياسة مهمة في مراكش وكان عند إرساله إلى مصر نائب قومسيير للعلاقات التجارية في قادش. اتخذ من منزله حانة يبيع فيها بأسعار مخفضة الخمور مستغلاً الاعفاءات الجمركية التي تمنح لأعضاء السلك القنصلي، وكان يقدم بعض الكميات من الخمور إلى الرؤساء الألبانيين بمثابة هدايا لقاء وعدهم بعدم الاعتداء عليه وعلى الرعايا الفرنسيين. محمود متولي: عمر مكرم، وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، 2008، ص70. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص49.

340- كانت دمياط آنذاك أهم المدن المصرية بعد القاهرة من الوجهتين الاقتصادية والحربية وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً. ومن المحقق أن دمياط حتى أواخر القرن 18، وأوائل 19 كانت ثاني بلد في مصر من حيث عدد السكان؛ ففي الوقت الذي قدر فيه مهندسو الحملة الفرنسية تعداد سكان

هذا في الوقت الذي شهد اشتداد الصراع بين العثمانيين والمماليك؛ فقد وجد العثمانيون الفرصة مواتية لإقصاء المماليك عقب جلاء الإنجليز عن الإسكندرية في مارس عام 1803م وبصحبتهم محمد بك الألفي[342]، وبدا لنفيسة صعوبة المرحلة التي يمر بها المماليك، فقد وجدت نفسها ومعها حريم المماليك دون ظهير يوفر لهن الحماية والأمان، وخصوصا بعد أن لجأ العثمانيون في صراعهم مع المماليك إلى استخدام الحريم المملوكي كورقة ضغط لفتح باب المساومات السياسية، وقد آلم المماليك أيما إيلام هذا المسلك وعدوه انتهازية مرفوضة؛ حيث إن المروءة تقضي بتنحية الحريم خارج إطار الصراع السياسي، وقد بدا ذلك في رسالتهم إلى طاهر باشا التي جاء فيها: "وقد التمسنا من ساداتنا المشايخ أن يتشفعوا لنا عند حضرة الوزير...فأبى إلا إخراجنا من القطر المصرى كليا، وبعثتم تحذرونا مخالفة الدولة العلية مستدلين علينا بقوله تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم"...وذكرتم لنا أن حريمنا وأولادنا بمصر ربما ترتب على المخالفة وقوع الضرر بهم، وقد تعجبنا من ذلك؛ فإننا إنما تركنا حريمنا ثقة بأنهم في كفالتكم وعرضكم، على أن المروءة تأبى صرف الهمة إلى امتداد الأيدي للحريم، والرجال للرجال"[343].

الإسكندرية بأنه حوالي ثمانية ألاف فقط، فقد قدروا أن تعداد سكان دمياط كان حوالي عشرين ألف نسمة. وكانت تصدر من دمياط تجارة البلاد وترد إليها وارداتها. وبها كثير من الوكائل والخانات. واشتهرت هى والقرى المحيطة بها بصناعة الأقمشة؛ إذ كانت تنسج بها أحسن منسوجات القماش والحرير والتيل بالقطر المصرى. عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ج1، ص ص 64، 335، 336.

341- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص 64.

342- كان محمد بك الألفى يرى أنه من الصعوبة بمكان اجتماع كلمة البكوات على أمر، وأن كلا منهم يؤثر نفعه الخاص على صالح الطائفة عموما، وأن أحدا منهم فى سبيل الفوز بالسلطة لا يحجم عن التآمر على أخيه، وأن العثمانيين لا يمكن الوثوق بعهودهم، وأن المماليك وحدهم ودون مساعدة دولة أجنبية كبيرة لهم لن يتمكنوا من استرجاع سيطرتهم القديمة، وأن عليه أن يعتمد على نشاطه هو وحده ومعاونة الإنجليز له إذا شاء استخلاص الحكم لنفسه. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ج2، ص469. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص133.

343- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص110. وعبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص 167.

وهذه الشكوى تشير إلى أن العثمانيين في صراعهم مع المماليك تجاوزوا الخطوط الحمراء التي اعتاد المتصارعون الالتزام بها ويؤشر إلى ما ستنحدر إليه أمور تلك النسوة في قابل الأيام ومعهن نفيسة بطبيعة الحال.

وبلغ الاضطراب الذروة حين أدى الصراع على السلطة في وقت قصير إلى الإطاحة بخسرو باشا؛ فخلفه طاهر باشا؛ فلم يكمل شهرا في الحكم ثم قُتل؛ فخلفه أحمد باشا والي المدينة المنورة؛ فلم يمكث في الحكم سوى يوم وليلة وطُرد من قبل محمد علي وجنوده الألبان المتحالفون مع المماليك. وقد أورد الجبرتي في حوادث شهر صفر 1218 (إبريل ومايو 1803م) أنه بعد خروج أحمد باشا والي المدينة من مصر، تفرق من كان معه من أعيان الدولة العثمانية مثل خليل أفندي الرجائي الدفتردار[344] ويوسف بك (كتخدا خسرو باشا)، اللذين ذهبا إلى محمد علي يلوذان به! فأظهر لهما البشر واستأذناه (الدفتردار ويوسف كتخدا بك) في الإقامة عنده أو الذهاب؛ فأذن لهما بالتوجه إلى بيوتهما؛ فسارا معا إلى بيت الدفتردار[345]. وجلسا فيه ساعة، و"اجتمع الكثير من الأوباش والجعيدية والعسكر خارج الدار" –على حد تعبير الجبرتي– يريدون النهب، وإذا بجماعة من كبار الأرنؤود ومعهم عدد من العسكر أرسلهم محمد علي، اقتحموا الدار وأغلقوا بابها، وقتلوهما وقطعوا رأسيهما، وخرجوا بعدما نهبوا ما وجدوه من الثياب والمتاع، وخرج أتباعهم في أسوأ حال يطلبون النجاة بأرواحهم، ومنهم من هرب صاعدا إلى الحريم الساكنات في البيت؛ فصرخت النسوة وانزعجن، وكانت الست نفيسة المرادية في ذلك المنزل في هذا الوقت؛ فأرسلت إلى سليم كاشف المحرمجي[346]؛

344- خليل أفندي الرجائي: عينته الدولة العثمانية "دفتردار" مصر في ولاية خسرو، وصفه نقولا الترك بأنه كان "رجلاً ظالماً..مثيرا للفتن". وبعد إخراج خسرو من القاهرة، وتولي طاهر باشا ألقى القبض على خليل هذا، ولكنه (طاهر باشا) لم يلبث أن قُتل؛ فلما تولى أحمد باشا والي المدينة بعده ظهر معه، ولكنه أُخرج من مصر وتركه؛ حتى قُتل؛ فحصل سرور عند الخلق لمقتله. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، المصدر السابق، ص ص 165، 171. ونقولا الترك: المصدر السابق، ص ص 148، 149.

345- لم يذهبا إلى بيت يوسف كتخدا لأنه كان قد تم نهبه قبل ذلك من قبل الأرناؤود. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص 179.

346- سليم بك المحرمجي: بعد موت البرديسي في نوفمبر 1806م، تولى شاهين بك رياسة المماليك المرادية، وبعد موته في مايو 1808م عَيَّن (محمد علي باشا) خلفا له سليم بك هذا، رئيسا

فحضر؛ فكلمته في أن يتلافى الأمر؛ فوجده قد تم، ثم حضر قائد العسكر الألباني محمد علي وطرد الناس المجتمعين للنهب[347].

ويمكن القول إن هذه الواقعة تشير إلى نفوذ نفيسة ونفاذ كلمتها عند المماليك؛ فحينما استدعت (سليم بك) أحد كبار البكوات المماليك؛ فإنه لبى النداء في الحال، كما تشير إلى تقدير محمد علي لنفيسة؛ حيث قيام بطرد النَّهابة –رغم أنه هو الذي أرسل رجاله لقتل الرجلين كما ذكر نقولا الترك، ولكنه تظاهر باحترامه لنفيسة وانصياعه لاستغاثتها؛ فلم يكن خافيا عليه أن لها شأنا وكلمة على البكوات المماليك وفي توقيت كان فيه نوع من الوئام بين الجانبين (الأرناؤود بزعامة محمد علي والمماليك الذين كانت بمثابة وكليتهم).

وذهب ناصر سليمان إلى أن حضور (محمد علي) كان رغبة منه في إثبات دوره المهم في حفظ الأمن ومنع الاعتداءات المشينة التي عكرت صفو حياة الأهلين، وليظهر في الوقت نفسه احترامه للست نفيسة، وذلك في إطار استغلاله كافة المواقف لرفع أسهمه ومكانته لدى زعماء الشعب وأهالي القاهرة الذين توسموا فيه تحقيق العدالة[348]. وهذا تحليل سديد.

ولكن ثمة أسئلة عديدة إزاء تلك الحادثة ليس يسيرا الإجابة عليها إجابة قاطعة؛ حيث تشح المصادر في بيانها، منها: ماذا كانت تفعل نفيسة في بيت الدفتردار، الذي يفترض أنه كان معاديا للمماليك؟ هل كانت تربطها علاقة بحريم ذلك الرجل؟ وهل كانت زيارة ودية بحتة أم لغرض من أغراض السياسة؟ وهل طلبها النجدة كان لإغاثة من لاذوا بالحريم من أتباع الدفتردار؛ حيث كان من عرف ذلك الزمان أن من يلوذ بـــ(عرض الحريم)؛ فلابد أن يُعاذ ويُجار[349]؟ أم كان طلبها النجدة خوفا من أن تطالها

للمماليك المرادية، وكان ممن قُتلوا في مذبحة القلعة 18011م. ولم يترجم له الجبرتي وقد أورد ذكره مرات. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص207، 535، 742، 768.

347- نقولا الترك: المصدر السابق، ص148. وعبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص 180-181.

348- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص111.

349- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ج3، ص1315.

ومعها حريم الدار يد الأذى؟ وماذا يقصد الجبرتي بقوله إنه حين أتى سليم بك "وجد الأمر قد تم"؟ هل يقصد مقتل الشخصين؟ أم النهب؟ أم استقرار الأمر وعدم لحوق أذى بها وبحريم الدار؟ وربما قد أتي بعد وصول (محمد علي) الذي طرد الناهبين بعد أن تم له ما أراد من قتل الدفتردار والكتخدا؟

وثمة من يرى أن زيارة نفيسة واستنجادها بسليم بك كان نجدة وحماية لحريم المماليك[350]! ولكن يصعب الجزم بذلك؛ لأن الدفتردار لم يكن من المماليك، إلا إذا افترضتنا أنه تزوج من حريم المماليك في تلك المدة القصيرة التي أقام فيها في مصر، حيث تشير الدلائل إلى إمكانية حدوث ذلك؛ فلقد تزوج بعض رجال الدولة العثمانية في فترة إقامتهم في مصر[351].

وفي غمار تلك الفوضى السياسية وهذا الانفلات الأمني؛ حضر إلى الإسكندرية ماثيو دلسبس قنصل فرنسا فى مصر، فى يوليو سنة 1803م؛ فاستقبله البرديسي أثناء حصاره رشيد[352]، وحين وصل إلى القاهرة في أول أغسطس رحب به إبراهيم بك والمماليك وأكرموه، وعملوا له شَنْكا[353] وأركبوه بموكب جليل ونصب بنديرته[354] في الأزبكيه[355]. وكثر اجتماعه بالبكوات، ولكن ما لبث الترحيب وحسن المعاملة أن تغير في الشهور التالية؛ بسبب اكتشافهم خيانته لثقتهم به، وشعر بامتهان البكوات له؛ فشكا إلى تاليران في 24 أكتوبر 1803م من سوء معاملة البرديسي له؛ إذ رفض لقاءه في

350- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص111.

351- ذكر الجبرتي في حوادث شهر ربيع الثاني 1218 هـ (يوليو وسبتمبر 1803م) أنه خرج الكثير من أعيان العثمانية إلى جهة العادلية وصاروا يبيعون متاعهم وثيابهم وأكثرهم متأهل ومتزوج. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص 208، 209.

352- في ربيع الثاني 1218هـ (يوليو وسبتمبر 1803م) سافر البرديسي إلى رشيد لقتال العثمانيين الذين تحصنوا بالبرج هناك؛ فحاصرهم نيفا وعشرين يوما وأسر قائدهم السيد علي القبطان وآخرين معه. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص 208-212.

353- شَنْك: كلمة تركية، من «شن» بمعنى بهيج و«شنلك» بمعنى البهجة والطرب. تطلق على الاحتفال الذي تطلق فيه المدافع والنيران الملونة، وربما اقتصر في الشنك على إطلاق المدافع في الأوقات الخمسة، بعد كل أذان. حسن حلاق وعباس صباغ: المرجع السابق، ص 130.

354- بنديره: أو (باندیره) أو (باندیرا)؛ كلمة إيطالية Bandira، بمعنى: العلم، أو الراية. حسن حلاق وعباس صباغ: المرجع السابق، ص 44.

355- الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص209. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج2، ص 282.

الوقت الذي كان يلتقي فيه الوكيلين النمساوي روزيتي والإنجليزي مسيت Missett[356]؛ فلم يكن أمامه في هذه الحالة إلا أن يشكوهم لوكيلتهم وصاحبة الكلمة النافذة عليهم الست نفيسة[357] التي وصفها دلسبس في رسالته تلك قائلا:

"Mine Nefise, veuve de Mourad bey, qui jouit d'un grand credit".

(مدام نفيسة، أرملة مراد بك، التي تحظى بسمعة طيبة ومكانة مرموقة) [358]. ويبدو أنها تدخلت لحل مشكلته؛ "فقابل البرديسي في بيته ورحب به في اليوم التالي مباشرة لزيارته لها[359]! وهكذا كان لها كلمة نافذة على أمراء المماليك، ولا غرو إذن في أن يهتم بونابرت بها شخصيا ويوصي وكلاءه بها.

ففي 24 أكتوبر 1803م كتب نابليون إلى وزير خارجيته تاليران يطلب منه أن يبلغ دلسبس بضرورة بقائه في القاهرة، وأنه يجب عليه أن يبلغ المماليك بأنه يحبهم لشجاعتهم خصوصا المماليك المرادية وأنه في وسعهم الاعتماد على هذا. "وأنه يجب على دلسبس أن يبلغ نفيسة المرادية أن نابليون قد تسلم خطابها، وأصدر أمرا خاصا إلى الوكلاء الفرنسيين في مصر لحمايتها، ويريد أن تطمئن على حياتها وألا يعوزها شيء؛ لأن مراد بك انتهى بأن صار صديقا لفرنسا ومات وهو كذلك، ولذلك فسوف يكون نابليون صديقا لأسرته دائما"[360]. ويفهم من رسالة نابليون هذه أنها تشير إلى توجه السياسة الفرنسية في مصر آنذاك على نحو ما سبقت الإشارة؛ التي تسعى إلى الاحتفاظ بعلاقة وطيدة مع المماليك الذين ينظر إليهم أنهم الأداة التي يمكن الاعتماد

356- الميجور مسيت: أوفدته لندن فى بعثة إلى تركيا وإلى مصر في عام 1802م وتولى مهمة إخلاء الجيش الإنجليزي من مصر في مارس 1803م. وعمل مسيت ياورا (سكرتيرا) للجنرال ستيوارت. وبعد رحيل الجيش البريطاني عن مصر بقي فيها في منصب ضابط مقيم بالقاهرة للاتصال مع ممثل الباب العالى بها ومع سفير (بريطانيا) فى إسلامبول، وليشرف على مصالح بريطانيا التجارية فى مصر وعلى شئون رعاياها، وفى 9 مارس تم تعيين مسيت وكيلا بريطانيا في مصر. واتخذ مقره بالقاهرة، ثم انتقل في فبراير 1804م إلى الإسكندرية. وفي 6 يونية 1806م، تم تعيينه قنصلا عاما لحكومة إنجلترا في مصر. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر،المرجع السابق، ج2، ص ص 500-502.

357- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص64.

358-Kandil, D. A: op. cit, p.24.

359- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص64.

360- نفسه، ص72.

عليها في خدمة المصالح الفرنسية في مصر، ونظرا لإدراك نابليون ما تمثله نفيسة من أهمية؛ فقد خصها بالذكر والتوصية، لكن اللافت أن نابليون ذكر أنه تلقى رسالة من نفيسة، وفي هذا إشارة واضحة إلى ما بلغته نفيسة من ثقة بالنفس وعلو مقام جعلها تراسل أحد أبرز زعماء العالم آنذاك، وحظيت لديه بالاهتمام؛ فلقد سبقت الإشارة إلى أنها راسلت إلى نابليون تطلب وساطته لدى إسلامبول لإصلاح ذات البين بين الباب العالي والمماليك والعمل لإعادة البكوات لحكم مصر، ولم يهمل القنصل الأول الرد عليها؛ بل اهتم برسالتها وحرص على توصية وزير خارجيته تاليران بأن يكلف وكيلهم في مصر (دلسبس) بالرد على رسالة نفيسة بشكل مباشر، مشفوعا بكثير من التطمينات والمجاملات؛ التي لم تكن في حاجة إليها؛ لأن حياتها لم تكن في خطر حتى يطمئنها نابليون الذي لا يستطيع مندوبوه حماية أنفسهم. بل هم الذين كانوا في حاجة إليها. والوقائع تدل على ذلك. كما سبقت الإشارة إلى أن (دلسبس) ذهب إليه شاكيا امتهان المماليك له، ورفضهم لقاءه، فشفعت له وتم لقاءه بالبرديسي في اليوم التالي مباشرة.

وتشير الدلائل إلى أن تاليران نقل تعليمات نابليون إلى دلسبس الذي أرسل إلى تاليران جوابا عما سبق أن طلبه منه نابليون؛ بتاريخ 21 مايو 1804، قال فيها:

j'ai continue' a 'entretenir avec soin des laisions etroites avec cette dame

"لقد واصلتُ بعناية الحفاظ على علاقات وثيقة مع هذه السيدة (نفيسة)"[361].

وهكذا؛ سعت نفيسة قدر طاقتها في استنقاذ جماعتها وإعادتها إلى ما كانت عليه من الصدراة والنفوذ ولكن ذهبت محاولاتها أدراج الرياح التي كانت أشد عتوا من قدرتها؛ حيث لم يساعدها البكوات المتناحرون ولا الفرنسيون ولا غيرهم!

361- **Kandil, D. A: op. cit, p. 23.**

نفيسة وخورشيد باشا (مارس 1804- مايو 1805م):

كان عام 1804م الذي تولى فيه خورشيد حكم مصر، عاما مليئا بالمظالم والمغارم التي عانى منها العامة والخاصة، الأثرياء والفقراء على حد سواء، وقد وصف نقولا الترك حال مصر في ذلك عام (1804م) في عهد خورشيد باشا قائلا: "وكان غما وهما وكربا عظيما على ساير الناس وكنت ترى الناس سكارى وما هم بسكارى؛ لعدم وجود الدراهم وفرط المظالم، وكثرة المغارم وعدم المراحم مع اتصال الملاحم[362]؛ فلا غرو أن يصيب نفيسة بعض ما أصاب الناس ويعد ما وقع لها من خورشد باشا من إساءة ذروة ما جرى لها من مضايقات في حقبة الاضطرابات السياسية.

وتجدر الإشارة إلى أن محمد علي ما لبث أن تخلي عن البكوات، وساند الباشا العثماني الجديد "خورشيد باشا" الذي كلفه الباب العالي بالتخلص من البكوات ومصادرة بيوتهم وحريمهم. وهكذا بدا مشهد الاعتداء على بيوت الحريم متكررا بصورة فجة كما بدا مأساويا مهينا، وبصورة لم تحدث من قبل لصفوة نساء المماليك[363]، يقول الجبرتي: "وخرج الأمراء (المماليك) على أسوأ حال من مصر ولم يأخذوا شيئا مما جمعوه وكنزوه...ونهب العسكر أموالهم وبيوتهم وذخايرهم وأمتعتهم وفرشهم وسبوا حريمهم وسراريهم وجواريهم، وتسلطوا على بعض بيوت الأعيان من الناس المجاورين لهم، ومن لهم بهم أدني نسبة أو شبهة بل وبعض الرعية، إلا من تداركه الله برحمته... ووقع في تلك الليلة واليومين بعدها ما لا يوصف من تلك الأمور وخربوا أكثر البيوت... وجازاهم الله بغيهم وظلمهم وغرورهم ونزل بهم ما نزل، ولم يقع لهم منذ ظهورهم أشنع من هذه الحادثة...ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله"[364]. واللافت للنظر أنه على الرغم من أن الأزبكية باتت ساحة غير آمنة بسبب انتشار أعمال النهب والتخريب والسطو على البيوت؛ فإن قصر الست نفيسة ظلت له حرمته المصونة من الجميع؛ وهذا

362- نقولا الترك: المصدر السابق، ص 215.
363- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص111.
364- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص ص 278- 281.

دليل واضح على تمييز الناس والعسكر بمختلف طوائفهم بين الست نفيسة وبقية حريم البكوات[365].

وفي إطار تخبط خورشيد باشا؛ فإنه قام فى أوائل مايو عام 1804م بطلب جملة أكياس من الأقباط والسيد أحمد المحروقى[366] وتجار البهار ومياسير التجار والملتزمين والأعيان؛ لنفقة العسكر؛ واشتد السخط عليه عندما أراد أن يحمل المماليك جزءاً من النفقات مساهمة منهم –كما قال– فى نفقات الحرب التى شنوها هم بأنفسهم عليه؛ فصار يفتش عن أنصارهم "السريين" فى القاهرة، ويفرض عليهم الإتاوات الفادحة. وصار يأخذ نساء المماليك اللواتى بقين بالقاهرة كـــ"رهائن" لديه حتى يدفع أزواجهن هذه الإتاوات[367].

وفى هذا السياق قام خورشيد باعتقال نفيسة في 22 مايو 1804م؛ حيث أرسل إليها كلا من الوالي (قائد شرطة العاصمة) والمحتسب وطلبها؛ فركبت معهما وصحبتها امرأتان وأصعداها إلى القلعة، وسجنها في بيت الشيخ السحيمي؛ بتهمة أنها تسعى لاستمالة رؤساء العسكر الألبان لتأييد المماليك (العصاة) نظير أن "تلتزم بالمكسور من جامكية العسكر" أى أن تدفع لهم رواتبهم المتأخرة. وهو بمثابة تحريض للجند على التمرد، وقال إنها ما دامت قادرة أن تدفع للجند رواتبهم؛ فعليها أن تدفع لخزانة الحكومة. واتضح أن غرضه إرهاق السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهرا. ولما وصلت بين يديه "قام إليها وأجلها، ثم أمرها بالجلوس، وقال لها لائما: هل "يصح أن جاريتك (مُنَوَّر) تتكلم مع صادق أغا، وتقول له يسعى في أمر المماليك العصاة"؟ فأنكرت التهمة وأجابته بشجاعة: "إن ثبت أن جارتي قالت ذلك؛ فأنا المأخوذة به دونها"؛ فأخرج من جيبه ورقة، وتظاهر بأنها تثبت ذلك؛ فقال لها: "وهذه"؟! وأشار إلى الورقة؛ فقالت: "وما

365- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص111.

366- المحروقي: ترجم له الجبرتي قائلا: "عين الأعيان ونادرة الزمان شاهبندر التجار والمرتقى بهمته إلى سنام الفخار النبيه النجيب والحسيب النسيب السيد أحمد بن أحمد الشهير بالمحروقى الحريرى...لما ترعرع خالط الناس وكتب وحسب، وكان على غاية من الحذق والنباهة. عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص388، 389.

367- عبد الرحمن الجبرتي: المصدر السابق، ج6، ص307. ومحمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص 271.

هذه الورقة؟ فطلبتها منه قائلة: أرنيها، فإنى أعرف أن أقرأ؛ لأنظر ما هى"؟ فأدخلها فى جيبه، وانتقدت سلوكه معها قائلة له: "أنا بطول ما عشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونى أكثر من معرفتى بك، ولقد مرت بنا دول الفرنسيس الذين هم أعداء الدين، فما رأيت منهم إلا التكريم، وكذلك سيدى محمد باشا (خسرو)، كان يعرفنى ويعرف قدرى، ولم نر منه إلا المعروف، أما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم"، فقال: "ونحن أيضاً لا نفعل غير المناسب"؛ فقالت له: "وأى مناسبة فى أخذك لى من بيتى بالوالى (رئيس شرطة العاصمة) مثل أرباب الجرائم"؟! فقال محاولا التنصل من فعلته ومبررا لها: "أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعى؛ فإرساله من باب التعظيم". ثم اعتذر إليها. وأمرها بالتوجه إلى بيت الشيخ السحيمى، بجوار القلعة كرهينة، وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر[368]، أي جعلها رهن الاعتقال.

وحينما شاع خبر حبسها "تكدرت خواطر الناس لذلك"، وحدث هرج وبلبلة وركب كبار العلماء: القاضى، ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم والمشايخ السادات والأمير والفيومي والمهدي، للاحتجاج على ذلك، وصعدوا إلى القلعة؛ حيث يوجد الباشا، وكلموه فى أمرها، وراودوه على نزولها من القلعة، وقالوا له لا يليق بك سجن الحريم "ولا سيما هذه الست المصونة التي هي دون غيرها محمودة السيرة وسالمة السريرة" حسب رواية نقولا الترك[369]؛ الذي أشار إلى أن غيرة العلماء على تلك المرأة لفتت انتباه خورشيد؛ فخاف أن يستنهضوا عليه الرعية؛ فقال: "لا بأس عليها، وإنى أنزلتها بيت الشيخ السحيمى مكرمة حسماً للفتنة، لأنها حصل منها ما يوجب الحجر عليها"؛ فقالوا: "نريد بيان الذنب. وبعد ذلك إما العفو أو الانتقام"؛ فقال: "إنها سعت مع بعض كبار العسكر تستميلهم إلى المماليك العصاة، ووعدتهم بدفع علوفاتهم (رواتبهم)، وحيث إنها تقدر على دفع العلوفة؛ فينبغى عليها أن تدفع العلوفة"؛ فقالوا: "إذا ثبت عليها ذلك؛

368- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص 307-309. ونقولا الترك: المصدر السابق، ص 214. ومحمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص 272.

369- نقولا الترك: المصدر السابق، ص 214.

فإنها تستحق ما تأمرون به؛ فيحتاج أن نتفحص على ذاك". فقام إليها الفيومى والمهدى وخاطباها فى ذلك، فقالت: "هذا كلام لا أصل له، وليس لى فى المصرلية (أمراء المماليك) زوج حتى أنى أخاطر بسببه؛ فإن كان قصده مصادرتى؛ فلم يبق عندى شيء وعليَّ ديون كثيرة"، فعادوا إليه وتكلموا معه ورادهم". وبعد أن نفت السيدة نفيسة عن نفسها التهمة، وإصرار خورشيد على اعتقالها بدعوى "أنها تعمل لإفساد جنده لخدمة مصالح أعدائه وتجرؤ على وعدهم بدفع مرتباتهم، وأنها يجب لذلك أن تفي بوعدها. قال الشيخ الأمير للترجمان مهددا: "قل لأفندينا هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد، وبعد ذلك يتوجه علينا (المشايخ) اللوم! فإن كان كذلك؛ فلا علاقة لنا بشيء مما قد يحدث من جانب الأهالى المتذمرين بسبب هذا الحادث من هذا الوقت أو نخرج من هذه البلدة. وهذا يعنى أن الشيخ الأمير يهدد خورشيد بمقاطعة الشيوخ له، وهذا أمر له عواقبه. "وقام قائمًا على حيله؛ يريد الذهاب"؛ فتوسط بعض أعوان خورشيد وأمسك به مصطفى أغا الوكيل وغيره وكلموا الباشا في إطلاقها؛ فرضي خورشيد بذلك وأنزلوها من القلعة على أن تقيم بمنزل الشيخ السادات؛ خوفا من تحريض العلماء للشعب ضده "فخاف خورشيد أن يستنهض العلماء الرعية ضده؛ فسلمهم إياها وأنزلوها من القلعة السلطانية، على حد وصف نقولا الترك الذي يؤرخ بحادثة اعتقال خورشيد لنفيسة بأنها كانت بداية تغير قلوب عامة المصريين وخاصتهم على خورشيد قائلا: "ومن ذلك الوقت تغيرت قلوب العلما والرعية"[370].

ويفسر نقولا الترك سبب نقمة خورشيد على حريم المماليك بأن المماليك كانوا يحيطون بالقاهرة شرقا وغربا؛ فاشتد الكرب بالناس؛ فطلبوا من العساكر الخروج لطرد المماليك عن أبواب مصر؛ فكانت العساكر تخشى الخروج لحربهم؛ لشدة بأسهم وقوة بطشهم؛ "فهذا هو السبب الموجب لغيظ الوزير على الستات حرمات الغز وطلب الجرم منهم"[371].

370- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص ص 307-309. نقولا الترك: المصدر السابق، ص ص214- 216. ومحمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج1، المرجع السابق، ص 272.

371- نقولا الترك: المصدر السابق، ص ص214- 216.

وعلى أية حال، لم ينته الشهر نفسه، حتى أرغم خورشيد نفيسة على دفع ما يريد من المال. كما أرغم غيرها من نساء المماليك أيضا على مثل ذلك، حتى باع أكثرهن متاع بيوتهن[372]! وسوف يُبرّر ذلك، بأنّها ليست بدعةّ جديدة، ولكنها جريًا علي ما كانوا يدفعونه للفرنسيين زمن احتلالهم للبلاد! وبالفعل قرّر علي الست نفيسة وبقية نساء الأمراء دفع مبلغ 800 كيسًا في مايو 1804م وألزم كلاً من الست نفيسة وعديلة هانم ابنة إبراهيم بيك الكبير بتوزيع هذه الفردة وتحصيلها، وأرسل الباشا عساكره يلازمون بيوت النساء حتّي يوفين الفردة. ويبيّن الجبرتي صعوبة الموقف المالي للست نفيسة وسائر حريم البكوات، حتّي لقد "اضطرّ أكثرهن لبيع متاعهن، فلم يجدن من يشتري لعموم المضايقة والكساد"[373]،

ولا ريب أن حادثة اعتقال خورشيد لنفيسة هذه تلقي مزيدا من الضوء على ما كانت تحظى به تلك المرأة من مكانة مرموقة لدى العامة والخاصة؛ فما إن شاع خبر اعتقالها حتى "تكدرت خواطر الناس لذلك"[374]. على حد تعبير الجبرتي، ولم يبطئ زعماؤهم وكبار العلماء في التحرك لنجدتها والشفاعة لها والضغط لإنقاذها من أزمتها. وغني عن البيان أنه لولا فضلها ومكانتها في نفوس عامة المصريين وخاصتهم لما تحرك هؤلاء وأولئك لفكاكها من قبضة خورشيد. ولا شك في أنها كانت في تلك الأزمة كانت تحصد ثمار غرسها على مدى سنوات طوال خلت من إحسان وبر فأنبت لها في النفوس الود والتقدير الذي دفع المصريين إلى الالتفاف حولها لنصرتها ونجدتها في مشهد نادر يبرز شعبيتها الكاسحة.

ومما يلفت الانتباه في الحوار الذي دار بينها وبين خورشيد أن استدعاءها حفل بشيء من الإجلال لا يحدث عادة في مثل هذه المواقف لمن توجه إليه تُهمٌ خطيرة؛ إذ لم يرسل لها عسكرا ممن جرت به العادة إرسالهم لإلقاء القبض على المتهمين؛ بل أرسل أحد كبار رجال السلطة لذلك. ثم إن في نهوض خورشيد واقفا لدى وصولها إشارة جلية

372- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص171.
373- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 113.
374- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص 308.

إلى ما تحظى به من هيبة واحترام حتى عند أولئك الحكام المتغطرسين الذين لا يأبهون كثيرا بمقامات الناس. وبدا بجلاء من الحوار الذي دار بين نفيسة وخورشيد باشا ما كانت تتحلى به عزة نفس وإباء وشمم جعلها ترد عليه بثبات ورباطة جأش؛ فلم تخشاه وهو الغشوم الظلوم؛ فبدت في حوارها معه وكأنها أحد الزعماء أو أحد كبار العلماء الذين لا يرتجفون في مواجهة الحكام الظالمين! وحدوث هذا الأمر من امرأة يعد شيئا لافتا جدا للانتباه.

وتكشف تلك الحادثة أيضا عن أن نظرة المسؤولين العثمانيين لنفيسة كانت مثل نظرة المسؤولين الفرنسيين من قبل؛ حيث كان ينظرون إليها على أنها الزعيمة الفعلية لنساء المماليك، ليس هذا فقط بل وربما أيضا زعيمة لأنشطة التمرد[375]!

لقد فشل خورشيد في إثبات التهمة على نفيسة وروَّعه تلك الغضبة من عامة الشعب وخاصته لنصرتها والتضامن معها، ولكن هذا لا يعني أنها كانت بريئة تماما! فلا يُستبعد أنها قامت بذلك فعلا؛ إذ إنه غني عن البيان أنها سعت من قبل ذلك سرا وجهرا في التمكين للمماليك الذين تدين لهم بالفضل فيما وصلت إليه، وقد سبقت الإشارة إلى نفورها من العثمانيين الذين عاثوا في الأرض فسادا وخورشيد آخر مثال لولاتهم الحمقى الذين يفتقرون إلى السياسة والكياسة.

ويمكن القول إن هذه الحادثة كانت كاشفة أن مكانة نفسية المرموقة لدى الخاصة والعامة لم تتأثر بدورها في إبرام معاهدة السلام بين الفرنسيين وزوجها مراد، فعلى الرغم من الآثار المدمرة والمروعة التي ترتبت على هذه المعاهدة إلا أن خاصة المصريين وعامتهم لم يحملوها تبعة ما فعل زوجها من تواطؤ ضدهم في ثورتهم الكبرى ومساعدة زوجها مراد بك لكليبر في إنزال أفظع الأضرار وتكبيدهم أفدح الخسائر في الأرواح والممتلكات لدى سعيه لسحق تلك الثورة الكبيرة.

ومما يلفت الانتباه أن نفيسة تصرح مراوغة -على ما يبدو- أنها ليست متزوجة من أحد أمراء المماليك لكي تخاطر بدعمهم، كما كانت تخاطر من قبل بدعم

[375]- Fay, M. A.:Unveiling the Harem: op. cit, p.13.

زوجها، في إشارة واضحة إلى عدم زاوجها بعد مراد؛ فلم تجر العادة المملوكية على اطرادها هذه المرة في زواج أرملة الأمير المتوفى من أحد كبار أمرائه كعثمان الطنبورجي -الذي خلف مراد في زعامة المماليك المرادية- أو محمد بك الألفي أو عثمان البرديسي على سبيل المثال.

وقد ذكر الجبرتي أخبار زيجات كثيرة في تلك الحقبة لنساء من المماليك أقل شأنا من نفيسة[376]، ولو تزوجت لما أغفل ذلك[377]. ولا ريب في أن الجبرتي أخطأ في وصف حالتها الاجتماعية؛ في تلك الواقعة حينما نص على أن الباشا أرسل الوالي والمحتسب إلى بيت "الست نفيسة زوجة مراد بك"[378]؛ حيث إنها كانت أرملة مراد بك -منذ أربع سنوات كاملة- وليست زوجته؛ حيث إنه مات في إبريل 1804م كما سبق الذكر، ولكن يظل مقصده مفهوما أنه يقصد التي (كانت زوجته) وغدت أرملته، ولو تزوجت بعده لما قال عنها زوجة مراد ولنسبها إلى زوجها الجديد أو اكتفى بأن يقول كعادته (الست نفيسة) فقط، ويفهم أنها المقصودة بطبيعة الحال. ويصعب الجزم بسبب عدم زواجها؛ فلربما لزهدها في ذلك، أو لتقدمها في السن، أو أنها لم تجد في البكوات من هو كفؤا لها، أو ربما لهذا كله، أو لأسباب أخرى.

وبعد بضعة أشهر من حادثة اعتقالها علي يدي خورشيد في مايو 1805م، انطلقت حركة الجماهير من حي الأزبكية -حيث تقيم نفيسة- يقودها عمر مكرم لحصار القلعة -حيث يقيم خورشيد[379]. وهي الحركة أو الثورة التي لم تهدأ حتى تمت الإطاحة به من ولاية مصر واعتلاء محمد علي باشا سدة الحكم فيها من بعده.

وعلى الرغم من عدم وجود دليل على دعم نفيسة لتلك الثورة إلا أنه لا يستبعد أن يكون لها دور في دعمها؛ حيث إن عشرات الألوف التي شاركت فيها وصل بها الحال من الرغبة في التضحية رغم العوز حدا كبيرا كما وصف الجبرتي أن "الفقير من

376- الجبرتي :عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص230.
377- ذكر طارق بدراوي أن نفيسة تزوجت بعد موت مراد بك مرتين من اثنين من البكوات! طارق بدراوي: المرجع السابق. وهذا غير صحيح.
378- عبد الرحمن الجبرتي:عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، 307.
379- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المصدر السابق، ج2، ص 308.

العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشتري به سلاحا"[380]؛ وهذا يعني أن الثوار كانوا في حاجة إلى دعم مادي لشراء السلاح وللدعم اللوجستي (من طعام وشراب وخلافه) إبان فترة حصار القلعة والاشتباكات التي دارت أثناء تلك الأحداث؛ ومعروف عن نفيسة برها وإحسانها؛ فلا يستبعد أنها كانت تدعم الثائرين على خورشيد؛ إذ كان يجتمع لديها السببان؛ العام والخاص؛ حيث كان لدى نفيسة نقمة على العثمانيين عامة وعلى خورشيد خاصة لما نالها من إساءة وابتزاز على يديه.

وهكذا بدت نفيسة في حقبة الاضطرابات الساسية وكيلة للمماليك تتحدث باسمهم وتراسل نابليون ويرد عليها ويقصدها القناصل الأوربيون وتتعرض للاعتقال مثل كبار الزعماء وتتحدى الباشا بصلابة وينتفض العامة والخاصة من أجلها، كل هذه الأدوار التي قامت بها نفيسة تعد أنموذجا بارزا للتدليل على الخطأ الذي وقع فيه كثير من الرحالة والكتاب الأوربيين مثل سافاري الذين حين عالجوا أحوال المرأة المصرية في ذلك العصر؛ ذهبوا إلى إنها كانت "كالرقيق ولا تلعب أي دور في الحياة العامة؛ ولا تتعدى (الحريم) ولا علاقة لها بالشؤون العامة. وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد، وأهم واجباتها أن تعني بتربيتهم"[381]. فها هي نفيسة لعبت دورا في الحياة العامة وتعدت الحريم وكان لها علاقة وطيدة بالشؤون العامة.

ومن ناحية أخرى إن النظرة إلى عموم النساء اللواتي انزوين خلف جدران الحريم على أنهن كن بمثابة الرقيق؛ فهذه الرؤية تنطوي على خلل في فهم الأحداث وتفسيرها وتحليلها من قبل سافاري وأمثاله من الأوربيين– الذين ينظرون إلى المجتمع المصري نظرة سطحية من الخارج وفق منظوره وثقافته كفرنسي، ولا يفهم هو المجتمع المصري برؤية من داخله ووفق ثقافته؛ لكي يستوعب الأمور على وجهها ويتجنب الزلل في الرؤية والتحليل؛ فلا يشين المرأة أن تكون مهمتها الأولى منزلها ورعاية زوجها وأولادها؛ فهذا هو الأصل في ضوء المفاهيم السائدة في ذلك العصر والتي كانت منبثقة من تصور المجتمع لدور المرأة الحقيقي، ومن أفضل الذين فهموا

[380]- عبد الرحمن الجبرتي :عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص 413.

[381]- Savary C. : op. cit, p.158 .

هذا من الأوربيين المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون حين قال: وقد بيَّنا درجة ابتعاد هذه الأحكام عن الصواب، ويتعجب الأوربيون كل العجب من حب النساء فيها لأزواجهن ومن تربيتهن لأولادهن وتدبيرهنَّ لأمور منازلهن"! ليس هذا فحسب بل يشير لوبون صراحة إلى اعتقاد المرأة الشرقية المسلمة أن هذا هو التقدم أو الرقي وإنه من التخلف والتراجع أن يصبح حالها مثل حال المرأة الأوربية التي تخرج للكدح والعمل؛ فيقول لوبون: "واعتقادهنَّ تقهقرهنَّ إذا ما حُمِلْنَ على تبديل حال الأوربيات بحالهن، وهن يتوجعن بإخلاص من إلزام الأوربيات بالأشغال وبالأعمال! ذاهبات إلى أن المرأة لم تُخلق لهذا"، ويضرب لوبون مثلا رائعا ورغم بساطته إلا أنه يجلي الصورة ويقربها للأذهان الأوربية؛ فيقول: "ينظر الشرقيون إلى الأوربيين الذين يُكرهون نساءهم على العمل كما ننظر نحن إلى حصان أصيل يستخدمه صاحبه في جَرَّ عَرَبة"[382]!

هذه رؤية المجتمع المصري من داخله؛ فالمرأة الشرقية تقدر الحياة الزوجية، ومن تقدير الرجال الشرقيين للمرأة وتكريمها ألا يخروجها للعمل، بينما تخرج للعمل في الغرب ويعدون هذا هو الطبيعي! ويصل التباين الصارخ ذروته في الثقافات بين الشرق والغرب حدا لفت انتباه الجبرتي وهو يتحدث عن تباين تعامل الرجال الفرنسيين مع النساء؛ فقال: "وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن، وموافقة مرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها[383] الحذاء[384]"؛ فالجبرتي ينعي حال الرجال الفرنسيين الذين يتعروضون للسب من النساء بل وللضرب بالحذاء من قبلهن، ومع ذلك يبدو هذا شيئا عاديا عندهم، في حين يعد هذا في الشرق جريمة وكبيرة لا يمكن قبولها أو تمريرها!

382- جوستاف لوبون: حضارة العرب، المرجع السابق، ص413.
383- تاسومة: كلمة تركية تعني: نوع من الأحذية، كانت تصنع من الجلد وتصبغ باللون الأحمر. حسن حلاق، وعباس صباغ: المرجع السابق، ص 50.
384- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج5، ص 127.

(4)
نفيســـــة ومحمد علي باشا

عاشت نفيسة حوالي أحد عشر عاما (1805-1816م) في عصر (محمد على)، حملت لها منذ بدايتها نذر أن الزمان قد قَلَبَ لها ظهر المجن؛ فلقد استمر منحى هبوط نفوذها بوتيرة أكثر تسارعا من ذي قبل، ولا غرو؛ فلقد كانت جزءا من جماعة المماليك التي أخذت نجومها في الأفول. ومنذ العام الأول من وصوله إلى سدة الحكم بدأ محمد علي سلسلة من الإجراءات ضد كثير من ذوي الثروة والنفوذ في العهد السابق، وهي منهم؛ فأصابها ما أصابهم من لأواء.

وكانت البداية من حاجة الباشا إلى المال؛ تلك الأزمة المزمنة التي واجهها منذ اعتلى عرش مصر في 1805م، واستمرت معه لسنوات، وكانت حلقاتها تزداد استحكاما مع مرور الأيام بدلا من انفراجها؛ لما كان يستجد من حوادث وأزمات سياسية متتالية[385]، وكان تدبيره للمال شاقا وعسيرا؛ فسلك طرقا شتى كتحصيل الغرامات وطلب القروض والسُّلَف الإجبارية، ومقاسمة الملتزمين إيراداتهم، إلى غير ذلك من الوسائل التي مكنته من سد حاجته مؤقتا إلى المال[386]. وفى هذا الإطار قام (محمد علي) في 25 أكتوبر 1805م برفع حصص الالتزام التي كانت بأيدي النساء، وكتبوا قوائم مزادها، فأزعجهن ذلك؛ ثم انتهى الأمر على "المصالحات بقدر حالهن"؛ فكان تلك حيلة واضحة للحصول على الأموال[387]. وعلى الرغم من أن الجبرتي لم يصرح باسم نفيسة في هذا الأمر إلا أنه لا يستبعد أن هذا الإجراء قد شملها؛ حيث إنها كانت من جملة النساء اللواتي كان لهن حصص التزام. والتي زادت بما منحها الفرنسيون من

385- كان أولها حاجته إلى المال لدفع مرتبات الجند، وإنجاز تحصينات القاهرة، ومواجهة مخاطر نقله من ولاية مصر 1806م، ثم مجيء حملة (فريزر) 1807م. وحرمان الباشا من أموال الصعيد وغلاله؛ لخضوعه لسيطرة البكوات المماليك، وكساد التجارة، ثم تعطل الزراعة؛ لما لحق الفلاحين من أذى الجنود. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج2، ص ص756- 758.

386-محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، المرجع السابق،ج2، ص ص756-758.

387- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص 453. محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن القرن التاسع التاسع عشر، المرجع السابق، ج2، ص 370-373.

التزام عدة قرى على نحو ما سبق ذكره، ومن المعلوم أن نساء المماليك كن أثرى من كثير من غيرهن في المجتمع المصري آنذاك.

وثمة من يرى أن محمد على قام بذلك كخطوة أولى نحو مصاردة حصص التزام طبقة الحريم المملوكي؛ لإضعاف مصادر دخلها؛ إذ إنه كان يعمل على تنحية هذه الطبقة عن قمة الهرم الاجتماعي[388]. ولا يُستبعد أن يكون ذلك أحد أهداف محمد علي، ولكن قصر قيامه بتلك الممارسات على رغبته في تنحيتهن عن قمة الهرم الاجتماعي فقط ليس دقيقا؛ إذ إن الدافع الأهم لتلك الإجراءات في بداية حكمه كان حاجته الماسة إلى المال كما سبقت الإشارة. ولعل ما يدعم ذلك أن هذا الإجراء لم يقتصر على تلك النسوة من حريم المماليك؛ بل امتد إلى الكثير من فئات المجتمع آنذاك وخصوصا تلك التي كان لديها ما يمكن أن يُدر شيئًا على خزانة الباشا الفقيرة؛ لتثبيت دعائم حكمه، وهو لا يزال بعد في أوله.

وتشير الدلائل إلى أن محمد علي لم يكن يهدف إلى تنحية الحريم المملوكي فقط عن قمة الهرم الاجتماعي؛ بل يهدف إلى الإطاحة بالمماليك ككل؛ رجالا ونساء؛ بل وبكل صاحب نفوذ سابق، ثم يصطنع طبقة جديدة من خاصته وذويه تحل محل رجالات العهد السابق بل ونسائهم. وهذا دأب أي حاكم جديد يريد التوطئة لنفسه لحكم يطول أمده.

ومما زاد الطين بلة والداء علة بالنسبة لنسوة المماليك أنهن لم يأمن على أنفسهن ولا على ما تحت إيديهن بعد أن صالحن على أنفسهن كما فعل غيرهن؛ فلقد طغى عساكر الباشا و"زاد فحشهم وقبحهم" على -حد تعبير الجبرتي- كما حدث في أول رمضان 1220هـ (23 نوفمبر 1805م) في سوق إمبابة؛ ونهبوا الباعة وتسلطوا على حريم بكوات المماليك للزواج بهن جبرا، ومن تأبى صادروا ما لديها من التزام وإيراد، وطردوها من دارها ونهبوا متاعها؛ فلا تجد مناصا من الموافقة. وقد حاولت بعضهن الهروب والتخفي ولكن دون جدوى، وتزيَّا عساكر الباشا بزي المماليك وركبوا الخيل المسومة ومنهم من نكح ما طاب له من نسائهم مثنى وثلاث[389]. وثمة من يرى أن

388- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 114.
389- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص 454، 455.

الباشا هو الذي أطلق العنان لهؤلاء العسكر لفعل ذلك مع حريم المماليك بهدف السيطرة على أملاكهن العقارية[390]. ولكن الراجح أن هؤلاء فعلوا تلك المنكرات رغما عن الباشا الذي لم يقو على ردعهم بسبب تمردهم لتأخر رواتبهم؛ فغض الطرف عن تلك الممارسات لعلهم يقنعوا بما نهبوا؛ فيكفوا عن مطالبته ولو إلى حين.

وفي الوقت الذي يذكر الجبرتي فيه أخبار نهب عساكر الباشا لبيوت المماليك والتزوج بحريمهم قسرا، مثل أرملة حسن بك الجداوي التي تزوج بها أحدهم، وبيت ياسين بك الذي نهبوه[391]؛ نجده لم يذكر أن نفيسة أو بيتها قد تعرضا لشيء من ذلك؛ وهذا يعني بجلاء أنه لم يصبها ما أصاب غيرها من أرامل البكوات المماليك؛ من إكراه على الزواج أو نهب قصرها، ولو أصابها ما أصابهن لذكره الجبرتي الذي ذكر ما حدث لمن هن دونها مكانة ومنزلة، ومعلوم أنها كانت من أثرى نساء المماليك إن لم تكن أثراهن على الإطلاق، وإن نجاتها من ذلك لأمر لافت جدا ومرده لهيبتها، ومكانتها في نفوس العامة والخاصة على نحو ما سبقت الإشارة وبرهنت عليه الحوادث ولعل أبرزها حادثة اعتقالها من قبل خورشيد قبل عام من تلك الأحداث.

ويُستبعد أن يكون تقدمها في السن سببا في عزوفهم عن إجبارها على الزواج؛ إذ لم تكن الرغبة في الزواج هي الدافع الرئيس لأولئك العسكر الهمج؛ بل الرغبة في حيازة ما لدى تلك الأرامل من ثروة. وتشير الدلائل إلى أنها وإن أفلت بيتها من النهب وأفلتت هي من الإكراه على الزواج إلا أنها لم تفلت من المصادرات.

ويعد عام 1807م عاما فارقا بالنسبة لجماعة المماليك ولـــ(محمد علي) على السواء؛ إذ توفي في يناير منه محمد بك الألفي؛ الذي كان يعد أهم أمراء المماليك على الإطلاق آنذاك، والذي كان محمد علي يحسب له ألف حساب ويعده أكبر خطر كان يتهدده آنذاك[392]، ففقد المماليك بموته المفاجيء أهم رجالاتهم؛ فازادوا وهْنَاً على وَهْنٍ، بينما تنفس (محمد علي) الصعداء بموته إلى الحد الذي صرح به قائلا حينما بلغه

390- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 114.
391- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص 454، 455.
392- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ج2، ص497.

موت الألفي: "الآن ملكت مصر"[393]؛ ففقد المماليك –رجالا ونساء– بفقده ظهيرا قويا. وفي العام نفسه فشلت حملة فريزر، فتعزز مركز محمد علي.

ولا ريب أن نفيسة كانت تتابع وتراقب تلك الحوادث التي تؤكد أن زمن جماعتها في إدبار، وعلى الرغم مما قد يكون أصاب نفيسة من مصادرات أثرت سلبا على مصادر دخلها في عصر (محمد علي) إلا أن الدلائل تشير أنها بقيت على عهدها من بر وإحسان ومروءة في تلك الحقبة القاسية عليها؛ ففي منتصف مايو 1808م "تزوج عمر بك بجارية من جوارى الست نفيسة المرادية وجهزتها جهازا نفيسا من مالها"[394]. وهذا يوحي بأنها لم تبخل على أولئك النسوة اللواتي كانت بمثابة أمٍ حنون لهن، وظلت تضطلع بهذا الدور بشهامة، وتشير تلك الحادثة أيضا إلى أنها حتى ذلك الحين كان لازال لديها الكثير مما تنفقه على جواريها وحاشيتها.

وذهب (ناصر سليمان) إلى أن (محمد على) كان قد تابع عن كثب حادثة استدعاء الست نفيسة إلى القلعة، وهَبَّة الزعامة الشعبية والدينية لحمايتها، وما أصاب خورشيد باشا من قلق على مركزه السياسي، واستجابته دون شروط للتراجع عن اعتقالها. وأنه (محمد على) قد تنبه من تلك الحادثة إلى ضرورة عدم المساس بالست نفيسة وحاشيتها، كما ذهب إلى أن محمد علي ظل منذ حصوله على ولاية مصر وحتى وفاتها حافظاً لها قدرها وحرمة قصرها وأتباعها[395]. بينما ذهب (محمود الشرقاوي) إلى أن الست نفيسة، لقيت أشد المحن والكوارث على يد (محمد على)؛ حيث صادر ما بقي عندها من مال وعقار. وعاشت بقية أيامها في "فقر وجهد". ولكنها قابلت ذلك كله بصبر، ولم تفارقها مروءتها، ولا شمم نفسها، رغم هذه المحن والكوارث[396]. ويتفق (أحمد حافظ عوض) مع (محمود الشرقاوي) في أن أقسى ما تجرعته نفيسة في أواخر أيامها كان على يدي (محمد علي) بعد توليه إمارة مصر؛ إذ صادر أملاكها، واغتصب ما لديها من مال وعقار؛ فضاقت ذات يدها وعاشت في فقر، مع مروءة وحشمة حتى

393- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص539.
394- تفسه، ص 743.
395- ناصر سليمان : المرجع السابق، ص 114
396- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص171.

أدركتها الوفاة. وينقل (أحمد حافظ عوض) عن (فيلكس مانجن)[397] أن نابليون –وهو في قمة مجده في فرنسا وأوربا– لم ينس نفيسة المرادية؛ وأنه بعث بأوامره إلى قنصل فرنسا في مصر، في أوائل حكم (محمد علي)، ليتخذ كل الوسائل لحماية السيدة نفيسة والدفاع عن مصالحها، ولكن لم يجدها ذلك نفعًا[398]. وذهب عبد الرحمن الرافعي كذلك إلى أن نفيسة في عصر محمد على أدبرت عنها الدنيا وفقدت أملاكها ولم يبق لها سوى النزر اليسير منه؛ فعاشت في قلة وفاقة[399]. وهذا جراء المصادرات التي تعرضت لها؛ فوصلت بها إلى تلك الحالة. ويتفق الباحث مع ما ذهبت إليه (دعاء قنديل) من أن (محمد علي) حاول جاهداً إذلال نفيسة، وقد ظهر تحامله عليها بشكل واضح...[400].

وتشير الدلائل إلى أن محمد علي لم يرع مكانة نفيسة وأنها لم تحظ لديه بالتقدير، ولعل ما ذكره الجبرتي يدعم هذا؛ حين روى أن محمد علي وذويه حين طابت لهم مصر واستوطنوها وتنعموا فيها أرسلوا إلى أهليهم وأقاربهم بالحضور؛ فأخذوا يتوافدون أفواجا نساء ورجالا وأطفالا. وأنه في 22 مايو 1809م وصل خبر بحضور زوجة محمد علي باشا أم أولاده وابنه الصغير إسماعيل وكثير من أقاربهم وأهليهم من بلدهم (قوله) إلى الإسكندرية[401]. وفي 28 مايو 1809م نبهوا على جميع النساء والخوندات وكل من كان لها اسم في الالتزام أن يركبن ويذهبن إلى ملاقاة امرأة الباشا بـــ(بولاق) في يوم 30 مايو، واعتذرت الست نفيسة بأنها مريضة ولا تقدر على الحركة والخروج؛ فلم يقبلوا لها عذرا؛ فاضطرت للخروج مع ما يزيد عن خمسمائة من النساء إلى ساحل بولاق. (كان بالقاهرة ميناءان نهريان في بولاق ومصر القديمة) حتى

397- ذكر أحمد حافظ عوض أن القنصل الفرنسي الذي تلقي توصية بونابرت كان (ماثيو دلسبس) وهذا خطأ لأن ماثيو كان قد ترك منصبه هذا في ديسمبر 1804م أي قبل أن يتولي محمد علي الحكم، وكان دروفيتي هو الذي حل محله من ذلك التاريخ، (كنائب قومسيير للعلاقات التجارية الفرنسية). محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ج2، ص 537. وعبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، المرجع السابق، ج1، ص 453.

398- أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص293.

399- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، المرجع السابق، ص270.

400- Kandil, D. A. :op. cit, p.28.

401- أخطأ (جي فارجيت) حين قال: "لم تلحق أمينة زوجة محمد علي به في مصر إلا بعد عشر سنوات. والصواب أنها لحقت به بعد أربع سنوات فقط. جي فارجيت: محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة: محمد عواد، الهيئة العامة للكتاب، 2005م، ص32.

ركبت زوجة الباشا، وسرن معها إلى الأزبكية، وضربوا لوصولها مدافع كثيرة، ثم وصلت الهدايا من كل ناحية[402].

ويُستَشَفُّ من هذه الحادثة مدى إحباط نفيسة من (محمد علي) وممارساته إزاء حريم المماليك من إهانات ومصادرات وإكراه على الزواج؛ فلم تَجِد لديها رغبة في أن تشارك في موكب مفتعل للاحتفال بقدوم زوجة الباشا، فتعللت بالمرض؛ فرُفِض عذرها وأُجبرت على الخروج لملاقاة زوجته؛ فلم تملك إلا الامتثال؛ ويُلحظ أن الجبرتي قد خص نفيسة بالذكر في هذه الحادثة ويبدو من هذا بجلاء أن (محمد علي) كان يعرف مكانتها وقدرها بين الناس؛ ولهذا حرص على أن تكون في مقدمة المستقبلين لزوجته، وعدم قبول عذرها تفوح منه رائحة الرغبة في الإذلال وشيء من دناءة النفس لديه فلربما لو ترفع وتعفف وقَبِلَ عذرها لكان أليق بمروءة الملوك. وهذا يفند الرأي القائل بأنه ظل حافظاً لها قدرها وحرمة قصرها وأتباعها.

ويمكن القول بأن العام السادس من حكم محمد علي كان من أشد الأعوام على نفيسة وأقساها؛ فلا ريب أنها تابعت أخبار مذبحة القلعة أول مارس1811م وما تلاها من وقائع تشيب لهولها نواصي الولدان؛ وهي التي كانت تلقب بـــ(أم المماليك) ووُصِفت بأنها وكيلتهم، فبأي قلب واجف تابعت تلك الأحداث الرهيبة وهي التي كانت ملاذا وحصنا للخائفين منهم حتى عهد قريب. ولقد صور الجبرتي تلك الحوادث بتفصيل يمكن استعراضه بإيجاز لنرى كيف كانت نفيسة تتلقى تلك الأخبار وتعاينها.

ذكر الجبرتي أنه عندما تحقق عسكر (محمد علي) من حصول مذبحة القلعة انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت بكوات المماليك –بل وإلى من جاورهم– فولجوها بغتة ونهبوها نهبا، وهتكوا الحرائر والجواري وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب، ولم يجدوا مانعا ولا رادعا. وبعضهم قبض على يد امرأة لسلب سوارها؛ فلم يتمكن من نزعه بسرعة؛ فقطع يدها! وانتهبت دور كثيرة من المجاورين لهم أو لدور أتباعهم بأدنى شبهة وبغير شبهة. ويقدم الجبرتي تفسيرا لهذا القدر من الوحشية التي

402- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص ص783 ،784.

بدت من عسكر الباشا تجاه نساء المماليك بأنهم أظهروا ما كان مخفيا في صدورهم من التشفى والانتقام منهن؛ فإن العظيم من عسكر (محمد علي) كان إذا تقدم لخطبة أدنى امرأة من نساء المماليك ليتزوج بها؛ فلا ترضى به وتعافه وتأنف قربه، وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه وإلا هربت من بيتها واختفت شهورا، وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته في الحال[403]!

ولا ريب أن قتل هذه الأعداد الكبيرة من المماليك وهذا الهجوم الوحشي على حريمهم صدم السيدة نفيسة وجعلها محطمة القلب؛ لرؤية الانهيار المأساوي لهذه المؤسسة التي كانت تنتمي إليها بكل كيانها، وتتوق إلى رؤيتهم مزدهرين مرة أخرى؛ فاعتزلت الحياة العامة لأول مرة وسلمت نفسها للحزن والعزلة. وسئمت السياسة؛ فودعتها وفضلت أن تعيش في الظل بقية حياتها[404]. والحقيقة أن نفيسة لم تعتزل الحياة العامة ولم تؤثر العيش في الظل بإرادتها؛ بل أجبرت على هذا؛ فلم يعد ممكنا ولا مسموحا لها أن تقوم بأي دور قيادي مما كانت تقوم به سابقا.

ومما يلفت الانتباه أن قصر نفيسة سلم فيما يبدو من هذه الجرائم وسلمت هي نفسها، ولا ريب أنها لو تعرضت لمثل ما تعرض له غيرها من أرامل البكوات لذكره الجبرتي حتما. وهذا من أدلة تمتع تلك المرأة بمنزلة خاصة جعلت لها هيبة حالت دون إهانتها حتى في أصعب أوقات المحن.

وقد لاحظ دروفيتى[405]، Bernardino Michel Marie Drovetti القنصل الفرنسي بالقاهرة والذي كان مقربا من محمد علي ويتباهى بكونه صديقًا ومستشارًا

403- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص ص97-99.

404 -Kandil, D. A. : op. cit, p.28.

405- دروفتي: هو برناردينو ميشيل مارى دروفتي، وُلِد في بيدمونت، في عام 1776م. درس القانون، أصبح محاميًا في تورينو، وتأثر بآراء الثورة الفرنسية، وانخرط في السلك العسكرى الفرنسي في 1796م ثم أخذ في الترقي، حضر معركة مارنجو (14 يونيو 1800م)، وعُيّن نائبًا أو وكيلا لمفوض العلاقات التجارية الفرنسية في الإسكندرية في أكتوبر 1802م، نال ثناء نابليون. وبعد رحيل (ماثيو دلسبس) عن منصب القنصل العام لفرنسا في مصر في ديسمبر 1804، حل دروفيتي محله، (كنائب قومسيير للعلاقات التجارية الفرنسية) لكنه لم يُعيّن قنصلًا عامًا حتى عام 1808 بعد بذل جهود كبيرة. ولم يقتصر دروفيتي على دوره الدبلوماسي، بل قام برحلات عديدة في أنحاء مصر وأظهر حماسًا في التنقيب عن الآثار. وأُعفي دروفيتي من مهامه في عام 1814م

للباشا، والمتابع بدقة لهذه الحوادث[406]، أن (محمد علي) بات "عرضة للمقت العام"؛ فقد تركت تلك الانتهاكات في نفوس الناس أثرا مهولا؛ لأن بيوت الحريم لها "حرمات مقدسة". وعقب المذبحة مباشرة، اتجه محمد علي باشا إلى مصادرة حصص التزام المماليك[407]. ومن ثم كانت ملاحظة دروفيتي دقيقة حين كتب في عام 1812م أن الفقر بدأ يتسلل حتى إلى الأسر التي كانت ميسورة الحال في السابق، ولا ريب أن نفيسة كانت من أولئك الذي بدأ الفقر يتسلل إليهم رغم أنهم كانوا من الميسورين سابقا. وكانت النتيجة التي لاحظها دروفيتي أنه من جراء تلك الإجراءات أن أصبح الباشا "موضع لعنة عامة". وروى بتفصيل كبير، الانتفاضات التي اندلعت في البلاد في عهد محمد علي كالانتفاضة في صعيد مصر في أغسطس 1812م[408].

وفي 20 فبراير 1814م صادر (محمد علي) الالتزام وألغى نظامه؛ فضج الناس وتساءلوا: "كيف تقطعون معايش الناس وأرزاقهم وفيهم أرامل وعواجز يتعيشن من إيراده فينقطع عنهن"؟! وكتبوا شكوى للباشا. وفى 25 فبراير 1814م حضر جميع غفير من الملتزمات وأكثرهن من نساء المماليك إلى الأزهر وصرخن في وجوه الفقهاء ومنعوهن من إلقاء الدروس وبددن محافظهم وأوراقهم، واجتمع معهن الكثير من العامة، ثم انصرفن وهن يقلن نأتي في كل يوم على هذا المنوال حتى يفرجوا لنا عن حصصنا ومعايشنا وأرزاقنا. ويعلق الجبرتي ساخرا من أملهن في أن يحدث هذا التظاهر أثرا إيجابيا؛ إذ إنه كان يرى أنه لا أمل في تراجع الباشا عن قراره بمصادرة

عقب سقوط نابليون. ثم صدر أمر في 1821م بتعيينه قنصلًا عامًا لفرنسا في مصر مرة أخرى، وظل يشغله حتى عام 1829م. ثم توفي في 1852م. Koenig, V.: Drovettei et l'Égypte -de Mohamed Aly, Annales islamologiques, Année 1982, p. 252. ومحمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج2، ص 537.

406- خلال إقامته الطويلة في مصر، وبفضل أصدقائه ومعارفه فيها، تمكن دروفيتي من إنشاء شبكة من المخبرين تنقل له كل ما كان يحدث في البلاد، ومن ثم كانت جودة معلوماته عن مصر بشكل عام، كان دروفيتي يعلم جيدًا الغرض من جمع كل هذه المعلومات تحسبًا لـ"الأحداث التي ستُمكّننا يومًا ما من الاستيلاء على البلاد"، كما كتب بنفسه. Koenig, V. : , pp 240,251.

407- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 115

408 - Ibid,p. 248

التزاماتهن؛ فقال: "وفي ظن الناس وغفلتهم أن في الإناء بقية أو أنهم يدفعون الرزية! وما علموا أن البساط قد انطوى، وكلٌ قد ضل وأضل وغوى، ومال عن الصراط واتبع الهوى، وكلب الجور قد كشر أنيابه وعوى، ولم يجد له طاردا ولا معارضا ولا معاندا، وانفض المجلس وبردت همتهم وانكمشوا"[409]. ولا يخفى ما في هذا من نقد لاذع للجميع شعبا وحكومة عبر عنه بـــ"وكل قد ضل وأضل وغوى". وخص (محمد علي) بوصف حاد "كلب الجور قد كشر أنيابه وعوى". وأنه لم يعد يخشى شيئا بعد أن تخلص من الزعامة الشعبية بنفي عمر مكرم (1809م) ثم المماليك بمذبحة القلعة (1811م)، ومشيرا إلى أنهن يأسن في نهاية المطاف من إجابة مطلبهن وأدركن عبث شكواهن التي لا تجد آذانا صاغية ولا أناتهن قلوبا واعية.

وهكذا، وجدت الست نفيسة، وغيرها من نسوة المماليك، جزءًا مهما من ثرواتهن ينتقل إلى أملاك الحكومة، مما سوف يسهل عملية "الإحلال الطبقى" لفئات جديدة من صنع النظام (الحديث)، أخذت موضعها فوق قمة الهرم الاجتماعى. وإذا كان من غير المعلوم مقدار ثروة نفيسة وأملاكها؛ فذلك مرده غالبا إلى أن الباشا لم يكن يحفل بتسجيل ثروة من تمت مصادرة ممتلكاتهم من المماليك، وخاصة أولئك الذين لم يعقبوا ذرية قوية، إلا أنه يمكن التأكيد على أن محصلة عملية المصادرات المنتظمة والتدريجية منذ عهد الحملة الفرنسية وما تلاها، كانت قد أسفرت في سنواتها الأخيرة إلى إفقار نفيسة؛ فانقلبت حياتها رأساً على عقب؛ ولم يُبق لها محمد على سوى موارد بسيطة، جعلتها تعيش في حالة مزرية-على حد قول (فليكس مانجن)- حتى قضت نَحْبَهَا[410]. وهذا تحليل سديد من (ناصر سليمان) تدعمه كثير من الدلائل، ولكنه يتعارض مع ما ذهب إليه من قبل حين ذكر أن حادثة اعتقال خورشيد لنفيسة نبهت محمد علي "إلى ضرورة عدم المساس بالست نفيسة وحاشيتها، وأنه (محمد علي) ظل

409- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 7، ص ص 296، 297.

410- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 115.

منذ حصوله على ولاية مصر وحتى وفاتها حافظاً لها قدرها وحرمة قصرها وأتباعها على نحو ما سبق ذكره.

وتجدر الإشارة إلى أن الجبرتي كان يرى أن محمد علي "من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس[411]. ويبدو أنه كان محقًا في رأيه ولكن مما يلفت الانتباه أن تلك الأدواء لم تكن تقتصر عليه؛ بل كانت كذلك في زوجته التي دخلت مع زوجها على خط (امتصاص دماء) تلك النسوة مما ساهم في تردي أحوالهن المالية إلى حد مزر جدا.

لقد كان حسد (محمد علي) وتطلعه لما في إيدي الناس سببا في انحدار الوضع المادي لنسوة النخبة المملوكية في خلال العقد الأول من حكم محمد علي –ونفيسة منهن– لكن الأمر لم يقتصر عليه كما سبقت الإشارة بل تعداه إلى زوجته؛ فلقد قص الجبرتي خبرا يؤكد ذلك ويبدي ما تعرضت له تلك النسوة من ابتزاز من الباشا وأهل بيته لهن. وهو خبر احتفال محمد علي بزواج ابنه وابنته؛ (زواج إسماعيل بن محمد علي باشا على بنت عارف بك، وزواج بنت محمد علي باشا بمحمد بك الدفتردار في يناير 1814م)؛ فقد ذكر مأساة أولئك النسوة اللواتي كن يُضْطَرَرْن إلى تقديم الهدايا والجواهر والتحف والأمتعة؛ فكانت إذا قدمت إحدى المشهورات منهن هديتها عرضوها على "أم العروسين التي هي زوجة الباشا" فكانت لا تقبل من الهدايا إلا ما يعجبها من "المصاغ المجوهرات وغيرها، وإن لم يعجبها ردت الهدية قائلة: هل "هذا مقام فلانة التي كانت بنت أمير مصر أو زوجته"؟! وإزاء تلك العجرفة والجشع؛ فلا مناص أمامهن إلا كما وصف الجبرتي "فتتكلف المسكينة للزيادة ونحو ذلك مع ما يلحقها من كسر الخاطر وانكساف البال". وفي السياق ذاته يصفهن الجبرتي بـــ"بنساء الأمراء المصريين المنكوبين"، ورغم أنهن قد بذلن جهدهن لتقديم الهدايا الثمينة و"تكلفوا فوق طاقتهم وباعوا واستدانوا وغرموا في النقوط والتقادم والهدايا في هذين الزواجين حتى أصبحوا به مجردين ومديونين"[412]. إلا أن هذا لم يشفع لهن لدى زوجة الباشا! بعد المصادرات

411- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 7، ص 16.
412- نفسه، ص ص280- 290. تم نقل كلام الجبرتي بنصه دون تصويب الأخطاء اللغوية.

المتتالية! وكأنهن كن في حاجة إلى مزيد من الابتزاز المادي؟ وكأن زوجة الباشا لم يكفها ما فعل زوجها معهن. ولسان حالهن يقول:

ولو كان رُمحًا واحدًا لاتقيته *.*.* ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

إلى هذا الحد البائس وصل حال نفيسة وأترابها! ورغم أن الجبرتي لم يصرح باسمها في هذه الحادثة إلا أن في قوله "إحدى المشهورات منهن"، ثم في قول زوجة الباشا حين كانت ترفض الهدية المتواضعة من وجهة نظرها: هل "هذا مقام فلانة التي كانت بنت أمير مصر أو زوجته"؟! ومَن مِن أولئك الشهيرات كانت زوجة لأمير مصر يوما ما في ذلك العام سواها تقريبا؟ وانظر لنعوت الجبرتي المشحونة بالأسى على حالهن "المنكوبين"، "المسكينة"، "كسر الخاطر وانكساف البال"، "تكلفوا فوق طاقتهم، وباعوا واستدانوا وغرموا"، "أصبحوا به مجردين ومديونين"!

ويقترب وصف الجبرتي لحال تلك النسوة من المماليك مع وصف القنصل الفرنسى روسيل بالإسكندرية لفلول المماليك فى نهاية عام1816م بـــ"البقايا البائسة" Les triste débris[413]. أو الأطلال الحزينة! ولكنه على الرغم من متاعبها وتبدل أحوالها، فقد ظلت نفيسة حتى في أيام محنتها ترعى بمعروفها وبرها أسرا كثيرة أعنتها العسر بعد سنوات من اليسر[414].

إن موقف (محمد علي) الحاد من نفيسة يذكر برأي الإمام محمد عبده (1849-1905م) حين قارن بين حكومة (محمد على) وبين حكومة المماليك التي سبقته؛ فرأى أن الحكومتين كانتا ظالمتين، ولكنه فضل حكومة المماليك؛ لأن قبضتها على عقول الشعب وحرياته لم تكن حديدية كقبضة (محمد على)، ولم تُصِب الشخصية المصرية بالضعف الذي أصيبت به من قهر (محمد على) واستبداده، فكان مما قال: كان (محمد علي) تاجراً زارعا، وجنديا باسلاً، ومستبدا ماهرا ولكنه كان لمصر قاهراً، ولحياتها الحقيقية معدما"، "إن محمد على لم يستطع أن يحيى ولكنه استطاع أن يميت..وكان صاحب حيلة...وبعد أن سحق الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء

413- ناصر سليمان: المرجع السابق، ص 114.
414- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص172.

البيوت الكبيرة؛ فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير "أنا"!...وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة، في أنفس بعض أفرادها..."[415]. ويمكن القول أن نفيسة كانت من أولئك الأفراد!

هويـة نفيـسـة:

وقبل ختام هذه الدراسة؛ يجدر مناقشة مسألة هوية نفيسة، ويمكن القول من خلال ما سبق أنها كانت من أصل جورجي، بيد أنها حين استقر بها المقام في مصر، وتزوجت من علية القوم فيها واندمجت في المجتمع المصري وانصبغت بصبغته دينا ولغة وثقافة وعادات وتقاليد، وأحسنت إلى المصريين حتى أحبوها. فهذا يعني أنها تمصرت؛ فلقد كانت مصر تعج بالوافدين من كل حدب وصوب واستقر كثير منهم فيها واتخذوها وطنا أثيرا لهم؛ فلا غضاضة من وصفهم بأنهم كانوا "مصريين"؛ فالجبرتي نفسه ليس من أصول مصرية كما هو معلوم، ومع هذا لا يختلف اثنان على مصريته.

لقد كانت نفيسة تنتمي إلى مؤسسة أو جماعة المماليك وقد كان الجبرتي يصف بكوات المماليك بـــ"الأمراء المصرلية" و"المصريين". ونقولا الترك أيضا كان يصف المماليك بـــ"المصريين"؛ قائلا: "عساكر الغز (المماليك) المصريين" "الغز المصريين"[416]. ومن ثم فلا حرج في أن تعد نفيسة مصرية؛ حيث لم يكن المصريون الأقحاح آنذاك ينظرون إليها –ولا هي إلى نفسها– على أنها غريبة عنهم أو عن بلدهم. فتشربت عناصر الهوية المصرية من حيث التدين بالإسلام والتحدث باللغة العربية والتشرب بالثقافة العربية المصرية التي يتشرب منها عموم المصريين.

وثمة من ذهب إلى أن مماليك القاهرة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على وجه الخصوص، انغمسوا في الثقافة المحلية؛ لتدعيم وضعهم الاجتماعى وتأكيد شرعيتهم، وأنهم كانوا أقرب إلى البيئة المصرية ثقافياً، ومن دلائل تأثرهم بثقافة

415- محمد عبده: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده في الكتابات السياسية، تحقيق وتقديم محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، 2009، ص 97.
416- نقولا الترك: المصدر السابق، ص169، 175.

المصريين أنهم كانوا يتخذون أسماء عربية مثل محمد وأحمد وعلى[417]. ونفيسة، وفاطمة، عائشة، كما سبق الذكر.

وثمة واقعة تعود إلى عام 1787م، تشير بجلاء إلى حقيقة أن المماليك في ذلك العصر كانوا قد أصبحوا جزءا من المجتمع المصري وينظر المصريون الأقحاح لهم على أن (المماليك) مصريون مثلهم، من خلال واقعة رواها الجبرتي في أحداث صفر 1202 هـ/ نوفمبر 1787 م، حيث أورد الآتي: "قال إسماعيل بك للمشايخ واكتبوا للدولة (العثمانية) يرسلوا لنا عساكر؛ فقال الشيخ العروسي (شيخ الازهر): لا يُحتاج إلى ذلك؛ فإن العساكر الرومية (العثمانية) لا تنفع بين العساكر المصرية (يقصد المملوكية)، والأولى استجلاب خواطر الجند بالإحسان إليهم، والذي تعطوه للأغراب أعطوه لأهل بلادكم أولى[418]. ومعنى هذا أن إسماعيل بك كان حاكم القاهرة القوى طلب من العلماء أن يرسلوا إلى إسلامبول لترسل قوات عثمانية لفرض النظام في مصر؛ فأجاب العروسي قائلا إنه لا حاجة إلى ذلك؛ فالأتراك أو العسكر الرومية (أي العثمانية) لن يقدروا على العسكر المصرية والأفضل هو إكرام العسكر المصرية (المماليك) والتودد لهم، والذي تعطيه للغرباء (يقصد الأتراك) أعطوه لأولاد بلدكم أولى[419]. هنا يعد العروسي أن المماليك من أهل البلد وأنهم ليسوا غرباء. وقياسا على ذلك يمكن النظر إلى نفيسة بروح ذلك العصر الذي كان المصريون ينظرون فيه إلى المماليك –وهي منهم– على أنهم مثلهم في المصرية سواء بسواء. وبما أن نفيسة من المماليك فتأخذ حكمهم والوصف الذي كانوا يوصفون به.

وثمة واقعة أخرى تؤكد ذلك حدثت حينما طلب (على باشا الجزايرلي) من المماليك الخروج من مصر؛ فرد عليه إبراهيم بك رافضا بشدة ذلك؛ على أساس أن مصر وطنهم وأن لا يمكن أن يقبل هو ورجاله الخروج من وطنهم مصر؛ فقال: "وأما

417- ناصر أحمد إبراهيم: المجتمع الحاضن وثقافة الاحتواء تجربة اندماج المماليك في المجتمع المصري، مجلة مصر الحديثة، مجلد 16،2017م، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص78

418- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 3، ص 340.

419- ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2007م ص 385.

قولكم إننا نخرج من مصر؛ فهذا لا يمكن، ولا تطاوعنا جماعتنا وعساكرنا على الخروج من أوطانهم؛ بعد استقرارهم فيها[420]؛ وهذا الواقعة كاشفة عن نظرة المماليك إلى مصر على أنها وطنهم ولا يمكن الخروج منها.

فهذا الجبرتي يَعُدُّهم مصريين، ونقولا الترك يعدهم مصريين، وشيخ الأزهر يعدهم مصريين، والمماليك أنفسهم يعدون أنفسهم مصريين؛ فلا مناص إذن من التسليم بذلك؛ وخصوصا في عصر لم يظهر فيه المعنى المعاصر للوطنية وفي زمن لم تكن قوانين الجنسية المصرية بمفهومها المعاصر قد شرعت بعد.

وبناء على ما سبق يمكن أن تعد نفيسة (مصرية)، لأنها كانت تنتمي إلى المماليك الذين كانوا يعدون مصريين؛ وبما أنها كانت تلقب بـــ"أم المماليك" الذين كان يطلق عليهم (مصريون)؛ فهل يُعَدُّ من المبالغة أن يُطلق عليها (أم المصريين)؟!

وفاة نفيســـــة:

وفي يوم الخميس 25 من جمادى الأولى1231هـــ، الموافق 22 أبريل 1816م[421]، توفيت نفيسة ودفنت بجوار الإمام الشافعي. ووصفها الجبرتي حين أرخ لوفاتها: "وماتت الست جليلة خاتون..."[422]. والجليلة والخاتون والخوند من ألقاب الإجلال التي كانت تطلق على المرأة ذات الشأن في العصر المملوكي[423]. ومعلوم أن كثيرا من مؤثراته استمرت في العصر العثماني. وقال الجبرتي أيضا: "وعمرت طويلا، مع العز والسيادة والكلمة النافذة[424]. ويقول علي مبارك: أضيفت الدار إلى الدولة،

420- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج6، ص 204.
421- أخطأ (أحمد حافظ عوض) في ذكر تاريخ وفاة نفيسة؛ حيث ذكر إنها توفيت في 22 ديسمبر 1816م موافق 25 جمادى الأولى 1231هـ. أحمد حافظ عوض: المرجع السابق، ص 391. ولا ريب أن هذا خطأ؛ حيث إن الجبرتي الذي عاصرها ذكر يوم وفاتها بالتحديد، وأدق في ذكر التاريخ وأوثق.
422- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، قصور الثقافة، ج 7، المصدر السابق، ص 461.
423- أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م، ص16.
424- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، قصور الثقافة، ج 7، المصدر السابق، ص 461.

وسكنها بعض أكابرها، ثم أخذت هذه الدار في التنظيم الذي حصل بالأزبكية، ودخل جزء صغير في السراية المستجدة التي خصصت مقرا لـــ"صندوق الدين". أما الساقية التي كانت تقع في آخر درب عبد الحق؛ فظلت موجودة إلى الوقت الذي كتب فيه الخطط التوفيقية (بين عامي 1872-1888م)[425].

وهكذا، ماتت نفيسة "عجوزا، فقيرة، عزيزة، بعد أن كانت ملكة على مصر"[426]. وليس مقصد الباحث أنها كانت ملكة بالمعنى الحرفي للكلمة وإنما كـــ"ملكة"؛ على أساس أنها كانت زوجة لحاكمين من أهم حكام مصر في تلك الحقبة وكان لها من النفوذ والحضور ما يكون للملكات زوجات الملوك.

وثمة ملحوظة جديرة بالذكر أنه منذ سنة 1224هـــ (1809م) لم يعد الجبرتي يذكر تراجم لوفيات المماليك؛ لضعف تواجدهم وقلة أهميتهم، فيما عدا سنة 1231هـــ(1815-1816م)؛ حيث عاد لذكر وفاة نفيسة[427]. بعد أن توقف عن تراجم وفياتهم حوالي سبع سنوات متصلة. ولا غرو في ذلك فقد كانت بمثابة أمهم ووكيلتهم، والتي رغم أنها حين ماتت كان الزمان عنها في إدبار إلا أنها كانت كالشمس التي غربت ولكن الدفء الذي يُشَعُ في جوف الليل مصدره شمس النهار.

425- علي مبارك: الخطط التوفيقية لمصر القاهرة، ج3، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ص 388.
426- محمود الشرقاوي: المرجع السابق، ص171.
427- وعاد الجبرتي مرة أخرى في سنة 1233هـ حيث ذكر وفاة أحد بكوات المماليك ويدعى أيوب كتخدا الفلاح آخر جماعة الفلاح. الجبرتي: عجائب الآثار، المصدر السابق، ج 6، ص 844.

الخاتمة

يمكن استخلاص النتائج التالية:

ـ ولدت نفيسة وعاشت في مرحلة باكرة من حياتها في مسقط رأسها حرة ثم استرقت وعاشت كجارية لفترة قصيرة، وغدت حرة وتزوجت باثنين من حكام مصر، ومارست دورا بارزا في الحياة العامة المصرية بحسبانها سيدة من سيدات المجتمع بل وفي مقدمة نخبته وصفوته، ويستحيل أن يكون لها هذا الدور وهي جارية! ومن ثم يبدو بجلاء عدم صلاحية مصطلح (الجواري) في سياق الحديث عن نساء النخبة المملوكية مثل نفيسة وغيرها؛ إذ لم تكن جارية إلا في فترة قصيرة جدا من حياتها ثم غدت حرة بالمعنى الحقيقي والاصطلاحي للكلمة، وليست حرة فقط؛ بل وسيدة، ليس أدل على ذلك من الاسم الذي لازمها منذ وقت مبكر من حياتها حتى ماتت وهو "الست نفيسة".

ـ كان للبيئة التي عاشت فيها نفيسة عقودا في كنف علي بك الكبير ثم مراد بك أثرها البالغ في تشكيل ملامح هويتها وصقل شخصيتها وإكسابها خبرات واسعة، مكنتها من تكوين شبكة علاقات ممتازة مع الشعب، وزعمائه، ومع الأجانب، فضلا عن علاقاتها الوطيدة بنخبتها المملوكية التي أغدقت على رجالها ونسائها؛ فاكتسبت ولاء الجميع، وحين هبطت الحملة الفرنسية استطاعت بحكمة بالغة أن تتجاوز العاصفة؛ فانحت لها حين هبت عاتية، حتى خرجت منها سالمة غانمة، كما استطاعت بدهاء أن تفلت من تقلبات فترة الاضطرابات الساسية والتي بلغت ذروتها باعتقالها علي يدي خورشيد باشا، ولكنها لم تستطع أن تصمد أمام رياح (محمد علي) العاتية التي هبت فدهمتها بما لا تشتهي سفنها وبما لا تقدر عليها أشرعتها التي تكسرت تحت عنفوان عاصفته الهوجاء التي لاحقت جماعتها بالتصفية الجسدية والمالية؛ فأصابها بعض ما أصابهم من تنكيل ومصادرات أودت بها إلى الفاقة والانزواء في نهاية المطاف.

ـ كانت نفيسة امرأة واسعة الحيلة متعلمة، تقرأ وتكتب، مثقفة؛ مما عزز من مكانتها وهيبتها بين رجال الدولة والعلماء. ثرية؛ استخدمت ثروتها بذكاء لتقوية نفوذها وبناء شبكة علاقات قوية مع المصريين عامتهم وخاصتهم فأنشأت مؤسسات خيرية (مثل السبيل والكتاب)، فجنت ثمار ذلك محبة وتقديرا ودعما لها في أوقات محنتها كما حدث لدى اعتقالها من قبل خورشيد، ومن ناحية أخرى أغدقت على جواريها والمماليك فأحبوها ودانوا لها بالولاء والاحترام ولقبت عن جدارة بلقب أم المماليك.

ـ كانت نفيسة تجيد المناورات من أجل مصلحتها ومصلحة جماعتها والمصريين؛ فرغم ضيقها بالفرنسيين حين احتلوا مصر إلا أنها لم تقطع معهم شعرة معاوية التي ظلت تقوى حتى لجأ إليها كليبر للوساطة في الصلح حتى تم توقيع معاهدة سلام مع زوجها بواسطتها، وإذا عُقدت مقارنة بين موقف نفيسة ومواقف آخرين من نخبة المصريين؛ يمكن تفهم موقفها في سياقه؛ فمنهم من رفض التعامل مع الفرنسيين مطلقا كالسيد عمر مكرم والسادات، ومنهم من تعامل كالشرقاوي والمهدي، ومنهم من نافق وانحاز انحيازا كبيرا مثل الشيخ البكري والمعلم يعقوب؛ وقد ظل زوجها مراد بك مصدر إزعاج لقوات الاحتلال لفترة استمرت حوالي 22 شهرا (من يوليو 1798 إلى أبريل 1800م) حتى توقيع الصلح معه؛ فكانت نفيسة مضطرة للتعامل مع الفرنسيين، ولكن هل يمكن القول إن التعامل تطور إلى تعاون يمس (وطنيتها) أو بمعنى آخر يمس ولاءها للأمة التي تنتمي إليها وصارت جزءا منها منذ عقود؟ ويمكن القول إنها قد اتخذت طريقا وسطا و(معتدلا)؛ حيث كان هذا أقصى ما تستطيعه؛ فكان ذلك بمثابة الانحاء للعاصفة، ومع ذلك؛ فقد استخدمت نفوذها قدر الطاقة للذود عن من لاذ بها من المماليك أو من الشيوخ، كالشيخ الجوهري الذي تشفع بها فشفعت له.

ـ بعد استعراض سيرة نفيسة على نحو ما سبق يبدو جليا خطأ ذاك الوصف الذي نعتتها به بعض الكتابات بأنها "عاشت في الظل"! لأنها عاشت تحت الضوء وفي بؤرة الأحداث بل وتحت وهج شمسها الساطعة بل واللافحة تؤثر وتتأثر. ولم يمنعها نظام (الحريم) من أن تشارك بفاعيلية في كافة المجالات وأن يصبح بيتها مركزًا يستقطب رجال الحكم والسياسة.

ـ من الأهمية بمكان إعادة النظر وبقراءة نقدية لكتابات الرحالة والمؤرخين الأوروبيين عن المرأة المصرية وعن نفيسة حيث إنها حوت معلومات مغلوطة في الوصف والسرد فضلا عن أخطاء في الفهم والتفسير والتحليل، كانت محصلتها تشويه كثير من وقائع التاريخ في تلك الحقبة.

ـ يمكن القول إنه وقبل الظهور دعوات تحرير المرأة بقرن من الزمان أو يزيد عاشت نفيسة وبرزت، بل وبزت الكثير من الرجال، وكان لها أثر في ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والسياسية. اقتصاديا؛ فكان ذات ثراء عريض ولديها أوقاف و(التزامات) وتجارة واسعة. اجتماعيا؛ فكان لها على الفقراء بر وإحسان وأنشأت مؤسسات خيرية لعامة الشعب (حمامين، صهريج، وسبيل، وكالة، وربع). وتعليميا؛ فأنشأت كُتَّابا كان بمثابة مدرسة أولية لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم. وسياسيا؛ فكانت همزة وصل في علاقات سياسية ومفاوضات دبلوماسية عالية المستوى وبالغة الأثر قبل هبوط الحملة فكم لجأ إليها الفرنسيون للتدخل لدى زوجها، وكم لجأ إليها المماليك للتدخل لدى القنصل الفرنسي، وكم كان لها الأثر في عقد معاهدات بين حكومة فرنسا وحكومة المماليك قبل هبوط الحملة، ثم إبان الحملة؛ حيث كان لها الدور الأبرز في المفاوضات بين كليبر وزوجها أفضت إلى توقيع معاهدة سلام بينهما. ولهذا فإن سيرتها على هذا النحو تغلق الكثير من الأساطير المتعلقة بالمرأة الشرقية وتقدم منظورا مختلفا؛ ينقض تلك الصورة النمطية على أنها كانت مهمشة ومقموعة.

ـ إن دراسة نفسية تسلط الضوء على حياة القرن الثامن عشر الميلادي الذي يراه (بيتر جران) بأنه كان "الأكثر رحابة وإبداعا، والأقل تزمتا"[428]. وهذا رأي مهم يساهم في تفسير بروز امرأة ذات مواهب مثل نفيسة في ذلك العصر وعدم ظهر مثلها في عصر التحديث الذي بدأه محمد علي. وهو ما يفند الصورة الذهنية لذلك القرن الذي يوصف عادة بالتأخر والانحطاط. لقد شاركت نفيسة بفاعلية لافتة في المجال العام

[428]- بيتر جران: المرجع السابق، ص 324.

وحظيت تلك المشاركة بقبول اجتماعي حسن دون أي غضاضة وهو ما يلقي مزيدا من الضوء على رحابة أفق ذلك العصر وذلك عكس هو شائع ومستقر لدي الكثير. ولو لم تكن ثقافة المجتمع المصري تسمح لمواهبها بالظهور لما بزغ نجمها على هذا النحو، وللمفارقة العجيبة إن نجمها أفل في عصر التحديث: عصر محمد علي! حيث لم تتألق امرأة بمثل هذه المواهب في عهده! ولم تسمح الظروف لغيرها بالتألق!

الخلاصة النهائية: كانت نفيسة البيضاء أنموذجًا للمرأة القوية المثقفة صاحبة النفوذ، التي تجاوزت حدود الحريم التقليدية، وأسهمت في صناعة تاريخ مصر في فترة حرجة، الأمر الذي يتحدى تلك الصورة النمطية لتاريخ المرأة في ذلك العصر.

مصادر البحث ومراجعه

أولا: الوثائق:ـ

ــ وثائق الحملة الفرنسية على مصر، أرشيف أوروبي، ملف رقم 35، B6-70، محفظة من 20 يونيو إلى 22 يوليو سنة 1800م، في 17 ميسيدور السنة 9 (24 صفر سنة 1216 هـ)، دار الوثائق القومية، القاهرة.

ــ وثائق الحملة الفرنسية على مصر، أرشيف أوروبي، ملف رقم B6-134 ، محفظة من 20 إبريل1801 إلى 22 مايو 1801م ، دار الوثائق القومية، القاهرة.

ــ مختارات من وثائق الحملة الفرنسية 1798ــ1801م، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006م.

مصادر ومراجع باللغة العربية:

- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

ــ أحمد السيد دراج والسيد رجب حراز: دراسات في التاريخ المصري، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.

ــ أحمد جودت باشا: تاريخ جودت،ج1، ترجمة عبد القادر أفندي الدنيا، نظارة المعارف، بيروت، 1358هـ.

ــ أحمد حافظ عوض: فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر، مطبعة مصر، 1925م.

ــ أحمد زقلمة: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

ـ أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.
ـ أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016م.
ـ إسماعيل بن سعد الخشاب: خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، ودانيال كريسيليوس، القاهرة، 1992م.
ـ ابن الأثير: البديع في علم العربية، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 1420هـ.
ـ الدارقطني: سنن الدراقطني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، كتاب المكاتب، ج5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2004م.
ـ أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798-1801م، ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2001م.
ـ بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993م.
ـ ج كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.
ـ ج. دي شابرول: وصف مصر، ج1، المصريون المحدثون، مكتبة الأسرة، 2002م.
ـ جلال يحيى: مصر الحديثة،1517-1805م، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.
ـ جوديث تاكر: النساء في مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة هالة كمال، المركز القومي للترجمة، عدد 1214، القاهرة، 2008م.
ـ جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك حتى نهاية حكم إسماعيل، تعريب: علي أحمد شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1996م.

ـ جوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية، تعريب: عادل زعيتر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011م.

ـ ـــــــــــــ: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م.

ـ جي فارجيت: محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة محمد رفعت عواد، الهيئة العامة للكتاب، 2005م.

ـ حسن حلاق وعباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1999م.

ـ حيدر الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، مطبعة السلام كلوت بك بمصر، 1900م.

ـ دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، تعريب: عبد الوهاب بكر، نهضة الشرق، القاهرة، 1985م.

ـ دولابورت: قاهرة المماليك، وصف مصر، ترجمة: منى زهير الشايب، ج11، مكتبة الأسرة، 2002م.

ـ دونالد كاميرون: مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، عدد 3001، القاهرة، 2019م.

ـ دي بوا ـ إيميه وجولوا: دراسات عن المدن والأقاليم المصرية: رحلة إلى أعماق الدلتا، وصف مصر، ج3، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الأسرة، 2002م.

ـ زينب أبو المجد: أوقاف النساء: المرأة، المعرفة، السلطة، مجلة المرأة والحضارة، العدد الأول، القاهرة، ربيع 2000م.

ـ س. ف. فولني: ثلاثة أعوام في بر مصر والشام، ج1، ترجمة إدوارد البستاني، في ج2، ملحق في عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2012م.

ـ سيد أحمد على الناصري: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من خلال وصف الرحالة جون أنتيس (1770-1782م)، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومى للترجمة، القاهرة، 1997م.

ـ طارق السيد سليم: المرأة المصرية في فترة الاضطرابات السياسية 1801-1805م، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، أبريل 2022م.

ـ طارق بدراوي: أم المماليك عاشت في الظل وماتت في الذل، جريدة أبو الهول، عدد 01، 2019م.

ـ عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ مدة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 2000م.

ـ ـــــــــــــــ: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، المجلدات من 1 إلى 7، ط2، القاهرة، 2012م.

ـ ـــــــــــــــ: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2023م.

ـ عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج1، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1998م.

ـ ـــــــــــــــ: تاريخ الحركة القومية، ج2، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2000م.

ـ ـــــــــــــــ:عصر إسماعيل، الجزء الثاني، الهيئة المصرية للكتاب، 2001م.

ـ عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولي، ط 2، القاهرة، 1986م.

ـ ـــــــــــــــ: عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي، تراث الإنسانية، الملجلد الرابع، مكتبة الأسرة، 2016م.

ـ عراقي يوسف محمد: الوجود العثماني المملوكي في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

ـ علي أسعد وطفة: في مفهوم النخبة: مقاربة بنائية، نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، الإصدار الأول، الكويت، مايو 2015م.

ـ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية لمصر القاهرة، ج3، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م.

ـ ـــــــــــــــ: الخطط التوفيقية، ج7، مدينة الإسكندرية، ط2، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1987م.

ـ فرانسوا فوريه وديني ريشيه: الثورة الفرنسية، ترجمة: زياد العودة، ج2، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012م.

ـ فورييه: مصر والحملة الفرنسية مقدمة تاريخية، وصف مصر، ج1، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة الاسرة، 2002م.

ـ قادر إسحق ناتخو: التاريخ الشركسي، ترجمة: محمد أزوقه، مؤسسة الدراسات الشركسية، نيوجرسي، 2005م.

ـ كرستوفر هيبرت: المرأة في حياة بونابرت، ترجمة: عمر الأيوبي، كلمة، أبو ظبي، 2002م.

ـ كورييه دليجيبت، ترجمة صلاح الدين البستاني عدد 68، وعدد 112، السنة التاسعة للجمهورية، دار العرب للبستاني، القاهرة، 1971م.

ـ كينيث كونو: فلاحو الباشا، ترجمة سحر توفيق، مراجعة عاصم الدسوق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م.

ـ كاترين وجيه: موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية على مصر، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عدد51، 2017م.
ـ ليلى عنان: الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، ج2، دار الهلال، القاهرة، 1998م.
ـ ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ج2، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
ـ مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، الجزءان: الأول، والثاني، ط3، القاهرة، 1985م.
ـ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر،دمشق، 1990م.
ـ محمد أنيس: حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ج9، 10، 1962م.
ـ محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير، دار الفكر العربي، القاهرة، 1950م.
ـ محمد عبد الحميد الحناوي: دراسة في وثائق الجنرال كليبر 1800–1798م، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، عدد29، يناير 2009م.
ـ محمد عبد الله عنان: مصر في أواخر القرن الثامن عشر كما يصفها الرحالة سافاري،مجلة الرسالة، عدد 220، 1937/9/20م. وعدد221، 1937/9/27م.
ـ محمد عبده: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، في الكتابات السياسية، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، 2009م.
ـ محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2013م.

ـ ـــــــــــــــ: مصر في مطلع القرن التاسع عشر 1801-1811، الأجزاء: الأول، والثاني، والثالث، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2010م.

ـ محمد نور فرحات: التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012م.

ـ محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955م.

ـ محمود متولي: عمر مكرم، وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، 2008م.

ـ ميكل ونتر: المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2007م.

ـ ناصر أحمد إبراهيم: المجتمع الحاضن وثقافة الاحتواء تجربة اندماج المماليك في المجتمع المصري، مجلة مصر الحديثة، مجلد 16، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2017م.

ـ ناصر سليمان: التاريخ الاجتماعي للجواري في مصر قبيل عصر التحديث، عدد 1، مجلة أسطور، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، يناير 2015م.

ـ نقولا الترك: مذكرات نقولا الترك أخبار المشيخة الفرنساوية في الديار المصرية، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015م.

ـ هنري لورنس: الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، 1995م.

ـ هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2016م.

ثالثا: مصادر ومراجع أجنبية:

-Ayalon, D.: Studies in al-Jabarti, I: Notes on the Transformation of Mamlük Society in Egypt under the Ottomans. Journal of the Economic and Social History of the Orient 3.(1960).

-Berthier, L.A.: Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie, Publisher Paris: Didot l'Aine, 1801.

-Browne, W. G., Travels in Africa, Egypt, and Syria, from the year 1792 to 1798, Printed for T. Cadell and W. Davies, London, 1799.

-Douin, G.: Le Carosse de Mohamed Bey, Bulletin de l'Institut de l'Egypte 8 (1926).

-Fay, M. A. : Shawikar Qadin Woman of Power and Influence in Ottoman Cairo, International Journal of Middle East Studies, vol. 29 ,February, 1997.

- Fay, M. A.:Unveiling the Harem Elite Women and the Paradox of Seclusion in Eighteenth-Century Cairo, Middle East Studies, Syracuse University, 2012.

-Koenig, V.: Drovettei et l'Égypte de Mohamed Aly, Annales islamologiques, Année 1982.

-Hanotaux, G. :Histoire de la nation egyptienne, tome v, l'egypte turque, pachas et Mameluks du xvie au xviiie siecle, l'expedition du general Bonaparte, Broché – 1 janvier 1934.

-Kandil, D. A. : "Exploring Women's Role in Eighteenth-Century Egypt: Nafisa al-Muradiyah and Her Ingenious Feminine Experience."

مجلة علوم وفنون، دراسات وبحوث، جامعة حلوان، مج21،ع4، أكتوبر 2009م.

-Lusignan, S. : A history of the Revolution of Ali Bey against the Ottoman Porte, Phillips, London, 1783

- Owen, R.: Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development, Oxford University Press, 1969.

- Savary C. : Lettres sur l'Égypte, 3 vol. Paris an VII (1798).